

# المكان والتاريخ

في صدر الإسلام

مقاربات في الجغرافيا التاريخية

د. حسن سلهب

تقديم ا.د. أحمد حطيّط



دار روافد

## ٢٨ تقديم: الدكتور أحمد حطيط

للمكان أهمية خاصة في تحديد مسار البحث العلمي وتوجيهه، وبخاصة في علمي التاريخ والآثار؛ إذ تبنى عليه الفرضيات المؤسسة للعديد من الأبحاث الخاصة بتاريخ الشعوب، لتصبح الأماكن شاهد عيان لا يمكن تكذيبه بحال من الأحوال، لكونه ركنا أساسيا في الخبر أو النبأ. فسؤال أين؟ هو أحد أهم الأسئلة التي على المُخبر أن يجيب عليها في خبره. فالجواب على سؤال أين؟ غالبا ما يجيب عن كثير من الأسئلة الكامنة وراء أي خبر؛ فإذا عرفت أين حدث شيء ما قد تعرف، مبدئياً، لماذا حدث ومع من حدث.

وتختلف النظرة الى المكان مع اختلاف الزمان، ومع اختلاف مسار البحث وأهدافه؛ فكلما تقدم الزمان يطرح المكان جملة من الأسئلة بصيغ متجددة تبعا لمعطيات الحاضر، وتلعب الإجابة عن تلك الأسئلة دورا كبيرا في استقراء الأحداث المستقبلية.

ومن نافل القول أن الجغرافيا التاريخية بما تنطوي عليه من ثنائية المكان والزمان، فرضت نفسها، منذ أمد بعيد كتخصص، قائم بذاته، كفيل بأن يفتح آفاقا جديدة أمام البحث في تاريخ العصور القديمة والوسيلة وتعميق المعرفة بعدد من الظواهر التاريخية المرتبطة بتلك العصور، على قاعدة تفاعل الإنسان مع المجال ( التراب / المكان ) ومدى التأثير المتبادل بين المكان والتاريخ في تطوير المعرفة التاريخية. فالجغرافية التاريخية هي جغرافية الماضي الذي يتعرض له المجال خلال الزمن، ما يجعل الكائن البشري يتفاعل مع تغيرات المكان مع الوقت، واستحالة عزله عن المجال الذي يعيش فيه. لذلك عرف هالفورد ماكندر ( Halford Mackinder ) الجغرافيا التاريخية - وهو أحد كبار مؤسسيها - بأنها «دراسة الحاضر التاريخي» ، مطالبا الجغرافي أن يعود بنفسه

© جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

ISBN: 978-614-426-752-3



دار روافد

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

ت: ٧١/٨٦٨٩٨٠

darrawaed@yahoo.com

التنفيذ الطباعي - دار المحجة البيضاء



الى ما كان قائما منذ ألف سنة أو ألفي سنة أو أكثر، ويحاول تصوّر الأحوال الجغرافية التي كانت قائمة، آنذاك، كأنما يعيشها في تلك المرحلة بالذات. ما يعني أن على دارس الجغرافية التاريخية تقع مهمة إعادة بناء «الجغرافيات السابقة» للمنطقة الجغرافية موضوع دراسته، وهذا يتطلب منه أن يلمّ بالتراث الماضي والجيولوجي والتاريخي.

ولعل الزميل الصديق الدكتور حسن سلهب قد تأثر في كتابه «المكان والتاريخ في صدر الاسلام/ مقاربات في الجغرافية التاريخية، بكتاب العالم الجيو-سياسي فرناند بروديل (Fernand Braudel) الموسوم «هوية فرنسا» (Identité de La France، وهو من ثلاثة مجلدات، حمل المجلد الأول منه العنوان «المكان والتاريخ» (L'espace et l'histoire). وإضافة الى بروديل، تأثر الدكتور سلهب برواد آخرين لمدرسة الحوليات الفرنسية (Ecole des Annales) التي شاع صيتها في النصف الأول من القرن العشرين، ومن أبرزهم لوسيان فيفر (Lucien Fèvre) ومارك بلوخ (Marc Bloch) وجاك لوغوف (Jacques le Goff) الذين ربطوا بين مفهوم الزمن ومفهوم المكان، وبين المجموعات البشرية والوسط الطبيعي؛ ولاحظوا أن النظر الى المكان تختلف مع اختلاف الزمن، وأنه كلما تقدّم الزمن يطرح المكان جملة من الأسئلة بصيغ متجددة تبعا لمعطيات الحاضر، لتلعب الإجابة عن تلك الأسئلة دورا كبيرا في استقراء الأحداث المستقبلية واتجاهات النشاط الإنساني.

قسم الدكتور سلهب كتابه الى خمسة فصول، إضافة الى مقدمة وخاتمة.

خصص الفصل الأول من الكتاب لمقاربات نظرية عرض فيها لعناصر المكان الجغرافية والإنسانية، متوقفا عند آراء مختلفة حول جدلية الإنسان والمكان، وأثرها على الاجتماع الإنساني (أهل التلول وأهل القفار حسب تعبير ابن خلدون) والفروق الكامنة بين جغرافية شبه الجزيرة العربية والأقاليم المجاورة لها، ومنها بلاد الشام والعراق ومصر، مُبرزا أهمية مدينة مكة، بما هي حيز مكاني ذو طابع غيبي، لتغدو هذه المدينة نقطة انطلاق وانفتاح قابعة في عمق هوية المكان والزمان، وتُفكك بـ«المضامين والمعاني الروحية والوجودية»،

لتسلك مكة وسائر حواضر الحجاز مسارها السهل والمعقد في آن، الى تاريخ «يعبق بالإيمان» حيناً (عصر الرسول) والخروج عليه أحيانا (مسألة الخلافة وتداعياتها). كما قارن بين البادية والمدينة، بما هما تعبيران حضاريان يتجاوزان البعد المكاني الى البعد الاجتماعي والسياسي والثقافي، متأثرا، بذلك، بنظرية ابن خلدون في العلاقة بين البادية والحضر.

وأفرد الباحث الفصل الثاني لمقاربات تطبيقية وإشكاليات تتعلق بوجهة الفتوحات العربية في الشام والعراق ومصر، فيرى أنها، والى حد بعيد، امتداد لغزوات الرسول (ص) وسراياه من منطلق ديني، وأن الخلافة، حرصت، بعيد تجهازها على حركة الردّة، على توسيع نطاق دولة الاسلام وتعزيز مواردها المادية لتركيز دعائمها، بعد أن تحقق للرسول (ص) فتح حواضر الحجاز الرئيسة الثلاث: يثرب (المدينة المنورة) ومكة والطائف، مستحضرا مقاربات لكلود كاهن ورينهرت دوزي وفرنيسكو كيريللي، وصالح أحمد العلي، حول إشكاليات الفتوح ودلالات المعارك الكبرى التي خاضها المسلمون ضد البيزنطيين والفرس (معارك اليرموك والقادسية والجسر) ومدى تأثير ثنائية المكان والزمان في انتصارات المسلمين.

ودرس المؤلف في الفصل الثالث مزايا الأقاليم المفتوحة، ولاسيما منطقة السواد العراقية ذات الأراضي الزراعية الخصبة، والأكثر أهمية من الناحية الاقتصادية في تاريخ العراق بعيد الفتح، راصدا التحولات البنيوية في الدولة العربية الإسلامية الناشئة، وكيفية تعامل العرب المسلمين مع هاجس المكان، وبخاصة في عهد عمر بن الخطاب، الخليفة الراشدي الثاني، الذي بادر الى تنظيم البلاد المفتوحة.

وتناول الدكتور سلهب في الفصل الرابع مسألة جيوسياسية مهمة تتصل بعلاقة العرب بالبحر، وتوجّسهم ركوبه، لأسباب أحالها، في الدرجة الأولى، الى طبيعة العرب الحذرة بتجنبهم كل ما وعربا، كالجبال أو الهضاب، معرضين عن ركوب البحر لمخاطره الجمة، متأثرا في ما ذهب اليه ابن خلدون الذي قضى



أن إعراض العرب عن البحر يعود الى بنيتهم النفسية التي تدفعهم الى انتهاب وسلب «ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر»، وربما شكلت تلك الأسباب المسوغات الرئيسة لرفض الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب، طلب والي الشام، آنذاك، معاوية بن أبي سفيان، بناء الأسطول لمقارعة البيزنطيين في البحر المتوسط، فتأخر الأمر الى عهد عثمان بن عفان، الخليفة الراشدي الثالث، الذي أذن لمعاوية ببناء الأسطول، وتحقيق للمسلمين الاستيلاء على بعض جزر البحر المتوسط وشواطئه.

أما الفصل الخامس والأخير، فعقده الباحث لمركز الخلافة الراشدة، وشروط اختيار مكانه، ومن أهمها: توسط الموقع نطاق أرض الدولة، والكفاية الأمنية، وتوفر الموارد المعيشية الأساسية من مياه وغذاء وملائمة المناخ، وغيرها، كما درس علاقة السلطة بالمكان (المدينة المنورة حاضرة الإسلام في زمن الرسول والخلفاء الراشدين الثلاثة) وملابسات انتقال مركز الخلافة من المدينة الى الكوفة في عهد الإمام علي بن أبي طالب، الخليفة الراشدي الرابع.

وخلاصة القول إن الدكتور حسن سلهب سعى الى تشخيص دور المكان في الحراك التاريخي في شبه الجزيرة العربية وأقاليم الشام والعراق ومصر، في زمن الرسول والخلافة الراشدة، ونجح الى حد بعيد في دراسة الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام من زاوية جغرافية المكان بعناصرها المختلفة، مناخا ومسالك برية ومائية، وبيئة اجتماعية، عاملا على رصد أثر ذلك في تشكل السلطة الإسلامية، وتمركزها في الحواضر، ورسم صورتها وسماتها المخصوصة. وبذلك قارب الباحث، بموضوعية، مسار نمو السلطة في عهد الإسلام الأول وتطورها، استقرارا حيناً، واضطراباً أحياناً، مؤشراً الى ما ستكون عليه ملامح النظم السياسية والإدارية والعسكرية والاقتصادية للدولة الإسلامية الفتية وثقافة مجتمعتها في العصور الإسلامية المتعاقبة.

## مقدمة

يندرج هذا البحث في إطار علاقة علم التاريخ بالعلوم الانسانية والطبيعية، ومن الواضح أن أكثر الابحاث في هذا الشأن إقتصرت على الشق النظري العام دون التطبيقي الخاص، وهذا ما يتوخى البحث الاسهام فيه على وجه الدقة، حيث من المفترض تقديم مقاربات تطبيقية في مجال الجغرافية التاريخية لصدر الاسلام. وبالرغم من تعدد العوامل المؤثرة في تاريخ صدر الاسلام، إلا أنه ثمة دور للمكان أو المجال الجغرافي لا يظهر أنه حظي بالاهتمام الوافي، خصوصاً إذا ماتأملنا في مناهج الجغرافيا التاريخية والحقول الجديدة التي شرعتها أمام البحث والدراسة. والمدقق في طريقة إستفادة معظم الباحثين يلاحظ أنه في أكثر الأحيان يجري تقديم المادة الجغرافية بما يشبه التمهيد للدراسة التاريخية، وبشكل مفصول عن بنيتها وإشكالياتها، فضلاً عن إستنتاجاتها وآفاقها المنظورة.

إن شبه الجزيرة العربية، وبلاد الشام والعراق ومصر وغيرها، تضم العديد من الاماكن والبلدان والنواحي، فضلاً عن الطرق والمسالك، التي كان لها دور وإسهام ملحوظ في معظم الوقائع والاحداث التاريخية التي عاشتها هذه المنطقة على مدى نصف قرن من تاريخ البعثة النبوية وظهور الاسلام.

إن مهمة هذا البحث تكمن في تحديد هذا الدور، وتعيين هذه الإسهامات، بناءً على المميّزات والمقوّمات الخاصة بهذه الاماكن والبلدان والنواحي، وبالتالي العلاقة مع الوقائع والمسارات التاريخية ذات الصلة في تلك الفترة، وهذا يعني أننا أمام إشكالية لاكتنفي بالمرئي أو المحسوس من الجغرافيا، كما هو حال الكثير من الدراسات، بل تحفر عميقاً بهذه المميّزات والمقوّمات، وتأمل طويلاً في تقدير طاقتها وتقييم فعاليتها في المدى الزمني المحدود أو المفتوح.



لقد كان المكان أو المجال الجغرافي، بكل ما ينطويان عليه من رمزية أو حيية، حاضرين في خيال المؤثرين بالوقائع والاحداث، كما كانا فاعلين في مجرى التاريخ وتطورات المتلاحقة، من دون أن يعني ذلك التأثير الحتمي أو التحكم الكلي بالوقائع أو المسار العام.

فالسئلة المطروحة إذن تطال نوع وحجم التأثيرات التي أنجزتها هذه الاماكن والمجالات، بما تكتنزه من مميزات وحيثيات، سواء بصورة مستقلة أو مندمجة مع عوامل أخرى يحفل بها التاريخ في معظم وقائعه ومساراته.

يفترض البحث أن تاريخ صدر الاسلام ينطوي على مؤثرات مكانية وجغرافية ذات أهمية ملحوظة، بحيث لا تخلو محطة أو واقعة تاريخية من عناصر ذات طبيعة جغرافية، مادية أو غير مادية. وإذا كانت الجغرافيا تحضر في التاريخ بقدر إتصالها بشروط الحياة الانسانية، سلباً أو إيجاباً، فإن تاريخ صدر الاسلام يحفل بالعديد من مظاهر هذا الإنصال التي فرضتها حيوية الدين الجديد. والباحث المتأمل يدرك أن القسم الأكبر من هذا التاريخ هو تاريخ الاماكن الجديدة، فضلاً عن القديمة، وتاريخ الحواضر العتيقة، فضلاً عن العريقة.

والعلاقة بالمكان تنوغل بالماضي متجاوزة العقود والقرون، كما تتطلع نحو المستقبل، حيث الاستقرار والانتشار مسارات ثابتة ودائمة في هذا التاريخ الذي يزخر بالطاقة ويفيض بالحيوية.

وبالرغم من إحتفاظ العديد من الاماكن برمزياتها ومكانتها، بل بدورها وتأثيرها، إلا أنه ثمة فرص مفتوحة لاماكن جديدة تضاف في إطار التجربة التاريخية الجديدة، ولن تحول أمجاد البدايات الخاصة بالاماكن والنواحي الأولى دون ظهور اماكن ونواح جديدة بفعل التطورات المتلاحقة، حيث تفرض الجغرافيا نفسها في ضوء الفتوحات، شرقاً وغرباً، ويغدو من الضروري الاصغاء جيداً لمنطق المكان وشروطه على حساب بعض الزمان العابر، من دون

لقد حالت الجغرافيا بالفعل دون تحقيق العديد من الأهداف المرجوة والآمال المعقودة، وفي أحيان أخرى كانت خلف العديد من النتائج والإنجازات التي كان يستبعلها الكثيرون ولا يعرفونها الا في عالمي الخيال والاحلام، لقد بدت الجغرافيا عنصراً حاسماً في بعض الوقائع، ولكنها توارت في أخرى بالرغم من دورها العضوي في بنية الأحداث، وثمة صعوبات أمام الباحثين في تقويم أثرها الفعلي في العديد من الوقائع والأحداث. إن ما تصدى له هذه الدراسة هو تصنيف هذه الانواع من الأدوار إن لم يكن بمقدورها إفتراض آراء واضحة بشأنها.

لقد شكلت مدرسة الحوليات الفرنسية (les Annales) تطوراً نوعياً في الكتابة التاريخية المعاصرة، ويمكن اعتبار هذا البحث إحدى إلهامات هذه المدرسة، لاسيما بعد قراءتي لبعض أعمال أحد أعلامها البارزين، عنيت به المؤرخ الفرنسي فرناند بروديل (Fernand Braudel). هذا بالإضافة الى مجموعة أخرى من الاعمال لاسيما مقدمة إبن خلدون التي غطت إفادتي منها معظم فصول البحث، وكتاب «الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي» لمؤلفه المؤرخ الفرنسي موريس لومبار (Maurice Lombard)، وكتاب «الجغرافيا توخه التاريخ» للجغرافي الإنكليزي جوردون إيست (Gordon East)، وأعمال المؤرخين هشام جعيط، وصالح أحمد العلي، وإبراهيم بيضون، وغيرهم ممن سترد أسماؤهم في هوامش الصفحات ومتونها، على أنني حاولت الإجتهد في فهمي لهذه الأعمال بغية استثمار ذلك في البحث، وما توفيقي إلا بالله.

أخيراً فإن هذه الدراسة، كغيرها من الدراسات، لم تصل إلى ما وصلت إليه بجهد فردي، فهناك من قدم الدعم وأنواعاً مختلفة من الجهود أسهمت في إنطلاقتها وبالتالي إنجازها، ولا بد هنا من الإشارة أولاً إلى الدعم العلمي والمادي الذي قدمته الجامعة اللبنانية لهذا العمل، وذلك في إطار سياستها لتعزيز البحث العلمي في صفوف أساتذتها من كل الكليات والمعاهد، كما يطيب لي



أن أتوجه بالشكر والتقدير لأستاذي الدكتور أحمد حطيط على تقديمه الغني والبالغ لهذه الدراسة ولكل الذين بذلوا جهوداً كريمة في مراجعتها، وبالتالي إغناء وتصويب العديد من مقارباتها ومعطياتها، وأخص بالذكر الأستاذين العزيزين الدكتور محمد مخزوم والدكتور حسن جابر، والزميلين الصديقين الدكتور محمد صادق فضل الله والسيد موسى فحوص، كما أنوّه بالتدقيق الأخير الذي أنجزه رفيقي مصطفى صالح، أما صديقي رامي مصطفى فلا يزال، وبالرغم من كثافة أعماله وتنوع مهاراته في عالم البرمجة الإلكترونية، حريصاً على تقديم مساعدته المتواصلة منذ قرابة ثماني سنوات، لكل هؤلاء الطيبين والمخلصين وغيرهم ممن لم أذكرهم، تحياتي وإعترافي بالجميل، على أنني أتحمل بمفردي كل تقصير أو نقص وقعت فيه هذه الدراسة.

اللوزة، جنوب لبنان، في 18 / 08 / 2016.

✽✽✽

## الفصل الأول

### مقاربات نظرية

#### أولاً: مدخل عام

شهد التفكير في المكان تجارب عديدة، واختلف المفكرون على حدود تأثيره، فمن معتقدٍ بحتمية النفوذ المكاني إلى معتقدٍ بمحدودية هذا النفوذ، ثمة آراء وإجتهاادات عديدة ومتنوعة. وبالرغم من مرور عقود طويلة على هذا الواقع، فإن الدراسات والأبحاث الجديدة ما فتئت تظهر بين الفينة والأخرى، معلنةً عن مجالات جديدة وطاقات غير معروفة للمكان، الحيز والمدى الأكثر حضوراً، والأوسع ظهوراً، في تاريخ الإنسانية.

ربما تراجعت النظريات المتطرفة حول دور الجغرافيا في التاريخ، سلباً أم إيجاباً، فلم نعد نسمع أفكاراً تدافع عن خضوع التاريخ للحتميات الجغرافية بشكل كلي وقاطع، كما لم نعد نلاحظ إهمالاً كلياً لدور الجغرافيا، فقد قرّر الرأي على وجود أصل فعلي لهذا الدور، وانتقل الخلاف إلى مرتبة أعلى تتعلق بحجم النفوذ وحدود التأثير، فضلاً عن المجالات والحقول التي تحكم الجغرافيا بكل تطوّر فيها.

لقد انحسر النزاع - على ما يبدو - وتقلّص بشكل إيجابي لمصلحة المزيد من البحث والدراسة، وها نحن اليوم أمام قضايا وإشكاليات تنطوي على فرضيات فائقة الأهمية في خصوص إسهامات الجغرافيا في التاريخ، كما في الحاضر والمستقبل، فتحة مجالات جديدة للنفوذ، وهناك أنواع جديدة له تختلف بين الماضي والحاضر والمستقبل كما كانت تختلف في التاريخ تبعاً للبقعة الجغرافية أو البيئة المكانية للواقع التاريخي.



قد يشكل البحث في علاقة المكان - أو الجغرافيا عموماً - بأنماط أو أنواع الحياة الإنسانية بكل ما تنطوي عليه من خيارات ونشاطات، سلبية أو إيجابية، مدخلاً منهجياً للوقوف على الفعل التأثيري الذي تمارسه عناصر المكان والجغرافيا، منفردة أو مجتمعة، في كل خيار أو نشاط شهده التاريخ.

وقبل. المباشرة في هذا المجال لا بد من تمييز نوعين من العناصر التي يخترنها المكان، فئمة نوع يتصل بالحياة الإنسانية، بشكل أو بآخر، وهناك نوع آخر لم يظهر لنا أي اتصال حيوي له بهذه الحياة، على الأقل في الماضي الذي شرعنا في دراسته، إن بحثنا سيقصر على العناصر ذات الصلة الحيوية بالحياة الإنسانية، الفردية أو الجماعية، أو ما يمكن تسميته بالمدى أو العمق الإنساني للمكان<sup>(1)</sup>، من دون أن يعني ذلك تحديداً نهائياً لهذا المدى أو العمق لاستحالة ذلك من ناحية عملية.

في الحديث عن الأنماط أو أنواع الحياة يتمحور البحث حول السلوك الإنساني، بوصفه المكوّن الأساس والمادة الأساسية التي يتشكل منها هذا النمط أو هذا النوع، والمؤرخون في النهاية معنيون بصورة رئيسة بهذا السلوك وما ينجم عنه، فالمشاهد التاريخية الراكدة أو الساكنة لا تعني المؤرخ إلا في مجال تحديد التطور اللاحق بها فإذا ما انتفى وجود هذا التطور فإن إهمال هذه المشاهد يغدو تصرفاً تلقائياً مفهوماً.

إذن يمكن اعتبار السلوك الإنساني، ببعديه الفردي والاجتماعي، محوراً ونقطة تركيز رئيسة لفحص مستوى النفوذ المكاني، وبالتالي حجم تفاعل الإنسان أو انفعاله كفرد أو مجموعة.

هنا يمكن استعراض أبرز عناصر المكان أو الجغرافيا بشكل تجزيئي، كل عنصر على نحو مستقل، من دون أن يعني ذلك عدم وجود ارتباطات عضوية

(1) جان فرنسوا دورتيه: معجم العلوم الإنسانية، عادة على الجغرافيا، ترجمة جورج كنورة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت الطبعة الثانية 2011، ص 606.

بينها، بل يمكن الجزم من الآن أن هذه العناصر منظومة واحدة تتفاعل فيما بينها كما تتفاعل مع الكائنات الحية وفي مقدمتها الإنسان، وما فصلها في هذا البحث إلا لغاية التوضيح والتركيز.

يمكن سرد هذه العناصر على الشكل التالي:

1- المناخ 2- التربة 3- الموقع 4- التضاريس 5- الثروات والموارد الحياتية. وثمة عناصر أخرى للمكان يمكن تسميتها بالعناصر التاريخية أو الإنسانية وهي لا تقل أثراً عن بعض العناصر الطبيعية وهي في النهاية حصيلة الجهد الإنساني في التاريخ، لكنها امتزجت في بنية المكان وغدت في صميمه وجزءاً من هويته وحيثياته، كالأماكن المقدسة أو النواحي المستثمرة بشكل مميز في العديد من المجالات الحياتية، كالطرق والمنشآت العمرانية وسائر المظاهر الراسخة في التاريخ الإنساني.

إذن لا يقتصر النفوذ المكاني على الجانب الطبيعي، بل لديه الطاقة على امتصاص الإنجازات والتجارب الإنسانية، وبالتالي تحويل العديد منها إلى ما يشبه مكوّنات وبنى جديدة تُضاف إلى البنى الأصلية وتمتزج معها بصيغة يصعب معها التمييز أو الفصل. حتى الإنسان نفسه تحلّل في المكان وغدا بعظامه ولحمه وسائر عناصر جسده مادة عضوية في تركيب الأماكن التي ضمّته.

## 1 - المناخ

يرى البعض<sup>(1)</sup> أن المناخ، بما يتضمنه من عناصر ومقومات متعددة، أهم العناصر الطبيعية للمكان وأكثرها نفوذاً في الحياة الإنسانية، ذلك أن المناخ، وبالإضافة إلى مؤثراته الذاتية المباشرة كالحرارة والرياح والأمطار ونسبة الرطوبة والجفاف والضغط الجوي وغير ذلك، فهو يملك تأثيراً بنوياً في مكوّنات التربة

(1) جوردون ايبست: الجغرافيا توجّه التاريخ، ترجمة جمال الدين الدناصوري، دار الهلال، القاهرة دت، ص 43.



ودرجة خصوبتها لكونه يشكل عاملاً رئيساً في حركة التعرية والانجرافات التي تشكل بفعلها التربة، كما يملك نفوذاً حاسماً في تحديد أنواع النباتات وسائر المزروعات الطبيعية أو القائمة على الجهد الإنساني.

وإذا كان الإنسان قادراً على التكيف في العديد من أنواع المناخ الجافة أو الرطبة والحارة أو الباردة وغير ذلك، إلا أن ميله الدائم ورغبته الفطرية تنجبه دائماً نحو ألطف أنواع المناخ وأكثرها توفيراً لحاجاته وتأميناً لسبل عيشه ورفاهيته.

ثمة حاجات تتقدم على غيرها، وثمة هواجس تتصدر وتجعل الإنسان في سعي دائم للتعويض والتحسين إلى جانب الصبر والتجملد، ولكن هناك ما يمكن وصفه بالنفوذ الحاسم للمناخ، حيث لا يجد الإنسان أمامه من خيار سوى الانقياد التام والخضوع الكلي، وفي هذه الناحية بالتحديد يبدو المناخ واحداً من أبرز المؤثرات في سلوك الإنسان (فترات الجفاف المتواصلة أو الفيضانات العظمى،...). وليس من قبيل الصدفة أن الكثافة السكانية على سطح الأرض في التاريخ القديم، كما في الوسيط، تظهر في المناطق المناخية الأكثر اعتدالاً.

## 2 - الموقع

ظل المكان الذي استقر فيه الإنسان، لا سيما في التاريخ القديم والوسيط، إنعكاساً واضحاً لحاجاته وطرق تفكيره، وإن أي مسح لمواقع الحضارات القديمة والوسيلة يشير بسهولة إلى العلاقة العضوية بين هذه المواقع وإمكانية توفير الحاجات الرئيسة للإنسان.

فالاستقرار على ضفاف الأنهر أو السواحل البحرية، وعلى مفترقات الطرق التي تسهل الوصول إلى الحاجات الأساسية أو الفرص المفيدة، قابله في بعض الفترات القلقة من تاريخ الإنسان لجوء إلى المرتفعات الشاهقة أو البوادي القاحلة طلباً للأمان وتحسيناً للمدونة على الدفاع.

وبالرغم من التطور الهائل في مجال التقنيات ووسائل المواصلات والاتصالات، لا تزال العديد من المواقع التي اكتشفتها عبقرية الإنسان القديم والوسيط تحتفظ بكامل مميزاتها الاستراتيجية في مجالات السياسة والاقتصاد والدفاع.

لقد لعبت المواقع أدواراً بارزة في الحروب، كما شكلت واحات غنية للاستقرار والإزدهار. وفي مجالات أخرى وقفت المواقع خلف العديد من أشكال الركود والجمود، كما عكست مستوى التغيرات والتطورات التي حفلت بها البيئة المحيطة. لقد رعت هذه المواقع شروط تأسيس «الحواضر» و «المدن»، وأشارت إلى أسباب نهوضها ونموها من جهة، وعوامل تراجعها وأفولها من جهة أخرى<sup>(1)</sup>.

وكما كانت المواقع عنصراً مؤثراً في حركة التاريخ فقد شكلت مدخلاً منهجياً واسعاً وغنياً في فهمه وتحليله.

## 3 - التربة

وهي الطبقة السطحية من الأرض التي تشكل من تفتت الصخور والانجرافات بفعل السيول، والبراكين، والزلازل، وعوامل الزمن، وغير ذلك، ويمكن القول بأن خصوبة الأرض ووفرة المياه السطحية أو الجوفية من شأنها أن تحدد نمطاً متكاملًا للحياة البشرية يعرف بالنمط الزراعي، هذا النمط الذي يلزم مجتمعاته بالاستقرار والانفتاح وهو أقرب الأنماط الحياتية إلى السلم الاهلي والخضوع للقوى الخارجية.

وكما كانت المساحات الخصبة الكبيرة محوراً للنزاع والحروب، فقد شكلت مادةً للتشريع والتنظيم والابتكار في مجالات الري وتحسين الانتاج. إنها إحدى الثروات الكبرى التي تسهم في تهذيب السلوك الإنساني وتمنحه القدرة

(1) جوردون إيست: المرجع السابق، ص 79.



على التحكُّم بالوقت، وبالتالي بناء علاقات التعاون والتعاقد على مختلف المستويات الاجتماعية الصغرى والوسطى والكبرى.

وكما تؤمِّن التربة الخصبة محاصيل وفيرة من شأنها تشكيل طبقات اجتماعية غارقة في الترف واللهم والملاذات، كذلك من شأنها تكييل أعداد هائلة من الفلاحين والمزارعين بأنظمة الاستعباد والاسترقاق وما ينجم عن ذلك من إنتفاضات وثورات تجعل النمط الحياتي برمته عرضة للإنفجار وإعادة التشكُّل من جديد.

لقد إستفاد الإنسان من خيرات الأرض كما تضرَّر منها، وحسَّن بها نوعية حياته، كما تسبَّب بواسطتها بتدهور هذه الحياة وتخلُّفها، لقد شكلت التربة الخصبة إختباراً دائماً لقدرة الإنسان على التصرُّف السليم وحسن التدبير.

#### 4- التضاريس

وهي الأشكال المتنوعة لسطح الأرض، كالجبال والوديان والهضاب والمنحدرات والسهول والأحواض وغير ذلك، وجميعها تسهم بدرجات متفاوتة في تشكيل أنماط الحياة، وبالتالي الأخلاقيات السائدة.

والفارق بين المواقع والتضاريس يكمن في أن تأثير المواقع خارجي على الأغلب، أما تأثير التضاريس فهو داخلي وذاتي. فالفارق بين مفترق الطرق كموقع والجبل كأحد أشكال التضاريس يكمن في أن تأثير المفترق كموقع يكمن في غيره، وإن كان يصدر من ذاته، أما الجبل فهو في نفسه يمتلك التأثير المباشر، ومن دون العلاقة بغيره أحياناً، فالسواحل اللبنانية كمواقع تأخذ قيمتها من كونها مطلة على شاطئ البحر المتوسط، حيث الإمكانات الواسعة للتصدير والاستيراد، للمغادرة والوصول، للهجرة والاستقبال، للانفتاح والتفاعل، للتبادل والتلاقح. أما الجبال كتضاريس فهي تنطوي على خيارات ضاغطة كالعزلة والشموخ والصلابة والاكتفاء، فضلاً عن أخلاقيات التواضع والخضوع والانصياع. والتأثير في الأخلاقيات السائدة من المواقع أو التضاريس يشير إلى طبيعة

المكان  
بما هو  
أصله

المكان  
بما هو  
أصله

الارتباط الخارجي للمواقع وطبيعة الارتباط الداخلي للتضاريس..

من هنا فإن إسهامات المواقع عرضة للتغيير تبعاً لمتعلقاتها الخارجية، كتبديل طرق المواصلات البرية والبحرية مثلاً، أو امتداد مساحات الدول وتقلُّصها بالنسبة للحدود والتخوم، لكن إسهامات التضاريس أقل عرضة للتغيير لثبات العناصر الذاتية فيها، من دون أن يعني ذلك إنعدام القدرة على المبادرة عند الإنسان. هكذا يظهر لنا أن إسهام العناصر الطبيعية بالحياة الإنسانية لا يقتصر على الاتجاهات العامة والأنماط السائدة لهذه الحياة، بل يتجاوزها إلى المزاجيات والأذواق والمهارات الشخصية.

وعندما نتحدث عن العناصر الطبيعية في المكان فإننا نقصد كل ما يتصل بهذه العناصر ويشكل جزءاً من منظومتها العامة، كأنواع النبات والحيوانات وحتى الحشرات التي نمت وعاشت في ظل هذه المنظومة، فهل يمكن - على سبيل المثال - تصوُّر السياق التاريخي لشبه الجزيرة العربية بالشكل نفسه مع وجود البعير وعدم وجود هذا الكائن الحيواني الذي ينتمي إلى هذه المنظومة الطبيعية؟؟ مع العلم بأن أيَّ تجاهل للبعير وغيره من الحيوانات اللصيقة بالحياة العربية، والمؤثرة في مجرى تاريخ المنطقة، سيتسبَّب - حتماً - بالعديد من الغموض والملاسات.

لسنا في صدد المبالغة بأي دور من أدوار العناصر أو المكونات الطبيعية للمكان، ولا يعني ذلك أيضاً التقليل من عظمة دور الإنسان وأرجحيته العامة في مجرى التاريخ، لكن من الضروري ضبط حجم التأثير الذي مارسه هذه العناصر أو المكونات التي شكلت على الدوام الحد الأدنى من شروط الحياة على سطح هذه الأرض.

والنظر إلى المكان لا يقتصر على نماذجه الطبيعية التي لم تمتد إليها يد الإنسان، فالمكان كحيز في الوجود وكيئة فاعلة ومؤثرة ينمو ويتطوَّر بعوامل طبيعية وغير طبيعية ولا يفقد هويته الذاتية أبداً.



فالطرق المفتوحة<sup>(1)</sup>، والمنشآت العمرانية العابرة للزمن، والمدن الراسخة والعريقة، كلها نماذج مكانية تحتفظ بهويتها الأصلية إلى جانب صورها وأشكالها الجديدة والمتطورة، وكما للمكان بنية وصورة، كذلك له تاريخ وماضي، ولا يمكن التأمل بالمكان معزولاً عن مراحل التاريخ والتجارب التي خاضها أو تأثر بها.

ثانياً: آراء في علاقة الإنسان بالمكان

### 1 - الجاحظ والمسعودي

إعترض الجاحظ على مقولة «الناس بأزمانهم أشبه منهم بأبائهم»<sup>(2)</sup> ونسيان عمل البلدان وتصرف الأزمان وآثارهما في الصور والأخلاق<sup>(3)</sup>، ولم يكتف بهذا التعميم، بل ذهب بعيداً في التفاصيل فأضاف «وفي الشمائل والآداب، وفي اللغات والشهوات، وفي الهمم والهيئات، وفي المكاسب والصناعات»<sup>(4)</sup>.

لم ينكر الجاحظ مقولة العنصر الزمني، وتعاقب الأجيال، والمراحل التاريخية، ولكنه أكد على أهمية نفوذ البلدان إلى جانب مفاعيل الأزمان، وإذا كان كتابه هذا موسوماً بالبلدان، وغايته الأولى البحث في هذا الميدان، فإن مقصوده بتصرف الأزمان لا يقلل من مركزية عمل البلدان التي أرادها الجاحظ نقطة محورية، وما الزمان سوى العنصر الضروري لمزاولة البلدان دورها، وبالتالي توالي المشاهد والتائج.

(1) فرنان بروديل: قواعد لغة الحضارات، ترجمة الهادي التيمومي، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت 2009، ص 116. جوردون إيست: الجغرافيا توجه التاريخ، ص 58.

(2) الجاحظ، عمرو بن بحر: كتاب البلدان، نشره مع مقدمة وتعليقات صالح أحمد العلي، مجلة كلية الآداب، بغداد، مطبعة الحكومة 1970، ص 462.

(3) المصدر نفسه.

إن فكرة أن الزمان هو زمان البلدان تبدو أكثر وضوحاً من فكرة أن البلدان هي بلدان الزمان، أو هكذا نفهم فكرة الجاحظ على الأقل.

لقد ربط الجاحظ الشمائل والآداب ببطائع البلدان<sup>(1)</sup> وعلى الأرجح كان يقصد السجاياء البعيدة عن ترف المدن وإسراف الأمصار، كما كشف عن علاقة البلدان باللغات، وأشار بذلك إلى أثر الاختلاط والتمازج العرقي في تشوّه اللسان، بينما تحافظ البيئة النقية والصافية على نقاوة لسانها وصفائه.

هكذا نفهم ظهور الشهوات في ضوء مفاعيل المناخات المؤاتية مباشرة، أو عن طريق نفوذها في التربة والحيوان، وفي مقابل ذلك تبدو «الهمم» واحدة من إنجازات البيئات الصعبة، والمناخات القاسية، أما «المكاسب والصناعات» فهي لصيقة بأماكن تحققها، حيث تتوافر مرافقها أو موادها الطبيعية والأساسية. أما المسعودي (ت. 346هـ / 956م) فقد وجد علاقة بين نمو وإستقرار العراق، بل بين «أمزجة أهله ولطف أذهانهم»<sup>(2)</sup> وبين تحادر المياه إليه، وإتصال النضارة به، ووقوف الاعتدال عنده، وقد نجم عن ذلك أن «احتدّت خواطرهم، واتصلت مسرّاتهم، فظهر منهم الدهاء، وقويت عقولهم»<sup>(3)</sup>، إنه الانعكاس المباشر لغنى المكان في نمو الإنسان وارتقائه في مدارج الحضارة، وبالتالي تحسين النوع البشري.

لقد احتدّت خواطرهم فغدّت كالنسيم العليل في أفيائهم، واتصلت مسرّاتهم كاتصال الخير في بقاعهم ونواحيهم، فظهر الدهاء، كما ظهرت الألوان الساحرة في حقولهم وبساتينهم، وقويت العقول، كما قويت طاقة العطاء والإنبات في تربتهم وسوادهم. وما ثبات بصائرهم إلا كنبات إستقارهم وتواصل إقامتهم.

(1) المسعودي، علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تقديم محمد السويدي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، موفم للنشر، الجزائر 1989، ج 2 ص 43.

(2) المصدر نفسه.



والعراق «قلب الأرض»<sup>(1)</sup> المكان المحور، وخيراته كانت مركز الجباية منذ «قديم الزمان»<sup>(2)</sup>.

لقد وجد المسعودي في كل ميزة من ميزات العراق، وفي كل مفردة من مفردات مدنيته وحضارته، جذراً مكانياً وأصلاً جغرافياً، وما كان دوره إلا ربط هذه الميزات بجذورها، وتلك المفردات بأصولها.

ويتابع المسعودي فيرى في العراق مفتاحاً للشرق، ومسلكاً للنور، ومسرحاً للعنين. ثم يتوغل في فعل المكان في الإنسان «ولأهله أعدل الألوان، وأنقى الروائح، وأفضل الأمزجة، وأطوع القرائح»<sup>(3)</sup>، ها نحن أمام أنموذج آخر للنموذج المكاني واليبي بعد الأنموذج البدوي، ولكنه معكوس في الاتجاه، أصيل في المنهج الواحد.

هنا ترك قساوة المناخ المسرح لمصلحة اللطافة والاعتدال، فتحول الخشونة والغلظة إلى ألوان معتدلة وزاهية، وأمزجة طيبة وفاصلة، ولم تقف الأمور عند هذا الحد، بل توغلت في الجو والهواء الذي يرافق الإنسان ويحيط به من كل جانب، فإذا بالروائح «أنقى الروائح»، أما القرائح فهي «أطوع القرائح». في عراق المسعودي غابت صلابة الموقف، وما ينجم عنها من صعوبة الإنقياد أو استحالة الإنصياع، كما سلاحظ عند ابن خلدون في أخلاق قبائل العرب والبربر في شبه الجزيرة العربية وشمال أفريقيا. لقد اعتدل مناخ المكان فاعتدلت مواقف الإنسان، ولانت أرضه وترطبت نواحيه فلانت ردات فعله وترطبت إستجاباته.

وقيمة هذه السجية لا تقف عند حدود التفاهم والتسالم، بل تذهب بعيداً في تنقية المجتمع وترتقي به إلى مستوى بناء الدول وإعمار الكون، ما يعني في المفروض على الأقل، إرتداد الفعل المكاني والجغرافي على المكان

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

نفسه، والجغرافيا نفسها، بما يزيد من تدخلها وإلتصاقها بالسلوك الإنساني بعد تحديد لها لمزاجه وطبيعة انفعاله وتفاعله.

وأخيراً يلتفت المسعودي إلى المكان من جهة «طيب نسجه واعتدال تربته»<sup>(1)</sup> لتفسير وجود «جوامع الفضل وفوائد المبررات»<sup>(2)</sup>، لقد فرض المكان أخلاقيته الخاصة، ووقف خلف أجمل ما تضمنته الفضائل وأعمال البر. بهذه الحال يتنا أمام إرادة مفتوحة للمكان في كل ميدان من ميادين الإنسان. لقد ظهر ارتباط هذا المخلوق بمسرح حياته، وفضاء وجوده، عميقاً وشاملاً بطريقة يظن فيها الباحث أن قدر الإنسان مجبوك بخيوط من أشعة الشمس، ونسائم الهواء، ومعجون بماء الأرض، ومُخَمَّر في تربتها، ومحدد بمناخها.

ختاماً لابد من الإشارة إلى أنه لا يمكننا إختزال الاختلاف بالمكان، فثمة إنسان يختلف عن كل إنسان، كائناً ما كان هذا الإنسان، وبأي نوع من الأنواع كان الاختلاف. فبذور التعدد والتنوع، وبالتالي الإختلاف، تبدأ بالظهور مع الولادة قبل أي شيء آخر، ثم إننا نرى الاختلاف في الإقليم الواحد، والبيئة الواحدة، والمناخ الواحد، والتربة الواحدة، والموقع الجغرافي الواحد، فالاختلاف تكويني في منشئه الأول، إذاً، ليس فعلاً مكانياً بالضرورة.

وإذا كنا نوافق على نفوذ المكان، بدرجات مختلفة، قبل عملية تكوّن الإنسان، لكن العملية، عملية تكوّن الإنسان نفسها، ليست عملية مكانية، وإن أحاط بها المكان، وتمت في أرجائه.

## 2- آراء ابن خلدون

### أ- الحرارة والإنسان

ربط ابن خلدون بين حرارة الإقليم في السودان و«الخفة والطيش وكثرة

(1) المصدر السابق، ص 44.

(2) المصدر نفسه.



الطرب»<sup>(1)</sup> عند السودانين، وبعد أن وصفهم بالحمق والولع بالرقص، ذكر بأن الحرَّ استرلى على أمزجتهم وأصبح «في أصل تكوينهم»<sup>(2)</sup>، ولم تسلم أرواحهم من هذا التأثير فقد دخلتها الحرارة كما دخلت أبدانهم<sup>(3)</sup>.

بمعزل عن قبولنا اليوم بهذه الآراء، على هذا النحو أم لا، فقد إكتشف ابن خلدون علاقة بين سلوك السودانين ونمط حياتهم من جهة وبين واحدة من مفردات المناخ، وهي الحرارة، من جهة أخرى.

ثم إنتقل إلى مصر مكرراً المقولة، ولكن بصورة أعمق وأوضح، متسائلاً «كيف غلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب»<sup>(4)</sup>، واعتبر أنهم مستغرقون في اللحظة التي يعيشونها، من دون أية تطلعات أو حسابات مستقبلية، فهم «لا يدخرون أقوات ستهم ولا شهرهم، وعامة مآكلهم من أسواقهم»<sup>(5)</sup>.

لقد فتر ابن خلدون فعل الحرارة بالسودانيين والمصريين كفعالها بالمواد المحسوسة، لا سيما الماء، حيث تحوّلها إلى مادة غازية خفيفة لا شكل لها ولا قرار. فقد بدا السودانين والمصريين، في بعض سلوكياتهم، أقرب إلى الكائنات البيولوجية يتلقّبون على قواعدها الطبيعية، بعيداً عن المدنية وأشكالها الواعية والمتحضرة.

ثم يستعرض أحوال أهل الحجاز وجنوب اليمن مرّكزاً على مفهوم «شظف العيش»<sup>(6)</sup> الناجم عن ندرة الزرع والعشب بفعل التربة الفقيرة، و«الأرض الحرّة»، وهذا الوصف للأرض بالإضافة إلى كونه غنياً بالمعاني والدلالات المكانية، فقد

(1) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: المقدمة، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1375، ص 86.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر السابق.

(4) المصدر نفسه.

(5) المصدر نفسه.

(6) المصدر نفسه.

طغى على أسماء العديد من النواحي الشاسعة في مناطق الحجاز وشبه الجزيرة العربية على العموم. لقد تغلغل عنصر الحرارة في مكوّنات الهواء، ودخل في ثنایا الأجسام، وتسرب في بطن التربة حتى أمسك بنمط الحياة السائدة.

### ب- القفار والإنسان

نتوقف أيضاً عند مصطلح مكاني آخر لا يقل أثراً عن مصطلح «الحرارة» وهو مصطلح «القفار»، حيث وصف ابن خلدون العرب بـ«الجانليين في القفار»، كناية عن تنقلهم وعيشهم في النواحي الخالية والقاحلة والمعزولة، وأن هذا النمط من العيش سوف ينعكس على طريقة تفكيرهم وعلاقاتهم، فضلاً عن أخلاقهم وحتى أشكال أجسامهم.

فالحبوب والأذم قليلة لا تسد خلّة، أما الرغد والخصب فدونهما المدى البعيد والبيئة المجافية. إنه نمط «القفار» في العيش، حيث الصلابة تصدر عن صلابة الأرض، وجفاف الاجتماع الإنساني ينبثق عن جفاف الهواء، وندرة الخيارات تنجم عن ندرة الخيرات، ومع ذلك ثمة أخلاقيات ضرورية يجب أن تستقر في المزاج العام، كالصبر على الأيام، والقناعة باليسير من الطعام، والإكتفاء بالمحدود من الوسائل والأدوات.

لقد حتم نمط العيش في «القفار»، النائية عن أي شكل من أشكال الحياة المدنية، على العرب أن يقتصروا «في غالب أحوالهم على الألبان»<sup>(1)</sup>، بديلاً مفضلاً عن الحنطة، واقرنت حياتهم بحياة الابل بقدر إقتران هذا الحيوان بالبادي والصحاري البعيدة. إنها منظومة متكاملة تؤمن الحد الأدنى من أسباب العيش المادية، كما تسهم في نوع الحياة المعنوية من زاوية تفاعل الإنسان مع أحوال المكان الطبيعية.

### - أهل القفار

(1) ابن خلدون: المصدر السابق، ص 87.



أن «من كان معاشهم من الإبل فهم أكثر ظعنًا وأبعد القفر مجالاً». لا مجال للإقامة الدائمة، أو الاستقرار في نقطة محدّدة أو مساحة محدودة، فالحركة دائمة والانتقال بين النواحي سمة ثابتة، فمسارح التلول ونباتها وشجرها لا يمكن أن يكون بديلاً عن بوادي القفر ومراعيها الخاصة. والبعر الذي يخوض غمار الصحراء، بكل ما فيها من حرارة وجفاف، لا يقوى على مقاومة البرد ما يدفعه دائماً للانتقال إلى المناطق والنواحي الحارة، فارضاً على الإنسان، المعيش له، الأحاسيس والدوافع المتجانسة.

هكذا تقاربت الطبائع وتماهت الدوافع، وكلما تعمّقت الحاجة إلى الإبل خضعت النفوس إلى إيقاع حركتها، وسارت في دروبها، وتفاعلت مع أحوالها بأعمق ما يكون التفاعل بين الإنسان والحيوان.

وكما بدا لنا وصف «القفار» بمنظومة حياتية خاصة، ها نحن أمام نمط عيش من نوع آخر هو نمط حياة البعر أو الإبل التي تزاوّل نفوذها الخاص ضمن المنظومة العامة للمكان أي منظومة «القفار».

#### - العرب والحياة الطبيعية

لقد شكل العرب بتجاربيهم الحياتية، في عمق التاريخ القديم وحتى أوائل القرن السادس الميلادي، أنموذجاً بالغ الوضوح والشفافية على خضوعهم لمنطق المكان ومنظوماته المتعدّدة والمتوالية، حتى وصفهم ابن خلدون بالجيل الطبيعي<sup>(1)</sup>، كناية عن خضوعهم لطبيعة المكان وسائر مفرداته، من دون أن ينسى أن هذا النوع من الأجيال «لا بد منه في العمران»، ربما لكونه إعتاد الخضوع لناموس الطبيعة، المرحلة البدائية في التعامل مع أول أنواع النواميس.

وكما حافظت «القفار» على نقاء الأنساب وأصالتها، أو ما عرف بالنسب الصريح، عن طريق عزلة القبائل وإبتعادها عن المخالطة والمزاحمة، ها هي

(1) ابن خلدون: المصدر السابق، ص 121

ميّز ابن خلدون بين «أهل التلول» و«أهل القفار»، واعتبر الجماعة الثانية «أحسن حالاً في جوسمهم وأخلاقهم» نتيجة أنواع الغذاء الطبيعي وكميته، «فألوانهم أصفى وأبدانهم أنقى وأشكالهم أتم وأحسن»<sup>(2)</sup>، ويظهر هنا أن صاحب المقدمة، وبالرغم من قناعته بالمؤثرات الجوهرية لحرارة الإقليم وما فعلته في أهل السودان ومصر، إلا أن هذا العنصر المناخي، أي الحرارة، أخلّى مكانه لعنصر طبيعي آخر أكثر التصاقاً بالأرض، مسرح الحياة. فمنظومة «القفار» بكل مفرداتها (الترحال، الندرة، الإكتفاء، ....) أعمق تأثيراً من منظومة «الإقليم الحار» إذا ما التقيا في منطقة واحدة كشبه جزيرة العرب. ويبدو أننا أمام ترجيح لمنظومة «القفار» على منظومة «الإقليم الحار» يعود سببه الرئيسي لمستوى النفوذ الذي تزاوّل البيئة المكانية في «القفار»، مقارنةً بالنفوذ الخاص بـ «الإقليم الحار». وفي كلا الحالتين نحن أمام نوعين من الظروف المكانية تؤكد عمق التأثير المكاني في حياة المجتمعات، لا سيما في الأزمنة التاريخية البعيدة والمتوسطة.

ولم يكتف ابن خلدون بالآثار الخارجية للبيئة المكانية، بل توغل في عمق الشخصية الخاصة بمنظومة «القفار»، حيث أن «أخلاقهم أبعد من الانحراف، وأذهانهم أثقّب في المعارف والإدراكات»<sup>(3)</sup>، وهذه ذروة النفوذ للمنظومة المكانية في أخطر مكوّن من مكوّنات الشخصية الإنسانية، وأدقها وأهمها. لقد علّل ذلك بنوع الأغذية وكثرتها، وهذا تعليل جزئي ومباشر، أما التعليل الكلي والأعمق فيكمن في البيئة المكانية التي تملك طاقة هائلة في التأثير.

#### - نمط حياة الإبل<sup>(4)</sup>

وكما شكلت الإبل شبكة أمان غذائي في منظومة «القفار» هاهي تزاوّل تأثيراً آخر لا يقل أهمية في مجال طبيعة النشاط ومساحته، فقد أشار ابن خلدون إلى

(1) ابن خلدون: المصدر السابق

(2) المصدر نفسه.



رابطاً ذلك بتجربتهم التاريخية الطويلة في إطار منظومة «القفار» التي غرست في بنيتهم النفسية والذهنية ما لم تقوَ على تبديله أو تعديله المعيشة الخصبة والرغيدة في المواطن الجديدة.

إن التدقيق في دلالات هذا المصطلح<sup>(1)</sup> يضعنا أمام مجموعة من المعاني يبدو أن ابن خلدون قد قصد بها مجتمعة، ويمكن القول بأنها تنتمي إلى منظومة «القفار» التي لطالما عاد إليها أو انطلق منها صاحب المقدمة.

فالوحش في البداية هو حيوان البرّ، والبرّ المقصود هو البرّ الخالي من الناس، والخالي من النبات أو «الحبوب والأدم» بتعبير ابن خلدون. ووصف المكان بالوحش «مكان وحش» هو القفر عينه، والاستيحاش هو عكس الاستئناس، و«مشى في الأرض وحشاً» أي مشى وحده. فالمقصود إذن ليس السلوك الغريزي والخاص بالوحش لحظة إنقضاؤه على فريسته بالتحديد، كما يمكن أن يتبادر للذهن للوهلة الأولى، وإن كان ذلك أحد معاني المصطلح، بل البيئة العامة للوحش وهي المكان الطبيعي حيث الطبيعة تحضر بكل عناصرها بما يشبه التحكم الكامل بمسيرة الحياة.

أما المدلول الحيواني لهذا المصطلح فلا يبعد أن يكون نوعاً من التشبيه بتائج فعل الطبيعة بهذا الحيوان مقارنةً بفعلها في الإنسان، فكما أن الوحش الحيواني لا يتعايش مع غيره ويحافظ على انفراده وبعده، كذلك إنسان هذه البيئة، وسواء أخذ العربي ذلك من المصدر مباشرة، أي من البيئة، أو من ملاحظته لهذا النوع من حيواناتها، أو حتى من الاثنين معاً، فالحصيلة واحدة هي خضوعه لمنظومتها العامة التي أطلق عليها عبارة «القفار».

### الانتقال والاستقلال

ويتوغلّ ابن خلدون في تأثير البيئة المكانية التاريخية على أخلاق وجبلة

(1) المنجد في اللغة و الأعلام، دار المشرق، الطبعة الخامسة والثلاثون، بيروت 1996، ص 891.

المواطن الجديدة في بلاد الشام والعراق إبان صدر الإسلام تمنح العشائر والبطون بعضاً من هويتها، إن لم يكن جلّها، فتختلط الانتماءات القبلية «مثل لحم وجذام وغان وطيء وقضاة وإياد» بغيرها من العرب والعجم، ما دلت الخليفة الراشدي الثاني إلى تنبيه هذه القبائل بقوله «تعلّموا النسب، ولا تكونوا كنبط السواد إذا سُئل أحدهم عن أصله قال من قرية كذا»<sup>(1)</sup>. واللافت من هذه القابلية للمكان أن يحل محل النسب، فيصبح بديلاً كافياً يحمل كثيراً من معانيه وأوصافه وخصائصه، حتى إذا ما تمادت القبائل في إعمار المكان وتغزير الاجتماع والإختلاط بغيرها بتنا نشهد غلبة واضحة للانتساب إلى المكان على كل ما عداه. فقد التصق الناس بمواطنهم الجديدة أو القديمة العامرتين، وتبدل بفعل ذلك العديد من أحوالهم وأحلامهم، وباتوا، من خلال ذلك، معبرين عن خصوصية المكان أكثر من أي أمر آخر بما فيها الأصول النسبية العريقة، من دون أن يعني ذلك غياباً تاماً لهذه الأنساب التي ظلّت تحتفظ بالحد الأدنى من الذاكرة، لكنها تراجعت لمصلحة المكان الجديد الناشئ أو القديم العامر على أن ذلك لن يتوقف عند هذا الحد فقد أشار ابن خلدون إلى فساد «الأنساب بالجملة» حيث، «فقدت ثمرتها من العصبية فاطرحت ثم تلاشت...» ولم يزل للأنساب ما كان لها إلا في البدو على حد تعبيره.

### العرب والتوحش

من الأمور المثيرة التي يبدو أن ابن خلدون قد أصرَّ عليها، وربما بالغ في تقدير حجمها وتأثيرها، وصفه للعرب بأنهم «أمة وحشية»<sup>(2)</sup>، ومقالته «باستحكام عوائد التوحش»<sup>(3)</sup> فيهم، وأنهم «إذا تغلبوا على أوطانٍ أسرع إليها الخراب»<sup>(4)</sup>.

(1) ابن خلدون: المصدر نفسه، ص 130.

(2) المصدر نفسه، ص 149.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه.



العرب فيشير إلى عدم انقيادهم للسياسة، وطبيعتهم المنافية والمناقضة للعمارة فالإرتحال والتغلب سمتان أصيلتان لديهم وليس بوسعهم التخلي عن أي منهج وهذا ما سيؤدي إلى وصفهم بعدم القدرة على البناء لغياب الاستقرار والتعددية الإقامة الثابتة أو المتواصلة، لقد حافظت منظومة «القفار» على نمط عيشهم والتنقل الدائم والاعتماد على السلب والنهب. والسؤال المركزي الدائم في هذه الدراسة هو: ما هي العلاقة بين هذا النوع من السمات وفرضية المكان؟

### ج- العرب والخروج من أسر المكان

ثمة ملاحظات عديدة تتعلق بالأدلة والأمثلة التي ساقها ابن خلدون في تأكيد نظريته في البنية النفسية والعقلية للشخصية العربية، وقد جرى نقدها في أعمال العديد من المفكرين والمؤرخين، ولنا هنا في وارد الخوض في هذا الغمار، لكن جوهر منهجه القائم على أثر البيئة المكانية في هذه الشخصية لا يزال يحتفظ بجديته وقيمه العلمية. ربما لم يخطر في بال صاحب المقدمة أنه يقدم هذا العامل على العديد من العوامل التاريخية التي تأثر بها العرب لقرون طويلة، لكن الراجح أنه كان حريصاً على ربط كل ذلك بهذه البيئة وهذه الأحوال المكانية. وحتى لا يشكّل ذلك قدراً مقفلاً فقد اكتشف ابن خلدون مخرجاً من طبيعة أخرى قد ينقذ العرب من هذا الأسر المكاني والقيّد الجغرافي، فقد أعلن: «أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة، أو ولاية، أو أثر عظيم من الدين»<sup>(1)</sup>، معتقداً بأن ما شكلته الجغرافيا لن يتغير إلا بقوة خارجة عن هذا العنصر وفوقه، وهذا المخرج، كما يشكّل استثناءً لنظريته، فإنه يسهم في تعزيزها وتقويتها لأن نوع هذا المخرج يتصل بالإرادة الإلهية والقدرة الربانية، ويكفي ذلك دلالة على عمق الانغراس وحجم الخضوع العربي لظروف المكان وأحواله. إنه يريد القول بوضوح أن ما فعلته هذه الظروف والأحوال لا يقوى على وضع حد له سوى خالق الجميع الذي أبقى على فطرة الحق في طباع العرب فهم «أسرع الناس قبولاً للحق والهدى لسلامة طباعهم»<sup>(2)</sup>.

أما في مجال الرئاسة والسياسة فقد رأى ابن خلدون تشتتاً وتفرقاً في العرب شبيهاً بتشتتهم وتفرقهم إلى قبائل ويطون وعشائر، خالصاً إلى نتيجة مثيرة: «وإن يُسلم أحد منهم الأمر لغيره»<sup>(3)</sup>.

تلك الحرية في التنقل بين صحاري البوادي وأفيائها، وذلك الاستقلال الذي كان يعيشه العربي مع حلقة القرية أو المتوسطة، كل ذلك ولد لديه شعور بالقدرة على الاكتفاء إنعكس ابتعاداً عن كل أشكال الاجتماع السياسي المبرمج للحرية والاستقلال الفردي، الملزم للخضوع والانصياع، وهذا ما لم يسهل المكان وأحواله في تعزيزه أو تربيته في الذات العربية.

وبالرغم من كل ما وصل إليه ملكهم قبل الإسلام وبعده، ما فتت طبيعة الراسخة في عدم الاستقرار تزاوّل تأثيرها عليهم. «فاليمين قرارهم خراب»<sup>(4)</sup>.

(1) المصدر السابق

(2) ابن خلدون، المصدر نفسه، ص 151

(3) المصدر نفسه



هل يمكن تفسير هذا الاختلاف خارج أحوال المكان وقابلياته؟ وهل ثمة عامل آخر أكثر بروزاً وتأثيراً في مجرى تاريخ هذه المناطق وغيرها من العامل الجغرافي بكل مفرداته ومكوناته؟

### 1 - العرب والإتصال بالمحيط

لقد شهدت نواحي شبه الجزيرة العربية علاقات تجارية وغير تجارية مع الشرق الفارسي والشمال السوري ومنطقة وادي الرافدين، كما كانت لها إطلاقات على المنطقة الجنوبية المحاذية لليمن وعمّان، أو الغربية بدءاً من الحبشة صعوداً إلى مصر حيث البحر الأحمر، أو ما عرف ببحر القلزم، يشكل فاصلاً مائياً بينهما. وهذه العلاقات على اختلاف طبيعتها (تجارة، هجرة، غزوة...) جعلت نواحي شبه الجزيرة العربية أكثر تقارباً وتجانساً بفعل الظروف والهموم المشتركة. ما أسهم في تكوين نظرة واحدة لهذه المنطقة، على الأقل بالنسبة للمناطق المحيطة.<sup>(1)</sup>

إلا أن ذلك - على ما يبدو - لم يحقق الحد الأدنى من التقارب والتعاون بين مختلف هذه الأنحاء الغارقة في نمط العيش في «القفار»، ولكنه أوجد ما يمكن تسميته بالاستعدادات المتشابهة والقابليات المتماثلة، ما يعني ردّات فعل واحدة تقريباً أمام أية ظروف خارجية أو داخلية جديدة تملك طاقة كبيرة على التأثير، وهذا ما جرى التعبير عنه بـ «أثر الظروف المكانية في التجانس الكبير بين عرب شبه الجزيرة»<sup>(2)</sup>.

إن البيئة المكانية التي حالت دون التقارب والتكامل، وبالتالي ظهور شكل من أشكال الوحدة السياسية في هذه المنطقة، هي نفسها التي سوف تجعل سكان هذه المنطقة يملكون استعدادات متماثلة واستجابات شبه موحدة أمام الدين

لقد ابتعد العرب عن الملك بقدر ابتعادهم في مجال «القفر» لأنهم لم مجالاً في القفر<sup>(1)</sup>، واستغنوا عن حاجات التلول وجوبها بقدر اعتبارهم الشظف وخشونة العيش، ممّا رسخ «الغلظة» و«الأنفة» في بنيتهم النفسية وكلها مزايا تنبع من البيئة المكانية، تفوح منها رائحة التراب والحرارة والجفاف كما تغلب عليها فيافي النواحي القاحلة، والأرجاء الخالية، والآفاق المفتوحة أبداً في كل الاتجاهات.

ما يهمننا في هذه المقاربة ليس النتائج العامة لمنهج ابن خلدون، بل منه في اكتشاف طاقة المكان والبيئة المكانية، وهو منهج يتضمّن العديد من تقوّ القوة التي من شأنها الاسهام في فهم الكثير من مواقف الإنسان العربي وسلوكه فضلاً عن إنجازاته وآثاره عموماً. وثمة العديد من القضايا في تاريخ العرب، سيما تلك القريبة عهداً من هذه الحقبة التاريخية التي تأمل فيها ابن خلدون، يستقيم فهمها من دون أخذ مقولته بعين الاعتبار، وبالتالي الاستثمار الفعلي في البحث، وهذا ما تود هذه الدراسة التأسيس له قبل المباشرة بعرض بعم هذه القضايا والسعي لاكتشاف أو تطبيق المنهج الخلدوني في الفهم والتعليل

### ثالثاً: بين شبه الجزيرة العربية والأقاليم المجاورة

إن ما ذكرناه يتجلى أكثر كلما أمعنا النظر في الفوارق الكامنة بين إقليم شبه الجزيرة العربية، الذي يحتل حيزاً ملحوظاً من القسم الجنوبي لقارة آسيا والأقاليم الأخرى، لا سيما تلك التي تشغلها الأجزاء الشمالية من مصر ووادي الرافدين وسوريا<sup>(2)</sup> في القسم الشمالي من القارة نفسها، هذه الفروق الحضارية، من في مواعيد نشوج الحضارة أم في إنجازاتها التاريخية المتوالية عبر القرون، من دخول إقليم شبه الجزيرة العربية عصر الحضارات الحديثة.

(1) المصدر السابق.

(2) لطفي عبد الوهاب يحيى: العرب في القصور القديمة، دار النهضة العربية، الطبعة الثانية، بيروت 1979.

(1) لمزيد من التعمق بعلاقة الجزيرة بالمحيط راجع بروذيل: قواعد لغة الحضارات، ص 99.

(2) المرجع نفسه، ص 38.



لم تصل الأمور إلى مستوى وصف العرب بأمة التوابل والطيب، فقد شكل قسم منها «هدايا أو ضرائب»<sup>(1)</sup> يجري تقديمها للدول والقوى النافذة في حقبات التاريخ القديم، لكنها كانت بالغة الأهمية في ما يتعلق بالاتصال بالعالم وخوض التجربة تبادل المصالح، وإن بصورة محدودة جداً. مجال آخر من مجالات المكان أتاحته البيئة قد يكون خارج منظومة «القفار»، لكنه، وفي حدوده الضيقة،

لقد لعب الموقع الجغرافي لشبه الجزيرة العربية دوراً بالغ الأهمية لم يشكّل سمة بارزة من سمات العرب في تلك الفترات. تضمّن ممرات برية أقل خطورة للتجارة القديمة بين مناطق الشرق الأدنى من جهة، ومناطق البحر المتوسط الشمالية والشرقية من جهة أخرى، وهذا ينطوي على آثار سوف يكون لها مفاعيلها في مجال القابليات والاستعدادات الناشئة بفعل البيئة المكانيّة. ويمكن وصفه بالفرصة الأهم، إن لم تكن الوحيدة، لعرب شبه الجزيرة العربية، وبالتالي خوض أول التجارب التاريخية. حواجز أو فواصل، لكن يمكن القول بأن هذا الإجراءات من قبل المحيط كان لها الأثر الملحوظ في حماية هذه الأمة من التشتت والضياع، وبالتالي تحولها إلى مجموعات تواجه مصير الذوبان الكلي والانقراض.

نحن أمام ظروف وبيئات مكانية غير متجانسة، إحداها تتمثل بالظروف والبيئة الخاصة بالعرب التي كرسّت قاعدة الحركة والانتقال الدائم، وبالتالي عدم الاستقرار ضمن الإقليم أو خارجه كما نرى الآن، والثانية تتمثل بالظروف والبيئات الخاصة بكل من الشمال والشرق، حيث النمط المختلف في العيش ينظر إلى العرب بطريقة تبرز فيها مشاعر القلق بالاحتقار، والخوف بالسخرية، والفارق الجوهرى بين هذه الظروف والبيئات هو فارق جغرافي ومكاني.

من غير المرجح أن تكون هواجس أمم الشمال والشرق محض إقتصادية

الجديد الذي سوف يدفع بالأمور، ولأول مرة في تاريخ المنطقة، نحو إم سياسي عام واحد لم تشهد شيئاً من نوعه - على ما يبدو - في كل أزمنتها القديّة. لذلك فإن نوع الاستجابة وشكلها ومستوى التحول التاريخي الذي فيها لم يتحقّق بمعزل عن القابليات والاستعدادات الناشئة بفعل البيئة المكانيّة. وأحوالها كما تقدّم.

لا يعني ما تقدّم التشابه التام بين مختلف نواحي شبه الجزيرة العربية التجربة التاريخية، فثمة فوارق مكانية واضحة بين الجنوب العامريّ والوسط الغارق ببداوته، والشمال الطامح في علاقاته، بين الغرب المنبشواطنه والشرق المغامر بخياراته، بين ما هو ترجيح مناخي وما هو ترجيح موقعي، إنه تنوّع في وحدة عامة للمكان سوف يكون له دوره ليس في أد ونوع الاستجابة للتطوّرات التاريخية اللاحقة، بل في شكلها ولونها، وربما حجمها وزخمها.

على أن إهتمام المحيط بشبه الجزيرة العربية لم يقتصر على الممرات والطرق فثمة أنواع من النباتات العربية تحت عناوين التوابل والطيب، لا سيما في القسم الجنوبي منها، شكلت المادة، ربما الوحيدة، التي يمكن للعالم، لا سيما القديم، الاستفادة منها في كل من المجالين الاقتصادي والسياسي. وبالإضافة إلى ذلك، فإن

(1) لطفي عبد الوهاب يحيى: العرب في العصور القديمة، ص 304 و 305.

(2) هشام جعيط: تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، دار الطليعة، الطبعة الأولى، بيروت 2007، ص 49.



إنه نوع مختلف من المناخ له متساقطاته وحرارته ورياحه ورطوبته ونضاريسه يؤثر في النفوس كما يؤثر المناخ الطبيعي في الأجسام والأشياء، وينشئ ثقافة روحية خاصة كما ينشئ المناخ الطبيعي إقليماً مناخياً خاصاً. في هذه الناحية الغربية من شبه الجزيرة العربية المطلة على البحر الأحمر، حيث حافظت البشرية على إيقاع بطيء في النشاط والحركة، وعلى مقربة من بعض الممرات والمسالك العابرة بين الشمال والجنوب، وفي وسطها بالتحديد، ومن دون أية احتمالات مبنية على خصوصية المكان وظروفه وأحواله الطبيعية، تشكلت أو انبلجت بقعة من نور سيكون لها دورها المحوري في بناء منظومة جديدة للمنطقة إلى جانب منظومتها السابقة «القفار»، لكنها، ومن دون الخروج على منهج المكان أيضاً، ستدفع بشبه جزيرة العرب إلى الخروج من العزلة والإنكفاء نحو الإنفتاح والتفاعل مع المحيط الشاسع والهادر والمتنوع.

لقد تحول المكان المقدس إذن إلى نقطة جذب بالغة التأثير من شأنها أن تستقطب قوافل الحجاج، من كل حذب وصوب، للحضور في أرجائه، حاملة كل ما لديها من أفكار وتجارات، بل وحضارات، حاكمتها انامل الازمنة العريقة في «مصر وسوريا وبلاد ما بين النهرين ومن المحيط الهندي ومن الحبشة»<sup>(1)</sup>.

لقد تم فتح هذه البيئة، المقفلة بفعل أحوالها المكانية، لتحول إلى بوتقة تتفاعل فيها كل التيارات والثقافات الناشئة في المحيط الواسع<sup>(2)</sup> وفي كل الاتجاهات، من دون أن تنال من شروطها العنيدة في القبول والرفض.

إنها تجربة مخالفة لمألوف الأمور، هكذا قُدر لهذه المنطقة المختلفة أن تسلك طريقها الصعب إلى تاريخ سيؤسس شكل ومضمون هذه الناحية من العالم لقرون طويلة ولا يزال.

(1) موريس لومبارد: الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى، ترجمة عبد الرحمن حميدة، دار الفكر المعاصر، الطبعة الأولى، بيروت 1998، ص 31.

(2) المرجع نفسه، ص 32.

تتحاشى المقاسمة في خبرات المكان، أو حتى ديمغرافية تخشى أن تجر البول العربية لمعل أعاصير وفيضانات الغزو والهجرة، وكلاهما موجود في كل الأحوال، لكن - على ما يبدو - ثمة مخاطر أعماق وأشد تأثيراً في نمط العيش القائم على عدم الاستقرار، الأمر الذي لا يمكن أن تستوعبه الدول المستقرة، بل القائمة على مبدأ ضرورة الاستقرار. إن مشهد الإنسان العربي يوحى - على الدوام - بصعوبة التعايش واستحالة التفاهم وبالانخراط في منظومة جديدة تتعارض مع منظومته، ومع كل ما ألفه من عيش زاخرة بقم الأفاق المفتوحة والخيارات المتعددة والقدرة على الاستغناء والاكتفاء الذاتيين.

هذه هي الهواجس - على ما يبدو - التي كانت تدور في عقول أصحاب الفكر شمالاً وشرقاً، من دون أن يعني ذلك أن العرب كانوا واعين تماماً للمعضلة التي كانت تحول بينهم وبين ما يشتهون من حياة جديدة، خصبة ورغيدة.

ويظهر فيما بعد أنه وبالرغم من إنصهار الجميع في الدين الجديد فقد ظل للعربي سماته الخاصة، وعلاماته الفارقة، ونمط عيشه الخاص الذي سيره على مدى أجيال متوالية، قبل أن يتخلى عنه بصورة تدريجية ومحدودة لاحقاً.

## 2- مكة بقعة الإتصال والإنفتاح

في هذه الأحوال المكانية يأتي الحديث عن مكة نوعاً مختلفاً من البحث، دون أن نخرج عن التفكير المكاني، بل هو مجال آخر من المجالات المكنية. نشأت بفعل إرادة خارجية ذات طابع غيبي، ثم غدت في صميم هوية مكة. تمنحه المضامين والمعاني الروحية والوجودية، بطريقة تمتزج فيها مفردات المكان بمفردات الإيمان، فلا يعود بالإمكان الفصل بينهما، فقد حدثت عند إنصهار كلية وشاملة، من دون أن يفقد المكان دوره كجوابية رئيسة، وكمعبر محسوس، لا يتوانى عن مزاولته نفوذه المثقل بعقيد الإيمان وأريج الفؤاد.



المتماهيّة مع المكان في ظل شظف العيش وعدم الاستقرار. كذلك لم تشكل المسيحية القائمة على حياة الرهينة، وكبح الغرائز، والتبثّل المتواصل، والخيارات السلمية، نقطة جذب لقبائل ترسّخت لديها قيم الطبيعة الباحثة دائماً عن حاجاتها بمختلف الوسائل العنيفة، كالغزو، والسلب، والحروب المتواصلة.

لم يكن بإمكان هذه القبائل القبول بأية فكرة لا تتصل بواقعها وتجربتها العريقة والعميقة، كانت مُستعدة لقبول كل فكرة تعترف بشروطها وقيمها التي تشكلت ونمت في ظل المكان وبكل حيثياته وموجوداته.

فالإنسان العربي كان متأثراً إلى أبعد حدود بقيم الشجاعة والإباء والكرم، والتحرّر من القيود، وحماية الشرف والحياة الاصيلية كأصالة الصحراء، وإن كانت قاسية كقساوتها، والمتوغّلة في فيافها وتضاريسها، وإن كانت عسيرة وشحيحة في نباتها ومائها.

إنه بحاجة لدين يقدّر ذلك أولاً، وإن حمّله على تجاوزه لاحقاً، وهذا ما لم يكن بمقدور الديانات الشائعة في تلك الفترة، لا سيما اليهودية والمسيحية، أن تتجاوب معه أو تجاريه، ويبدو أن الإسلام كان أقرب إلى ذلك من أي دين آخر.

لقد ارتضت لنفسها الوثنية بكل سذاجتها لقابليتها على التعديل والتغيير، ارتضتها لكونها لبنة العريكة تعيد تركيبها في كل مناسبة، وتحرّر من قيودها عند كل ظرف قاهر.

إن هذا العربي الذي لم يتعوّد زمناً على الإنخراط في نظام حياتي يضبط سلوكه وحركته ومواقفه، إختار وثنية على طريقته وبيده لا تلزمه بشيء سوى ما يلزم هو نفسه. وكما تعدّدت مضاربُه ونواحي ظعنه وإقامته، كذلك تعدّدت أوثانه وأصنامة. وما كان لهذه القبائل التي ليس بوسعها أن تتوحّد على أمر من أمورها، أو شأن من شؤونها، أن تتوحّد، وبشكل تلقائي وعفوي، على وثن من

ثمة أسئلة عديدة عن أسباب إمتناع العديد من قبائل شبه الجزيرة العربية عن التحوّل إلى الديانات الشائعة في تاريخ المنطقة القديم بالرغم من وصولها إلى العديد من النواحي والواحات الغربية والجنوبية؟؟

فمع كل هذا التواصل أو التماس لماذا لم نلاحظ تحوُّلات في المجال الديني؟ من الثابت أن معظم القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية كانت على الوثنية عشية ظهور الإسلام، ومن الثابت أيضاً أن إنتشار المسيحية، فضلاً عن اليهودية، بقي محدوداً وخجولاً، فقد لاحظنا المسيحية في نجران وبعض النواحي في شمال شبه الجزيرة، كما لاحظنا اليهودية في يثرب وبعض القرى في الشمال أيضاً، لكن من دون تأثير في المحيط، وبعبارة أخرى لم تصل هذه الجزر إلى مستوى السطوع والإشعاع، وبقيت دون ذلك بكثير، بل إن القبائل اليهودية شكلت ما يشبه التجمّعات المقفلة والنافرة في هذا الوسط العربي الشاسع.

لماذا هذا الانكفاء والإكتفاء بالوثنية في ظل هذه الخيارات الماثلة بكل ما لديها من مضامين ساحرة وإجابات أقل ما يُقال عنها أنها أكثر منطقية مما كانت عليه الوثنية في تلك الأزمنة؟ لماذا هذا التجافي والتناهي وصرف الوجه وعدم الانفعال؟

### 3- شروط العرب في إنتشار الدين

ثمة أمور عديدة وقفت خلف هذه المشاعر الجامدة والباردة، لكن من المرجّح أن ما حدث لم يكن بمعزل عن السمات والمزايا الطبيعية للإنسان العربي، هذه السمات والمزايا التي نشأت بفعل التجربة الجغرافية والمكانية وشكلت ما يشبه الشروط اللازمة في أي عملية تفاعل أو انفعال ذي مضمون ديني.

إن اليهودية التي وصلت إلى القبائل العربية لم تكن مرّجة بالآخر، وما كانت أبوابها مشرّعة أمامه، فقد كانت قيم اليهودية القائمة على تعجيد الذات، وحب المال والحياة الرغيدة المستقرة، مختلفة جوهرياً عن قيم القبائل العربية



الخيال والتأويل فإننا أمام اختبار إلزامي لكل الذين يودون الدخول إلى شبه الجزيرة العربية في أن يستسلموا لشروط المكان، ويتخففوا من أشياء الزمان، قبل أن تلامس أقدامهم هذه الناحية الغائرة من القسم الجنوبي الغربي لقارة آسيا.

ولعل هذا الفاصل، مضافاً إلى مزايا شبه الجزيرة، كان خلف تردّد أوعجز العديد من الدول والامبراطوريات من السيطرة عليها، أو على الأقل الإمساك الكامل بطرقها ومسالكها. ومن المفيد هنا القول بأن ما شكل فاصلاً أمام القادمين من الشمال أو الشرق لا يبدو أنه يلعب الدور نفسه أمام القادمين من الجنوب، سواء الشرق أو الغرب، فالمعطيات التاريخية لا تشير إلى معوقات طبيعية حالت دون الانتقال أو الهجرة من شبه الجزيرة العربية شمالاً أو شرقاً، ولنا أن نتوقع ذلك، على الأقل بناءً على التقارب العام في هوية المكان الطبيعية والتاريخية.

ومع ذلك فقد وصفت هذه المنطقة بأنها «كثيرة العرب»، وهذا الكلام يعود كما ذكرنا، إلى القرن الرابع الهجري، وفيه ما فيه من دلالات على تجذّر العرب في هذه النواحي المتجانسة مع طريقتهم ونمط عيشهم، بالرغم من موجات التمدّن أو الترفّف المتواصلة للقبائل العربية منذ ظهور الإسلام وحتى ذلك الزمان.

يعيشون على «نبت يقال له الغث»<sup>(1)</sup> ويزاولون قطع الطريق، إلا أنهم لا يتردّدون في إيواء الغريب، وهداية الضال، وخفر القوافل، كأنهم جزء من نظام هذه البقعة الشاسعة التي لطالما شكلت عاملاً شديداً التأثير في السلوك الإنساني وعاداته وأحلامه.

إنه لمن المثير أن تحضر كل هذه الظروف المكانية، في داخل شبه الجزيرة كما على التخوم في البادية، في المناخ كما في الموقع، في التربة كما في التضاريس، لكننا أمام عملية إختمار طويلة الأمد قلّ مثيلها في العالم القديم.

أوثنائها أو صنم من أصنامها، فضلاً عن أن تتوحّد على دين أو إله يجمع شتاتهم ويقرّب البعيد بينها، إلا بقدر تجانسه مع واقعها وتناغمه مع ظروفها المكانية.

#### 4- بادية الشام والفصل بين الأقاليم

والحديث عن محيط شبه الجزيرة العربية يضعنا أمام منطقة واسعة في الشمال تسمى «بادية العرب»<sup>(1)</sup> شكلت ما يمكن وصفه بالفاصل الإقليمي بين شبه الجزيرة والشمالين الشرقي والغربي، ولعلها، بصورة من الصور، كانت وراء هذه العزلة العريقة التي غرقت فيها المنطقة لقرون طويلة. توقف كتاب «أحسر التقاسيم في معرفة الأقاليم» أمام هذه المساحة الشاسعة التي يبدو أنها حافظت على كثير من مميزات بالرغم من مرور قرابة أربعة قرون على تحوّلها إلى الدير الجديد. وبعد أن ذكر وجود المياه والغدران والآبار والعيون والتلال والرمال والقرى والنخيل وقلة الجبال، أشار إلى أنها «كثيرة العرب، مخيفة السبل، خفية الطرق، طيبة الهواء، رديّة الماء، ليس بها بحيرة ولا نهر إلا الأزرق، ولا مدينة إلا تيمار».

يمكن القول بأنه لولا هذه البادية لكان الحديث عن بلاد الشام كإمتداد جغرافي مناخي لشبه الجزيرة العربية حديثاً واقعياً وينطبق ذلك أيضاً على الحدود مع العراق. هكذا حالت البادية، ولا تزال حتى وقتنا الحاضر وإن بنسبة مختلفة، دون تبدّل أو تقلص المزايا المكانية لشبه جزيرة العرب، مسهمة بما يمكن وصفه بالاختمار المتواصل لتجربة المكان المقفل نسبياً، وما في ذلك من تعزيز للهوية الذاتية وأصالة التاريخ واللغة والسلوك العام.

حتى زمن المقدسي كان على الحجاج الذين يقصدون مكة يراً المرور بهذه المنطقة، وقد اعتبرت هذه المنطقة إقليماً مستقلاً «لأن أحداً من أهل الأقاليم الثلاثة عشر لا طريق له إلى مكة في البر إلا فيها». وإذا كان لنا أن نتمادى في

(1) المقدسي، محمد بن أحمد بن النعمان البشاري: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق محمد

مخروم، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1987، ص 204.



## 5- بين البادية والمدينة

وفي سياق توضيح تعليقه قدم ابن خلدون مقارنة بين البادية والمدينة، معتمداً تجربة انتشار الإسلام في كل من العراق والشام، خالصاً إلى نتيجة ذات مضمون مكاني واضح، «وإنما كانت حاميتها من فارس والروم... أهل مدن وأمصار، فلما غلبهم المسلمون على الأمر، وانتزعوه من أيديهم، لم يبق فيهم ممانع ولا مشاق»<sup>(1)</sup>.

صحيح أن مصطلحي المدينة والمصر تعبيران حضاريان يتجاوزان البعد المكاني الجغرافي إلى البعد الاجتماعي والسياسي والثقافي، فالمدينة أو المصر إطار عام ينطوي على مضامين عديدة لا يمكن اختزالها بعنصر واحد، لكن، ومن دون مصادرة أو تجاهل لأي من الأبعاد المذكورة، لا يمكننا التقليل من المضمون الجغرافي والمكاني الذي يشكل المادة الأساسية لكيان المدينة والمصر، كذلك لا يمكن التقليل من فكرة أن المدينة والمصر في التحليل الأولي ليسا سوى تطوير نوعي للمكان حسب شروطه وظروفه وقابلياته.

فمدن العراق، أو مدن الشام، هي بقاع جغرافية، جرى تعميرها وبنائها بأدوات وقواعد فرضتها المعطيات والقابليات الخاصة بمكان كل مدينة. وبالرغم من كل المحمولات والمضامين التي ستنتوي عليها هذه المؤسسة الحضارية، لن تكون خارج النفوذ المكاني الذي يتجسد في مناخها وموقعها وتضاريسها وحتى مكونات تربتها وثرواتها الطبيعية.

لقد ربط ابن خلدون إذن بين انتشار الدين الجديد واستقراره والبنية المكانية التي يعيش في أرجائها المستهدفون بهذا الدين، لكأنه كان يؤد القول بأن الفكرة النوعية تتطلب مكاناً نوعياً بقدرها، فكما تسهم الفكرة النوعية في إستنهاض وتحفيز القابليات الموجودة، كذلك فإن المكان النوعي يسهم، هو بدوره، في تعزيز قوة هذه الفكرة وإنتشارها، فضلاً عن استثمارها وتعميم خيراتها

والبادية على العموم حائل ثقافي، كما هي حائل طبيعي وجغرافي، فقد حار دون انتشار العديد من الأديان والأفكار الشائعة في المحيط، كما ستحول لنا، وفي مناطقها الأكثر بداوةً وتحديداً، دون انتشار الإسلام، الدين النابت في بيئة العرب، والناطق بلغتها، والراعي للكثير من أشتائها ونماذجها. هذا الدين الذي استوعب نمطها في العيش وخصوصيتها في السلوك، واعترف بالبعد من هواجسها وحاجاتها، واستخدم قسماً ملحوظاً من أساليبها وأدواتها، وسد دروبها وممراتها، هذا الدين وقف لفترات طويلة على تخومها، مكتفياً بكذا أذاها، وحصر مداها، وتضييق مساحتها في الحركة والتأثير.

هذا الأمر لا يختص بنوع من البوادي، بل كل ما يمكن أن يطلق عليه هذا المصطلح الغني بالدلالات والإيحاءات. فقد أشار ابن خلدون إلى ارتداد «البرابرة بالمغرب اثني عشرة مرة ولم تستقر كلمة الإسلام فيهم إلا لعهد ولاي موسى بن نصير فما بعده»<sup>(2)</sup>، معللاً ذلك بكثرة «العصائب والقبائل الحاملة لها على عدم الإذعان والانقياد»<sup>(3)</sup>، وهذا مثال آخر شبيه بالقبائل العربية الغارة في بداوتها، حيث القناعة بالاكفاء والاستقلال تؤكد أخلاقية خاصة تتنافى مع الإذعان والانقياد، وتتجانس مع المقاومة والتمرد أمام كل ما هو جديد غريب. هكذا انسحب مفهوم الحيوان المفترس، والتقلبات المناخية المفاجئة، والغزو والسلب، على مفهوم الدعوة الجديدة، والفكرة الجديدة، فضلاً عن الدين الجديد. والموقف واحد يتفاوت ما بين المواجهة المباشرة، أو الامتناع المطلق، بغية حماية الواقع القائم والحؤول دون أي تهديد يمكن أن تتعرض له أي مفردة من مفرداته. بعد ذلك قدم ابن خلدون تفسيره العام لهذا السلوك الارتدادي المتكرر، وهذه الأخلاقية الصلبة: «والبربر قبائلهم بالمغرب أكثر من أن تحصى وكلهم بادية»<sup>(4)</sup>.

(1) ابن خلدون: المقدمة ص 164.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.



## الفصل الثاني

على أوسع مساحة ممكنة. فالفكرة تحتاج إلى منازلها وأمكتتها وسبل تقدّم ونموّها. تحتاج لمن لديه القدرة على فهمها وإكتشاف صدقيتها، وبالتالي الإنصياح لمنطقها والانخراط في جماعتها، ولا يمكن تحقيق ذلك بعيداً عن التمدّن، إن لم نقل خارج مؤسسة المدينة وأهم مقوماتها تحديداً.

### الفتوحات : مقاربات وإشكاليات

❦❦❦

#### - تمهيد

شكلت الفتوحات الإسلامية خارج شبه جزيرة العرب في بلاد الشام والعراق ومصر وفارس وغيرها، لا سيما في العهدين الراشدي والأموي، واحدة من أكثر القضايا إثارة للجدل في هذه الفترة المبكرة من تاريخ الإسلام.

ما يستوقف الباحث في الفتوحات أنها مثلت ما يشبه الامتداد<sup>(1)</sup> التلقائي والعفوي، إذا جاز التعبير، للعمليات الحربية التي انطلقت في عهد الرسول، وبالرغم من الخروج الكلي من شبه جزيرة العرب لا تزال الأهداف متجانسة، كما لا تزال الشعارات متقاربة، وبعبارة أخرى المقدمات نفسها والمنهج هو عينه. وهذه أول إشارة إلى أن ما وصلت إليه الفتوحات لاحقاً لم تكن قد خطرت في ذهن أصحاب القرار، على الأقل لجهة حجم وحدود النواحي، وإذا صح هذا التحليل فإننا أمام حركة تاريخية تنطوي على مقومات شحن ذاتي، حيث أن كل عملية فتح جديدة أنتجت طاقة جديدة لمواصلة الفتوحات اللاحقة.

جرى التعامل مع المعطيات التاريخية بخصوص الخلفية العامة عبر منهجين وطريقتين: الأولى تنطلق من فهم ديني أساسي تعتبر الفتوحات طريقة في نشر الدين وتعزيز حضوره في العالم، والثانية تنطلق من فهم مادي أساسي تعتبر

(1) إبراهيم بيضون: الحجاز والدولة الإسلامية، دراسة في إشكالية العلاقة مع السلطة المركزية في القرن الأول الهجري، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت 1983، ص 139.

الفتوحات طريقة في توسُّع الدولة الجديدة بما يعزِّز مصادرها، وبالتالي يدو استمرارها. والحقيقة الواقعة تفرض الدمج والمزج بين هذه المنهجين، يظهر أن خلافاً منهجياً يحول دون ذلك.

لقد اندمج الديني بالمادي، وامتزج الروحي بالاقتصادي، في الشخص الواحد وفي المجموع العام، حتى يصعب على الباحث فصلهما أو النظر خلال أي منهما، لا سيما في المراحل الأولى من بداية هذه العمليات. والتأثير بمصادر<sup>(1)</sup> الفتوح يؤكد ذلك، وإن غلبت عليها المسحة الدينية باعتبارها العنصر الأقوى والأقدس عند أصحابها.

على أننا عندما نحدِّد هذين العنصرين، وكما تعودنا في هذه الدراسة، نبعد دائماً عن الجذور الأكثر عمقاً والخلفيات الأشد تأثيراً، تلك الجذور والخلفيات التي تتصل بالعامل الأكثر ثباتاً والأشد فعاليةً، الذي يمنح العنصر الاقتصادي معظم مضامينه، ويقدم للعنصر الديني كثيراً من مسوغاته، كما يثري كثيراً من غاياته، إنه عامل المكان بتجلياته المتنوعة.

فدولة الإسلام القوية العزيزة مطلب ديني، لما في ذلك من حماية ونشر لثقة الدين وإستقطاب المعتنقين الجدد، كذلك هي مطلب مادي لتأمين الشروء اللازمة للإستقرار والنمو الاقتصادي، ولا يمكن تحديد أسرار القوة والعزة في هذه الدولة بعيداً عن قابليات المكان وطاقاته، فهدف الحماية لا يتحقق من دون مقومات مكانية وجغرافية، وهدف نشر الثقافة يحتاج إلى بيئة ساطعة ومُشعة إلى مركز تنطلق منه موجات التبشير والتحذير بالفكرة الجديدة والمضمون الثقافي الجديد.

إن الحضور في المكان حيث يراد للقاطنين فيه أن يعتنقوا الدين الجديد، أو

(1) البلاذري، أحمد بن يحيى: فتوح البلدان، دار مكتبة الهلال، بيروت 1986، ص 111-112 الواقدي، محمد بن عمر: فتوح الشام، تحقيق عبد الله بن عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت 2005، ص 12-13.

على الأقل أن لا يعيقوا إنتشاره، إن هذا الحضور هو أكثر الطرق فعالية وأقربها إلى تحقيق الهدف، والفتوحات بهذا المعنى تعني الإقتراب من أدنى مسافة ممكنة من المستهدفين في نشر الإسلام أوالمعنيين به.

إذن في المبدأ، وعلى الأقل من الناحية النظرية، لا مانع من اعتبار الفتوحات شكلاً من أشكال تجاوزالمسافات والفواصل المكانية، بغية ضم النواحي الجديدة إلى البيئة الجغرافية المتوخاة تيسيراً لعمليات الإعتناق والدخول في الدين الجديد. من هنا لم نلاحظ في المصادر التاريخية الإسلامية أي إعتراض على مبدأ الفتوحات، بالرغم من تعدد الأحزاب السياسية والتيارات الفكرية زمن الفتوحات وما بعدها.

أما في المجال المادي فنحن أمام تضخم وتنامي في فعالية هذا العنصر كلما تضخمت وتنامت أعداد المسلمين الجدد، وكثرت النواحي المنضوية حديثاً في دولة الإسلام، لقد ضاق المكان الأول للإسلام في عهد الرسول عن القيام فعلاً بحاجات الدولة الناشئة والنامية دائماً.

ثمة طاقات هائلة من الرجال تخلفت عن نظام حياتها السابق في التجارة والرعي والغزو والسلب تنتظر خياراً جديداً في تحصيل المعاش يتناسب مع النظام البديل والعديد. لقد تم هذا الإنتظار في ظل الامعاء الفارغة، والأفواه الجائعة، والحاجات الأساسية الضاغطة.

وفي الوقت نفسه ثمة إمكانات مادية هائلة تلوح بالأفق، تناقلها الوفود والشخصيات القادمة من الشام والعراق ومصر وفارس، تطرح نفسها بديلاً مادياً جديداً يتوازي مع البديل الديني الجديد ويتناسب مع مندرجاته.

فالفتوحات من هذه الزاوية معالجة عاجلة للتفاوت الشديد بين قابليات وإمكانات مكان البيئة الأولى للإسلام من جهة، والحاجات والمستلزمات العادية والناشئة المتفاقمة مع مرور الوقت. والخيار هنا يرقى إلى درجة الضرورة أو الانفجار، وبالتالي الإنتشار من دون قواعد ولا مبادئ.



بالأكيد ليست الناحية الأكثر لطافة وسهولة، فبالرغم من إنفرادها ببعض المزايا الطبيعية، إلا أن سرّ ظهورها، وجوهر دورها التاريخي، يكمن في هويتها الدينية التي تشكلت منذ عهد النبي إبراهيم وابنه النبي إسماعيل، قبل مئات السنين من ظهور الإسلام، ما يعني أن ما أسهم فيه المكان يعتبر عامل أساسي إضافي إلى جانب الهوية الخاصة التي أرادت لهذه البقعة الغائرة والبعيدة عن ميادين الحضارات في التاريخ القديم.

ما تقدم لا ينفي أو يضعف منطق المكان في تاريخ الحاضرة المقدسة، فبعد أن حظيت بشرف القداسة ونالت صدارة المكانة بين حواضر المنطقة باشرت مسارها التاريخي، وسلكت مراحلها الطبيعية كأى حضارة، لكن في ظل هوية روحية عميقة التأثير.

صحيح أن هذه الهوية عرّضت أو حفزت عناصر غير مكانية، لكن ذلك لم يحل دون مزاوله المكان لنموذه، سلباً أم إيجاباً. سرى لاحقاً أن هذه الهوية ستحتفظ بالوجه الأبهى لمكة، أما الوجه الأخرى لهذه الحاضرة فسيكون أمامها إختيارات عديدة، ذات طابع مكّي وجغرافي، لن نرحب بها بما يوازي الدور الديني التاريخي لها. فالمناخ والموقع والتضاريس إضافة إلى التربة، كل ذلك سيكشف مستويات ملحوظة من الضعف في المكونات العامة ما سيؤثر على الدور التاريخي بشكل ملحوظ ابتداءً من الهجرة، حتى إذا وصلنا إلى آخر العهد الراشدي بننا أمام مرحلة جديدة، ليس في تاريخها فقط، بل في تاريخ البيئة المكانية والجغرافية لكل المنطقة التي تنتمي إليها، عنت بذلك نواحي شبه الجزيرة العربية قاطبة.

وصف اليعقوبي مكة في كتابه البلدان، مسلطاً الضوء على تضاريسها، وقد أحصى اثني عشر جبلاً فيها، وست وعشرين شُعباً لأوديتها، ومما ذكره بالنص الحرفي «... ومكة بين جبال عظام، وهي أودية ذات شعاب»<sup>(1)</sup>. وبعد أن يذكر

ما حدث في شبه جزيرة العرب من توحيد وتكتيل، ونظم وقيم جديد يتجاوز بمستلزماته ما تقدمه منظومة «القفار»، ونمط عيش «الابل»، والاكثر بالفقر البير والبيسط من الطعام والشراب. نحن أمام منظومة جديدة، ونمط عيش جديد، وحاجات مُضاعفة لا تقوى على تأميتها إلا بيئات مكانية وجغرافية مختلفة، على غرار بلاد الشام والعراق وغيرها.

إذن، لسنا أمام خيار توسعي طوعي بالمعنى المعاصر، ولسنا أمام غير إستعماري أو إستيطاني ينطوي على تفضيلات وانتقائيات ترفهية وكمالية في غالب الأحيان، نحن أمام خيار وجودي، حيث نشأ نظام غني في منطقة ضعيفة وما على أصحاب القرار إلا البحث عن منطقة غنية تتناسب مع ثراء النظر الجديد، فكانت الفتوحات.

ومن المؤشرات ذات الدلالة في هذا السياق أنه وبالرغم من خروج الأعداء الهائلة من المسلمين في الفتوحات في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب وبالرغم من بدء استقادة المدينة من عائدات الفتح، فإن جذباً أصاب مركز الدولة هُدُ حياة قاطنينا، ما استدعى أمراً من الخليفة لواليه على مصر للإصرار في نجدة عاصمة الخلافة بالحنطة، قبل أن يقضي الناس جوعاً، بفعل الظرف المكاني والجغرافي الصعب. هذه الصورة تحلي بشكل واسع مع مرور الوقت. وتأتي السلطة، وما تحمله الخلفاء الثلاثة نتيجة الإصرار على المدينة كعاصمة للخلافة.

هذا الواقع لن يستمر مع الخليفة الرابع، حيث تركها من دون إعلان رسمي، عشية معركة مع المنشقين في البصرة، ولم يعد إليها أبداً.

#### أولاً: مقاربات تطبيقية

##### 1 - مكة المكرمة

قد لا تكون مكة الناحية الأشد فساداً وسعوباً في شبه الجزيرة العربية، لكنها

(1) اليعقوبي، أحمد بن علي كتاب البلدان، دار صادر، بيروت، طبع الأولى: بيروت، 1988.

أسماء الجبال والأودية، يشير إلى ملحوظة مائها بالرغم من كثرة عيونها، ويد أنه من أعلام «البلدان» في القرن الثالث الهجري، فقد ألمح إلى أن حاجتها من الغذاء «تُحمل إليها من مصر إلى ساحلها وهو جُدَّة»<sup>(1)</sup>، ولا يبدو أن هذه الصور تختلف جوهرياً عن الصورة التي كانت عليها هذه الحاضرة في صدر الإسلام بل ربما كشف الزمن عن عناصرها الطبيعية بمستوى أكبر وأوضح مع توالي التحديات وظهور الاستجابات.

وبالرغم من الدور المحوري الذي كانت تلعبه مكة عشية ظهور الإسلام، إلا أنه في المرحلة السابقة لذلك، «كان الناس يحجّون ثم يتفرّقون فتبقى مكة خالاً ليس بها أحد»، كما أورد أبو عبيد البركي في كتابه معجم ما استمعتم<sup>(2)</sup>. هذا ما يؤكد غلبة التأثير للهوية الدينية في الجانب الإيجابي من التاريخ، فيما لعبت الظروف المكانية - على ما يبدو - دورها السلبي في الإبقاء على هذه الحاضرة في معزل عن التطوّرات التاريخية السائدة في المحيط والعالم.

أعلن الرسول دعوته متدرجاً من عشيرته إلى العشائر والقبائل القاطنة في مكة، لكن هذه المجموعات المختلفة لم تجد في الدين الجديد ما يسهم في تحسين معيشتها وتوسيع ثرواتها، أو على الأقل ما يخفّف من وطأة الصعوبات والظروف المكانية المحيطة بها.

ثمّة وعود جذابة جداً أغذيت على المجتمع المكي تنتمي إلى عالم الجغرافيا والمكان، وقد تفسّر القرآن الكريم مجموعة كبيرة ونوعية منها، كالأنهار الجارية والثمار الطيبة، بالإضافة إلى الجنان على اختلافها<sup>(3)</sup>، ويكتفي أن مصطلح الجنّة

ص 77 و 78 و 79.

(1) المصدر نفسه، ص 79.

(2) البركي، عبدالله بن عبد العزيز: معجم ما استمعتم، تحقيق حمد عبد الوكيل، الطبعة الأولى، بيروت 1998، مجلد 1، ص 80.

(3) «تُشَلُّ الشَّجَرَةُ إِلَى رُؤُوسِ الشُّعَبِ فَيُرِيدُ فِيهَا الْأَنْهَارُ» أصلها ما يترجمها: «فإن كان كرم بالبريد»<sup>(4)</sup>.

يرمز، من الناحية المادية على الأقل، إلى أعلى ما يمكن أن تصل إليه أحلام أي إنسان عربي في ذلك المكان وتلك الحقبة، لكنها، وبحكم أنها مؤجلة لليوم الآخر، ومشروطة بسلوكيات وتضحيات محدّدة، فقد اعتبرتها نخبة المجتمع المكي تعويضات متأخرة وغير محسوسة أو مضمونة، وتتطلّب في الوقت نفسه أثماناً غالية وخظيرة. إذن المحاولة الأولى للرسول مع أعيان مكة تفضّلت، فيما تفضّلت، خيارات من شأنها معالجة العديد من الحاجات والنواقص التي ليس بوسع المكان تقديمها، أو أن المكونات البيئية حالت دون تحقّقها، لكن الموقف المكي لم يرقّ إلى مستوى العرض المقدّم لأسباب عديدة، منها ما يرتبط بوضعيته المكانية وحجم الضغوط والمخاوف والهواجس الناجمة عنها، فضلاً عن ذهنية البديل العاجل والمحسوس، فلم يلقّف هذه الفرصة، ما أدى إلى تفويتها، على الأقل لسنوات عديدة.

#### 1- حصار يشعب أبي طالب

أول أنواع وإجراءات الرفض القرشي القاطع والحاسم للدين الجديد حدث في السنة السادسة من البعثة، وتمثل ذلك بإخراج الرسول وأتباعه من المكان الأساسي والفعلي إلى مكان آخر، كإجراء عقابي من جهة، ووقائي من جهة أخرى. إنه التدبير الجغرافي الذي ينطوي على ظروف حياتية بالغة القساوة من شأنها، حسب توقّعات القرشيين، حمل المسلمين على إعادة النظر بختياراتهم الدينية الجديدة، أو على الأقل إضعاف هذه الجماعة الخارجة إلى أدنى الدرجات الممكنة، والحوّل دون التكاثر من جديد.

ثمّة سياسات أخرى وافقت عملية الحصار أو التي تمثلت بالقليعة الاجتماعية، حيث تعدّم المخالطة والمبادلة والمصاهرة، لكن على ما يبدو ظل المكان بما ينطوي عليه من تضيق وحرمان، وفي مقدمتها ندرة الطعام والهائش المحدود

«وَسَكَرُوا إِلَى سَكْرَةٍ مِنْ زَيْتُونَةٍ وَبَعْدَ ذَلِكَ قَسَتْ الْأَرْضُ لَهَا فَرَّقَتْهُمْ» قرآن كريم، آل عمران / 133. «وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ رَيْدٌ» جَنَانٌ في الرحمن / 46.



للتحرك، في مقدمة الضغوط التي مورست في هذه الفترة.

المعلومات التي وصلتنا عن هذه المرحلة عامة في أغلبها وتفتقر إلى التفاصيل ما يدفعنا إلى التساؤل حول المقصود بتعبير الحصار وحجمه وطريقته الفعلية لكن من دون أن يعني ذلك الشك بصل هذا الإجراء ومفاعيله المؤثرة.

لقد بقي النبي والمسلمون ثلاث سنين متواصلة، حيث «ضاق الأمر عليهم بصل إليهم شيء من الطعام، إلا مراً»<sup>(1)</sup>، وتنتهي العملية بنوع من الشعور بوز القصور في صفوف «نفر من قریش» اجتمعوا وتساءلوا عن معنى أكلهم الطم، وشربهم الشراب، ولبسهم الثياب «وبور هاشم هلكى لا يبايعون ولا يناكحون»<sup>(2)</sup> على حد تعبير الرواية التاريخية.

من الصعب أن تمر هذه الفترة، من دون تطورات ووقائع ذات مغزى في إذ المكان الجديد على نمط عيش هذه المجموعة، والراجع أن الأمور لم تكن مغلقة إلى هذا الحد الذي توحى به الرواية التاريخية، لكنه كان حصاراً مؤثراً من دون أدنى شك.

### - الخروج إلى الطائف

بعد الحصار والخضوع لبيئة المكان الصعب، وبالتالي الصورة التي انتشر إليها الأمر. بدا وكأن خيار الخروج من المكان، وإن بصورة إجبارية هذه المرة، لا يزال، بل هو الخيار - الضرورة - . لقد تحولت مكة بعد الحصار، أكثر مما كانت عليه قبله، إلى مكان صعب وبيئة غريبة، وبدا أن احتراق صفوفها بالدين الجديد صار عسيراً أكثر من أي وقت مضى، إن لم يكن مستحيلاً. وكل شيء في هذه الحاضرة الحامية تحول، بإرادة الأغنياء وأصحاب القرار، إلى ساحة

(1) الحسن، أحمد بن سهل، السيرة، ج 2، ص 55.  
(2) الطحاوي، إسناده، بيروت 1997، ج 2، ص 55.

(2) المصدر نفسه، ج 2، ص 56.

منافية إن لم نقل معادية. لقد جرى إقفال كل الدروب والبيوت، بعد إمتناع كل العقول والنفوس. فالأرض لم تعد مستقرة، والمناخ خلا من أي وعيد بالرطوبة أو البرودة، إختفت من المكان كل أسباب الأذى، كما غادرتها، منذ سنوات، النسيم العليل. لقد بدا الخروج من المكان إلى مكان آخر خياراً تنقيتياً وعموياً، وهذا ما تم بالفعل.

إن التدقيق بالجهات أو التواحي التي يمكن أن يختارها الرسول مع الأخذ بعين الاعتبار عنصر الاستقرار والحد الأدنى من القدرة على التفاهم، والتأكيد المسافة الجغرافية، يفضي بنا إلى حاضرة الطائف التي لا تبعد سوى 50 ميلاً تقريباً عن مكة، لقد كانت، للوهلة الأولى على الأقل، الناحية الأجدر بالمكان الجديد، والبديل العتيق.

الكلام عن مناخ الطائف وتربة الطائف كلام إيجابي. وكذلك، وإن بصورة أقل، الكلام عن الموقع والتضاريس، ما يعني أن الظروف المكانية جيدة وطيبة<sup>(1)</sup>، هل كان يكفي ذلك لدعوة أعيانها للدخول في الدين الجديد؟ وماذا نجح من هذه الخصوصية الجغرافية في مجال الموقف من الإسلام؟!

المعروف أن قبيلة ثقف، القبيلة الساكنة بقرار هذه الواحة المحصورة، رفضت كلياً دعوة الرسول، وأنشأت له شخصيات، والسؤال هنا ما علاقة المكان بهذا الموقف؟ وفي الأساس هل ثمة علاقة من هذا النوع؟

لقد جرى إستغراب هذه المحاولة ووصفها أحد السحسين بأنها «محاولة بائسة». ولشدة إستبعاد هذا النوع من المحاولات شكك بحث آخر بحدوث هذه المحاولة، إلا إذا أعدمت الجبروت أمام الرسول، وبالتالي دخوله في «حالة حيرة لا يعرف إلى أين يتجه»<sup>(2)</sup>، بل جرى اعتبار محاولة الطائف نوعاً من

(1) الكري: معجم ما استعجم، م 1، ص 69-70، المفردات: أحسن التفاسيم، ص 80.

(2) هشام جعيط: تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، ص 288 - 289.

التوبة<sup>(١)</sup> للعودة إلى مكة بعد الحصول على الإستجابة من أحد أعيانها. أي انتهت الأمور بالفعل.

إن عنصر الاستغراب الرئيس يكمن في أن الرسول يعرف تماماً حم المصالح المشتركة بين أعيان مكة والطائف، وأنه من غير المعقول أن يتر أعيان الطائف موقفاً إيجابياً من الدين الجديد من شأنه أن يهدد هذه المصالح. سيما وأن المكئين يشكلون العنصر الأقوى في هذه المصالح، وهو أمر لا يسهل لتكيف المغامرة به مقابل دين لم تنسأ لها القناعة بإمكان التعويض عن خسائر الفادحة مع قريش فيما لو دخلت فيه.

ما تقدم صحيح في نفسه، ومؤثر بلا ريب، لكن اعتباره كخلفية حاسمة ووحيدة في الموقف التقني يحتاج إلى دليل غير متوافر.

إن موقف ثقيف ناجم في الأساس عن حساباتها الخاصة، وطريقتها الخاص بل عن نمط حياتها وعيشتها التي تشكل بفعل ظروفها البيئية والمكانية أيضاً.

إن هذا الاستقرار الذي كانت تنعم به الطائف، حال دون افتتاحها على الدين الجديد، لما يمكن أن ينسب به من تبديل وتعديل، بل تغيير، في كل ما يبدو مستقراً ومريحاً إن هي دخلت فعلاً في هذا الدين.

صحيح أن هذا الاستقرار في أصل وجوده يسمح بالفهم والتواصل، وهذا أمر واقعي ومنطقي، لكن القضية لا ترتبط فقط بهاتين الإمكانيتين، بل بكل المصالح والمخاطر التي يمكن أن تنشأ عن التغيير الجذري في القيم والمعايير الحاكمة.

لقد حاول الرسول أن يقدم بديلاً متناسباً مع حراجه الموقف، ولكن العيب لا تخلو من مغامرة غير مضمونة، بل رهيبية ومريعة، وفقاً لبعض المعايير السائدة في تلك الفترة.

(١) المرجع السابق

إذن بالنسبة لتكيف فهي قضية تمس الطائف، ومجتمع الطائف، ونمط عيشه، قبل أي شيء آخر، من دون التقليل من الحسابات الخاصة بقريش، ولكن ذلك يأتي في الدرجة الثانية من خلفية الموقف.

إذا كان الموقف على هذه الطريقة فبالإمكان العثور على جذور معطياته وأسبابه في العنصر المكاني للطائف الذي شكل، ولا يزال، عنصراً طاعياً في مجمل مراحلها التاريخية، وهذا لا يعني خلو هذه البقعة من عوامل عديدة هي العوامل التي تؤثر في مجمل أوضاع شبه الجزيرة العربية، والطائف جزء من هذا الإقليم.

إن فريدة الطائف عن المدن والأمصار المستقرة داخل شبه الجزيرة العربية تكمن في هذه الميزة بالتحديد، أي أنها تمتلك موانئها ومعطياتها الذاتية، كما تنطوي على موانع ومعطيات خاصة بالإقليم التي تنتمي إليه. من هنا نفهم اهتمامها الشديد وانخراطها العميق في ثقافة الوثنية، الخيار الديني الأكثر ملائمة لمنظومة المنظومة وثقافتها الخاصة في تلك الحقبة.

وما يبرز اهتمامنا بالمعطيات الذاتية لتكيف أنها وبالرغم من فتح مكة، ومقوط المنظومة القرشية ومعها كل المصالح المشتركة مع الطائف، فإن الموقف التقني لم يتأثر تلقائياً أو بشكل فوري، فالمعطيات التاريخية تقيد بأن هذه الحاضرة أصرت على وثنيها رغم الحصار الشديد بعد فتح مكة، وأن أمر دحوها الإسلام تأخر بفعل تلك الخصوصية الذاتية التي لعبت دورها الملحوظ.

أما فيما يتعلق بمحاولة الرسول فيمكن مقاربتها على الشكل التالي:

أولاً: من الصعب فهم هذا السلوك أو الاختيار على طريقة الزعماء والقادة السياسيين التقليديين، ثمة بدور على الرسول أن يشرها، ورسائل لا بد له من تبليغها، وليس عليه أن يرى ثمرها أو إستجاباتها، ثمة مواقف عديدة للرسول، ولغيره من الرسل، فضلاً عن كثير من العطاء والحكماء في التاريخ، لم تصل إلى خواتيمها السعيدة المتوقعة، كما هي الرغبة والتمنيات، هذا بشكل عام.



مكاناً جديداً، أو عبارة أخرى إلى بيئة مختلفة يُتَوَقَّع منها نتائج مختلفة. التي في مكة أثناء موسم الحج وفوداً من يثرب، الحاضرة الثالثة في منطقة الحجاز إلى جانب مكة والطائف. تعتبر يثرب من أكثر مناطق شبه الجزيرة استقراراً مع تمايز عن الحاضرتين المذكورتين بشيء من الحياء، أو النأي بالذات، سوف يكون له أثره الإيجابي على موقفها من الدين الجديد.

يمكن القول، إذن، أن خيار الرسول الخروج من مكة إلى أماكن أخرى لا يزال هو الخيار، منذ تقبُّله الحصار في شعب أبي طالب ثم خروجه إلى الطائف، وها هو اليوم يتابع خياره، لكن بمزيد من الباء والتأيس.

وعندما نتحدث عن الخروج من المكان لا يعني، بالضرورة، الخروج الجسدي فوراً أو مباشرة، بل صرف الاهتمام عن مكة وتوجيه الجهد نحو الخارج. كذلك فإن التواصل مع المكان الجديد ليس محصوراً بالحضور في ربوعه فوراً أو مباشرة، بل هو تواصل مع إنسانه الذي يحمل ويختزن كل مزايا وسمات المكان الجديد. وإذا كانت ثمة فرصة للقاء هذا الإنسان، بأفضل مكان وأنسب مناسبة، فهذا هو التصرف المفيد. لقد بدأ الخروج من مكة واستدال مكة على أرض مكة، وفي مكانها الأفضل، وزمانها الأنسب.

ثمة أمور عديدة وعناصر مختلفة أسهمت بالموقف الذي استخذه قبائل يثرب تباعاً وبالجملة، لكن ما يهمنا في هذه الدراسة هو التدقيق بالعنصر المكاني، ماذا عن يثرب في مقومات المكان؟ وما هو مدى علاقة هذا المكان بتطور الأحداث؟ وكيف تمايزت هذه الحاضرة عن مكة والطائف؟

ثمة عناصر عديدة تجعل يثرب متقدمة وراجحة كخيار مكاني للرسول مقارنة بمكة والطائف، ولا يعني ذلك أن هذه العناصر هي بالضبط ما كان يفكر فيه الرسول، لكنها تمثلت وتكتفت بنسبة أو طريقة معينة في ذهنه ثم ظهرت بالنالي في موقفه، ولم يكن موقف قبائل المدينة بعيداً عن هذا المسار.

من حيث المناخ تبدو المدينة اللطيف مناخاً وأكثر عرضة للأمطار من مكة،

ثانياً: قد تكون محاولة الرسول، وبمعزل عن نتائجها المباشرة، خطوة في سياق الضغط على قريش من الطائف، وهذه استراتيجية اعتمدها الرسول في مدى سنوات عديدة في المدينة، وبكلفة عالية في الأموال والدماء. ومن المتبعد أن يكون الرسول قد رام إشاعة الأخبار عن وصوله للطائف، عبر المصالح القرشية ومكان استراحة الزعماء المكيين واستجماعهم، بغية تمكيد صفوفهم فيها، وبالتالي حملهم على التفكير بالدين الجديد بطريقة مجددة أكثر.

لقد آن الأوان، بعد تسع سنوات في مكة، وشعب أبي طالب قد حظي بليلار منها، أن يتغير المكان لتغيير الصورة الخارجية للدعوة، فلا تبقى محصورة في مكان واحد، على أهميته، وإن تبدل الميدان، لإظهار عزم جديد وحركة جديدة من شأنهما فرض مستوى من الجدية في تعامل القبائل والعشائر مع الدين الجديد إن وصول الدعوة إلى الطائف، وإشاعة أخبارها، وإثارة الجدل حول طبيعتها ومخاديرها، هي أول المسير، وإن الرفض والسلبية التي ووجه فيها الرسول تعد عن أول احتكاك بين هذه الحاضرة الفارقة في استقرارها ورفاهيتها وفكرة الدين الجديد، من هنا فإن العودة إلى مكة بعد الطائف، وبالرغم من النتائج السلبية الظاهرة، تختلف عن الاستمرار بالوضع السابق. لقد تفتت الدعوة قليلاً، وأعدت النظر بمسرحها الأساسي من مكاني آخر، وغدت فكرة أكثر شيوعاً وإثارة، وإن كل ما نجم عن هذه المحاولة سيتحول إلى رصيد إضافي في مسار الدعوة بعد سنوات عندما يتبدل الموقف وتحظى الدعوة بمكاني جديد وبحديدة وأجبراً إن ما زرعه الرسول في الطائف كان مبدأً كي يتناول السعي بين حواضر شبه الجزيرة الثلاث، مكة والطائف ويثرب لاحقاً، الأماكن الأكثر استقراراً وتأثيراً في حمل الواسي الأخرى.

### 3 - المدينة المنورة

عاد الرسول إلى مكة ودخلها بعد الحصول على حوار أحد أعيانها. ثم استأنف استراتيجيته الجديدة في الخروج من المستقيم السكوني وسنة المكة إلى

إنخراطاً - على ما يبدو - في منظومة الإيلاف بزعامة قريش.

نحن إذن أمام خيارٍ استراتيجيٍ تطغى عليه العناصر المكانية من دون أن يعني ذلك أنها تختزن كل الدوافع الخاصة بعملية الهجرة، كما أشرنا قبل قليل.

ما يؤكد هذا الدور الحيوي لموقع المدينة بقاء الرسول فيها حتى وفاته، وذلك بالرغم من فتح مكة ودخول الجميع في الإسلام. وقد ظلّ موقع المدينة وما حفلت به هذه الحاضرة من مزايا، وإن كانت محدودة جداً مقارنةً بمدن الشام والعراق، يسهم في حركة الأحداث وتطوّرات السلطة الجديدة حتى سقوط معظم معازل الوثنية في شبه جزيرة العرب، وبالتالي دخول معظم القبائل العربية المؤثرة في الدين الجديد. ولا يبدو أن مكة، حتى بعد إنخراط معظم قبائلها في الإسلام، وما تنطوي عليه من قداسة ومكانة تاريخية، كانت قادرة على تجاوز هذه المزايا البالغة التأثير في تلك الفترة من التاريخ.

من هنا فإن ما حدث، بعد استيلاء الأمور بين الرسول ووفود يثرب، وما أطلق عليه من هجرة، لا يعود فقط إلى صعوبة ظروف الدعوة في مكة، بل وبدجة أكثر تأثيراً يعود إلى مواءمة الظروف في يثرب - ومن عبر الواقعية - إنفاض أن هجرة الرسول إلى الحاضرة الشمالية للحجاز تمت بفعل المؤامرة على قتله وتحت تأثيرها فقط<sup>(1)</sup>، إن ذلك لا يبدو كونه المؤثر في تحديد الوقت والمباشرة بالفعل. وفي التقدير أن ذهب الرسول إلى يثرب كان مرجحاً في نفسه، حتى وإن لم يلتق وفودها في مكة، بل ربما ذهب إليها حتى ولو لم يحرز إنفاذاً قوياً على غرار الاتفاق الذي عقده مع وفودها في مكة. إن توجيه الرسول إلى هذه الحاضرة الثالثة والأخيرة من حواضر المنطقة كان مقدراً بفعل طبائع الأمور، ومنطق حركة الأحداث، وسري لاحقاً أن دواعي الرسول في حركة الملفة نحو الشمال لن تستغرق ظروفاً مؤقتة، أو عناصر ملائمة، أو اتفاقات ناجزة.

وإذ كانت حركته باتجاه الطائف، على ما في الطائف من ظروف صعبة،

كانت لا تشكل تصاريحاً لثبته حواجز وعوائق في الحركة واستثمار الأرض أما تربتها فهي من الخصوبة بحيث أن أموال أهلها النخل ومنه معاشهم وأقواتهم<sup>(2)</sup>، فهي من هذه الزوايا مقلّمة بشكل ملحوظ على مستوى الملازم للحياة المستقرة. وفي أي حال لا بد من التذكير أن ما جعل مكة في هذه المقار، لا يتصل بمكانها، بل بالعنصر الغيبي الذي تجاوز كل حيثياتها المكانية، من در أن تفقد هويتها المكانية في التاريخ.

كذلك فيما يتعلق بالطائف، حيث كان التمايز المناخي ملحوظاً وكثير التربة، لكن يبدو أن موقع يثرب طغى على كل ما للطائف من مزايا مكانية فيما تقع الطائف إلى الجنوب من مكة وهي نائية بعض الشيء عن الحركة التاريخية في المنطقة، ما جعلها أقرب إلى أماكن الراحة والاستجمام منها إلى أماكن الحركة والإقدام. يبدو يثرب أقرب إلى ممرات القوافل وطرق التواصل في المنطقة، على أن وقوعها إلى الشمال من مكة بمسافة تقريبية تقدر بـ 225 كم - حسب المقارنة لمصلحتها، ذلك أن اتجاه حركة تاريخ المنطقة غالباً ما كان شمالياً، وهي مع الإسلام، كما كانت قبله، تتطلع إلى الشمال ومناخ الشمال وخيرات الشمال ووعود الشمال.

إن الإيجابية التي طبعت مواقف قبائل المدينة من الدين الجديد لا يمكن فصلها عن موقعها ومناخها وبنيتها الجغرافية في الاستقطاب والتعبد والانتفاع - لم تكن يثرب، بفعل ذلك كله، على غرار مكة والطائف حكراً على قبيلة أو جماعة ذات عصبية واحدة متماسكة ومتضامنة، بل بله قابلة لاستيعاب تنوّع يصل في بعض الأحيان إلى حدود التعارض والتنافر. مثال العرب واليهود - الأوس والخزرج، وهذا ما جعل هذه الحاضرة أكثر انفتاحاً وأكثر قدرة على فهم الخارج وتقبله. كذلك، ويحكم موقعها أيضاً، كانت أكثر تضرراً من الارتباطات والصعوط التي كُتلت نظيرتها في القسم الحواري من الجزيرة. كما كانت أقل

(1) البغوي: البلدان ص 76.

(1) راجع هشام جعيط: تاريخ الدعوة المحمدية، ص 292 - 293.



تمت بالطريقة التي تمت فيها وقد جرى تجاوز نتائجها المباشرة فوراً، فما بال الحركة نحو يثرب، الحاضرة المفتوحة على التاريخ والمستقبل والتي تنطوي على وعود يفهمها جيداً أصحاب الرسالات والمشاريع البعيدة المدى.

قد يكون مصطلح الهجرة أقرب إلى الانتقال الدائم منه إلى المؤقت المحدود، وذلك للقرائن أو السياق العام الذي تمت به، حيث أننا أمام هجرة جماعي لحاضره بانتجاه أخرى، من دون إبقاء لأي رباط، أو التصريح بأي مؤثر أو وعد، من شأنه تغليب الصفة المؤقتة أو المحدودة لهذه العملية التاريخية الأكثر تحولاً في تاريخ الإسلام حتى ذلك الوقت.

ما تقدم لا يشكل خروجاً كلياً عن منظومة «الفقار»، أو نمط عيش «الإبل» أو أخلاق «التحرر» من كل قيد، كما افترضنا في مستهل الدراسة، لكن نذ عصر جديد بثّ روحاً جديدة، وأثار قضايا عديدة، ولم يعد بالإمكان الإكتمال بالموثرات العادية والأعراف القديمة، إنه الدين بكل ما للكلمة من معنى وطاقة

#### 4- الأفعال الحربية

بعد استقرار المسلمين في يثرب باشر الرسول سلسلة من الأعمال الحربية ضد قريش عبر قطع الطريق على تجارتها، بغية إخضاعها، وبالتالي إدخاله في الدين الجديد. ومن الملاحظ هنا أن الرسول لم يستهدف قريش بوجودها، بل استهدف قدرتها وإمكاناتها الاقتصادية. أما الخطوة الميدانية فقد اعتمدت عناصر مكانية وجغرافية، إنها عملية قطع للطريق التجارية، وحرمان قريش من المجال الجغرافي الحيوي لتجارتها. وبعبارة أخرى عزل قريش جغرافياً، وتضييق هامش قدرتها على الحركة والانتقال.

لقد تحولت مكة بهذه السياسة إلى حاضرة محاصرة ومعزولة، مُرَمَّة بالاعتدال بالعناصر المكانية المتوافرة لديها، وهذا ما لا طاقة لها عليه.

لو قدر لمكة ظروف مكانية أفضل. لكان بالإمكان توقع أشكال من المقاومة

والمواجهة غير المباشرة للرسول، ولكن الواقع كان صعباً بالنسبة للمكّين، فقد أمسك الرسول بالشريان الحيوي لتجارة قريش عبر الإمسك بطرقها وممراتها، فالمواجهة أضحت جغرافية و ذات مضمون مكاني. وبالرغم من تحوّل المواجهة إلى أشكال حربية وعسكرية وغير ذلك، إلا أن المؤثر الأساس والأول انطلق من الطرق والدروب التي أُقيمت أو قُطعت، وما الحروب التي قامت إلا بهدف الإبقاء على هذه الطرق والممرات، بعيداً عن أي تهديدات أو مخاطر فعلية، على الأقل هذا هو الحد الأدنى من مطالب قريش. وفي التقدير أن ما استطاعت قريش تجميعه وتحريفه في صفوف أفرادها والقبائل، ما كان ليتم بهذا الزخم والحجم لولا هذا التضييق المكاني الذي جعل قريش، وسواها من القبائل المرتبطة تجارياً معها، أمام خيار أقل ما يقال فيه هو الانقطاع عن العالم وبالتالي الإختناق بظروف المكان القاسية. لا ندرى كيف كانت ستجّه الأمور لو أن الرسول استخدم طرقاً أخرى للضغط على قريش غير جغرافية، سياسية أو دبلوماسية فقط على سبيل المثال، لكن من المؤكد أن أمره مع المكّين كان سيطول أكثر بكثير مما حدث في التاريخ الفعلي.

وما معركة أحد سوى متابعة لما بدأ وانتهى في يثرب، وكذلك الأحزاب وما تلاها، وصولاً إلى فتح مكة، حيث توصلت قريش إلى قناعة كاملة بأنها غير قادرة على حماية تجارتها، وبالتالي موارد رزقها الوحيدة، لعجزها عن إبقاء طرقها مفتوحة وأمنة، وهذا بالدرجة الأولى ما سيجعلها أمام خيار الدخول في الإسلام مع كل الاحتمالات الصعبة الناجمة عن استبدال النظام القديم، بعلاقاته ومصالحه المحبوبة منذ فترة طويلة، بنظام أقل ما يقال فيه أنه غير واضح أو مضمون بالقدر الكافي بالنسبة لمنطق القرشيين في ذلك الوقت.

تأتي الأعمال الحربية التي قادها الرسول أو أرسلها بانتجاه المناطق الشمالية بالدرجة الثانية من الأهمية بعد الصراع مع قريش، لكنها كانت أكثر تأثراً - على ما يبدو - بالحركة التاريخية من الجنوب إلى الشمال. فابتداءً من السنة الخامسة

بعد الهجرة، وقبل إنهاء الصراع مع قريش، بننا نلاحظ سرايا وغزوات ثم تقليدية ومركزة طبع معظم السنوات اللاحقة، بل إن العمل الحربي الآخر الذي أصرَّ عليه الرسول قُبيل وفاته، كان سرية أسامة بن زيد التي جاءت في هذا السياق تحديداً.

ثمة أسباب مباشرة عديدة لهذه الأعمال، بدءاً من دومة الجندل الأولى في السنة الخامسة للهجرة، ثم الثانية والثالثة في السنة السادسة والتاسعة، مروراً بالعديد من السرايا المتفرقة، وصولاً إلى مؤتة وبعدها غزوة تبوك، إلى سرية أسامة بن زيد كما أشرنا. والتدقيق بالأسباب المباشرة المذكورة في المصادر فقط لا يساعد على فهم متكامل وعميق<sup>(1)</sup> لهذه الأعمال، لا سيما إذا ما قورنت بالأسباب التي حملت الرسول على إطلاق بعثه في الجهات الأخرى، لا سيما الشرقية والجنوبية. نحن في حروب الشمال أو أنشطتها الحربية أمام خلفنا أخرى، وحسابات خاصة، قد تُفصل، بخيط ما، بما جرى عشية الهجرة وما أكنّ نتائجها اللاحقة. وبعبارة أخرى، لاتزال الدوافع نحو الشمال تلعب دورها منذ الهجرة، لكن من دون أن تتحول إلى انتقال دائم في حياة الرسول، كما لاحظنا في يثرب.

إننا أمام مجال مكاني ومدى جغرافي ينطوي على فرص هائلة في النمر والانتشار، هذا ما أثبتته ميادين الاستقرار الإسلامي في العديد من المدن والأمصار الناشئة أو القائمة في المناطق الشمالية لشبه جزيرة العرب.

### 5- «لا يجتمع بجزيرة العرب دينان»

ثمة مقولة للرسول تناقلتها المصادر تنطوي على معاني مكانية بالغة الدلالة

(1) حسن سلهم: غزوات الرسول وسراياه، جدلية الدعوة والوقوف، دار الهادي، الطبعة الأولى، بيروت 2005، ص 272 و 273.

«لا يجتمع بجزيرة العرب دينان»<sup>(1)</sup>، أو «لا يجتمع في جزيرة العرب دينان»<sup>(2)</sup>، وبالرغم من أنها لم توضع موضع التنفيذ بصورة تفصيلية وصریحة، على ما يبدو، إلا في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، حيث إنطلق منها لإجلاء اليهود من خيبر، إلا إن هذه المقولة، إذا ما صحّت، وهي تملك درجة عالية من التناسب مع المنطق التاريخي للأحداث والوقائع، فإنها قد شكلت ما يمكن تسميته مجالاً جغرافياً مفروضاً للدين الجديد، له حدوده ومسوغاته، وله أبعاده ودلالاته.

بمعزل عن التطبيق الفعلي والكامل لهذه المقولة، فقد خلت جزيرة العرب فعلاً من أي دين منافس للإسلام، ما يعني التزاماً ميدانياً بهذه المقولة، لا سيما مع اليهود، كما جرى في المدينة أولاً ثم في القرى الشمالية لاحقاً.

إن ما تعنيه هذه المقولة في دراستنا هذه يكمن في إعلانها ضرورة وجود بيئة مكانية جغرافية نقية ومتماسكة للدين الجديد، كما توحي بمستوى عالٍ من الوعي بذلك لدى الرسول أولاً، ثم لخلفائه لاحقاً.

هذه البيئة التي وُحِّدتها الجغرافيا بكل مفرداتها شكلت مسوغاً لأشكال أخرى من الوحدة الثقافية والسياسية، وما استهدفته المقولة المذكورة لا يقتصر على الانسجام مع هذا الواقع المعروف والمعنّى والسائد فقط، بل تنوَّح استثماراً لهذا المجال بغية تمكين وتحصين وتعزيز الدين الجديد، فالمقولة شكلت من أشكال الاعتراف بدور المكان في حماية الدين وتعزيز إنتشاره ونفذه.

إنه استثمار واضح للوحدة الجغرافية واللغوية والثقافية في سبيل وحدة سياسية من شأنها تشكيل البيئة الحاضرة والراعية والحامية بكل قابلياتها الطبيعية وغير الطبيعية. مرة أخرى تنطلق من قابليات المكان تجربة إختصار جديدة بغية توليد مزايا وسمات جديدة لهذه المنطقة تنجم عنها ثقافة جديدة للمجتمع برئته.

(1) الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، الطبعة الثانية، بيروت د.ت، ج 3، ص 21.

(2) البغوي: التاريخ، ص 155.



إنها واحدة من المؤشرات النادرة على الوعي بحقيقة المكان ودوره وقابليته كذلك هي من المؤشرات البليغة على خصوصية العربي ودوره المفترض في البيئة الجديدة والدين الجديد.

ثمة حد أدنى من الجغرافية الضرورية للدين الجديد يجب أن لا يحول دونه حائل، ولا يتعارض معها عارض. ثمة حد أدنى من المكان الضروري للدين الجديد لا يزاوجه فيه دين، ولا يشاركه فيه دين، ولا يعكّر صفوه فيه دين. المكان الحيز الذي يسمح للدين الجديد بالحد الأدنى من الوجود الواضح والمانع، وأخيراً إنه المنزل الذي ينبغي أن يشهد الفترة الأولى والمبكرة من عمر هذا الوليد الجديد، من دون أن يعني ذلك أي سلبية مطلقة نحو الأديان الأخرى، بقدر ما هي ضرورات التنشئة والتربية للفكرة الجديدة في تلك الأزمنة.

### 6- حركة الرّدة

لم تكن حركة الرّدة بعد وفاة الرسول تطوّراً مفاجئاً لمن خبر جيداً ظروف وطريقة دخول القبائل المرتدة في الإسلام خلال السنوات الأخيرة من عهد الرسول، فقد جاء ذلك في سياق الانتصارات التي حققها المسلمون وخصوصاً فتح مكة الذي أدى إلى تفكيك منظومة واسعة من الارتباطات والتحالفات سقطت هي الأخرى بفعل سقوط المركز والمحور.

إن التدقيق في جغرافية حركة الرّدة يشير إلى أن أكثر النواحي التي ارتدت خرجت من القسم الوسطي الشرقي لشبه جزيرة العرب، وبعبارة أخرى إن البيئة الجغرافية لحركة الرّدة هي أكثر نواحي المنطقة العربية تخلفاً وتوغلًا في البداوة، وأكثرها إنخراطاً في منظومة «القفار» التي ما فتئت تظلل الكثير من أحداث هذه الناحية، بالرغم من التطوّرات الكبرى التي عصفت بمنطقة شبه جزيرة العرب برمتها. بهذه الطريقة نفهم الاستجابة لحركتي شبلمة وعلبة<sup>(1)</sup> في صفوف

(1) الطبري، تاريخ الأمم، ج 3، ص 342.

طيء وأسد، كذلك إرتداد قبائل عطفان وأشجع وهوازن وشلبه وغيره نحن، إذن، أمام نمط عيش لصيق بالمكان يضعط باتجاه التجرؤ من كل قيد، وينظر إلى علاقته بالدين الجديد كأي علاقة مع أي قوة خارجية تستوجب المهادنة إلى حين تبدّل الظروف، وهذا ما حدث فعلاً لحظة عبث الرسول.

لقد جرى تعليل المواقف القبلية هذه بالتطوّرات التي أصابت ظروف القوافل التي يفترض أنها خضعت للتعديل مع انتقال الشاطئ التجاري إلى العاصمة، وأن ما حدث في اليمامة وقبيلة حنيفة، والحريص وقبيلة بكر، ليس سوى ردة فعل على إنهيار مراكز تجارية تعود لها تين القبيلتين في تجارة الخبيخ لغربي. عمل التطوّرات في منطقة الحجاز، وبشأنها إشغال طرق القوافل إلى غرب بدلاً عن الشرق، وهذا أمر مفهوم وله تأثيره بلا شك، لكن ما نودّ التعلّق فيه يتصل بجذور الظروف القبلية المكائنية التي كانت وراء هذا النمط من تحصيل المعاش، حيث كان الموقع على خطوط القوافل هو العنصر الأساس في تحديد مصادر العيش وتأمين حاجات الاستمرار.

فالقضية تتجاوز، في جذورها طبعاً، التعديلات الطارئة، على أهميتها، إلى البيئات الجغرافية الحاكمة والمحرّكة لكل سلوك عام لهذه المجموعة من القبائل. وإن الرّدة هي المفهوم العام عند القبائل شبهة بطريقة اندحور في الإسلام، حيث المصالح أو المخاطر تشكلان الخلفية الفعلية، وليس الوعي بضامين الدين الجديد الذي يستلزم قابليات إدراكية لم تكن متوافرة لدى هذه القبائل بما يكفي. من هنا يمكن أن نلاحظ الانقسام الوثيق بقابليات وخيارات المكان كيف تدفع بالمواقف عند كل تعديل أو تغيير.

(1) إبراهيم يصرن: الحجاز والدولة الإسلامية، دراسة في إشكالية العلاقة مع السلطة المركزية في القرن الأول الهجري، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، 1983، ص 131 محمد عبد الحمي شحيان: صدر الإسلام والدولة الأموية - 600-750م (321هـ)، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت 1987، ص 30

(2) شعبان: المراجع نفسه.

فالرؤية هنا ظاهرة اجتماعية، وكذلك مخاطرها وتأثيراتها، وليست شأن فرد كما توحي به بعض التفسيرات. والمردودون عموماً اختصروا الدين الجديد في الرزقة والصدقة، ولم يكن خروجهم من الدين الجديد إلا في سبيل التجديد من هذا الواجب الثقيل على نمط معاشهم، وكانوا مستعدين فعلاً للإستمرار بالواجبات الأخرى غير المادية، كالصلاة، إذا ما تم قبول ذلك من جهة المديين لكن القضية أضحت أكثر من تطبيق واجب هنا وإمتناع عن واجب هناك. قضية الآثار والنداعات التي يمكن أن تسبب بها الرؤية على مجمل مواقف قبائل جزيرة العرب التي تشترك معها في البيئة الجغرافية والمنظومة المكانية بما يضعف الموقف العام للدين الجديد في مكانه الأول، وعريته العتيق، ومن ثم في شبه الجزيرة قاطبة.

في أي حال إن إعلان هذه القبائل إسلامها لا يعدو كونه خضوعاً لتطورات المنطقة العربية التي شكلت ما يشبه البيئة الجغرافية والمكانية الضاغطة باتجاه الانحراط في الدين الجديد، وإلا كان الخيار الثاني شكلاً من أشكال الإنعزال والانفراد سيؤدي حتماً إلى مزيد من المخاطر وخسارة المصالح.

من هنا فإن معالجة الواقع الجديد، الإرتداد عن الإسلام، تطلب تنفيذاً ميدانياً لكل المخاطر والتهديدات التي كانت خلف قراراتها للدخول في الإسلام في عهد الرسول، وهذا ما قام به الخليفة الأول بالتحديد.

أما عودتها إلى الدين ثانية، واستمرارها فيه لاحقاً، فلن تكون مرتبطة بفهم أعمق وأكثر جذية لهذا الدين فحسب، بل بمعالجة أوضاعها الحقيقية وظروفه الواقعية أيضاً، أي بنقلها إلى بيئة مكانية وجغرافية أكثر تقبلاً للمنظومة الدينية الاجتماعية الجديدة، ويبدو أن الانحراط بالفتوحات، وما انطوى عليه من تخطي عن الوضعية المكانية الحالية لمصلحة وضعيات مكانية مختلفة وأكثر تجاوباً مع حاجاتها، كان إحدى الخيارات الرئيسية التي ساهم في إسترار العديد من شؤونها، وفي مقدمة ذلك اعتناقها الإسلام بصورة نهائية.

لقد شكلت الرؤية إذن خطوة إلى الوراء في وقت كان من المفترض أن يباشر النظام الجديد مرحلة جديدة في المناطق الشمالية، وهذا لا يعني أن الفهم في الشأن العام في النظام الجديد كانوا مطمئنين تماماً لحدى انحراط هذه القبائل في الإسلام، فقد كانت النظرة العامة إلى هذه التواحي القفظة والمضطربة من شبه جزيرة العرب تدفع باتجاه تجاهلها ريثما تظفر أوضاعها بما يسمح لها بالإلتحاق فعلياً في ركب النظام الجديد، وإن التقدّم نحو الشمال هو بلا شك، حيز سيزيد بنتائج الإيجابية على سرعة تحقيق هذا الإلتحاق المنشود.

لقد تخلّت هذه القبائل برؤيتها عن الحد الأدنى من الارتباط بالتطورات الجديدة التي من شأنها مساعدتها للخروج من تحيرها التاريخي المسيرة والراحة في ظروف المكان القاسية، نحو مرحلة مختلفة يشكل فيها الأقليم العام والجامع، أي شبه الجزيرة العربية قاطبة، بكل تطوراتها وخياراتها، مصدراً لنظام جديد ونمط عيش جديد، وهذا ما سيدفعها إلى إعادة النظر بموقفها، وإن بالفرة، وبالتالي الإلتحاق مجدداً بالإسلام.

### ثانياً: إشكاليات وجهة الفتوحات

#### 1 - مقارنة المستشرق كلود كاهن

وكما كانت الجغرافيا تضغط في الاتجاه العام، كذلك كان لها دور - على ما يبدو - في رسم إطارات حدودية عامة تتناسب مع المعايير الأقرب إلى طاقات العرب في التكيف والتحمل. لقد أشار المستشرق الفرنسي كلود كاهن في كتابه «تاريخ العرب» إلى هذا المضمون بالتحديد عندما لاحظ أن الفتح العربي قد امتد «طوال خطوط عرض متشابهة، وعلى شريط من الأقاليم التي تتمتع بظروف متماثلة في المناخ والحياة، وإن اختلفت في تضاريسها». وبعد أن نفى

(1) كلود كاهن: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى بداية الإمبراطورية العثمانية، ترجمة بدر الدين القاسم، دار الطبعة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، بيروت 1982، ص 30.



إيمانه بالحتمية الجغرافية بصيغتها الضيقة، أردف قائلاً «لكننا نرى أن من الأمر للعرب أن يحاربوا في أقطار ثلاثهم من حث المناخ ولا تضطربهم إلى تغير أسلوب معاشهم، وبالتالي يتم فيها امتزاج الشعوب امتزاجاً طبيعياً»<sup>(1)</sup>، فاللفظ عند كاهن، إذن، لا تكفي بالدوافع، بل لا بد أن تكون ثمة كواح من السحر المكانية تضبط الحركة في الاتجاه وفي الحدود، حيث يبقى العصر الجغرافي متحكماً في التطورات لما فيه من موافقة مباشرة لشروط الحياة الإنسانية.

ولمزيد من التعقُّق بآراء كاهن تتساءل في هذا المجال عن إمكانية السب سماً وجنوباً بالقدر الذي لاحظناه شرقاً وغرباً، كذلك عن إمكانية التوازن في هذه الاتجاهات التي غلب عليها الانسياب في بلاد فارس بدل متابعة الاتجاه نفسه الذي انطلق شمالاً باتجاه بلاد الشام. لماذا تم تعديل الاتجاه إلى الشرق وحصل ما يشبه الالتواء إلى اليمين، وبالتالي المزيد من التوغل بهذا الاتجاه بطريقة واضحة ومتنامية؟<sup>(2)</sup>

والأمر نفسه فيما يتعلق بالجهة الغربية هذه الجهة التي انطلقت شمالاً باتجاه الأردن وفلسطين، ثم اتعظت غرباً وتابعت السير، مكتفية بشريط محدود في المناطق المحاذية للبحر المتوسط، ومتوغلة بطريقة مماثلة في الاتجاه العام مع فتوحات المشرق. حتى وصلت إلى أبعاد نقطة على الباسية، قبل أن تقف عند حدود الأطلسي بطريقة تجاهلت إلى حد بعيد، مع بعض الاستثناءات، الامتداد الجنوبي الواسع والعميق، ثمة مظاهر عمرانية ومعالم بشرية جذبت قادة الفتوح بالتأكيد، لكن حتى هذه المظاهر والمعالم لم تكن معزولة عن الظروف والقابليات المكانية والجغرافية.

صحيح أن هذه الفتوحات مستحفظ بتطلعات دائمة نحو الشمال، وقد كانت لديها محاولات متوالية على مدى قرون بعد ذلك، وقد استطاعت فعلاً الوصول إلى مناطق جديدة تماماً، لكن ذلك ما كان ليحدث في ظل الظروف والقابليات

(1) المرجع السابق.

الأولي زمن البدايات، فقد تغيرت أشياء كثيرة وعلى رأسها أصول الفتحين، ومناطق استقرارهم، ومزايا إمكاناتهم.

لم يكف كاهن بشروط اللحظة التاريخية الراهنة للفتوحات، بل ذهب بعيداً عندما تحدث عن ضرورة استمرار أسلوب المعاش ثم ضرورة الامتزاج الطبيعي بين الشعوب الفاتحة وتلك المفتوحة، وهذا في التقدير العام يشكل ذروة النفوذ والتأثير المكاني الذي يتجاوز اللحظة الراهنة إلى العقود، بل القرون اللاحقة.

إنها الجغرافية عندما تبني المراحل التاريخية الجديدة تقوم بشي بما يشبه الضغط والتوازن هناك، كي يحفظ التاريخ ببعض نتائج حركته ولا يذهب بعيداً «في أقاليم متنوعة... لن تؤدي مطلقاً إلى هذا اللون من المجتمعات التي أنشأها الإسلام الكلاسيكي المعروف، من نهر سيحون إلى المحيط الأطلسي»<sup>(3)</sup>، كما رأى المستشرق نفسه.

وإذا ما أردنا أن نتماذى أكثر في هذه الفكرة، يمكن أن نتساءل عن علاقة هذه المعادلة المكانية بإخفاق الروم في هذه المنطقة عموماً، وشبه الجزيرة العربية على وجه التحديد، فهل يمكن الحديث هنا أيضاً عن اختلاف في نمط العيش أو أسلوب المعاش، وبالتالي صعوبة الامتزاج السكاني، لينشك ذلك السور النبع، والحائل الثقافي الصلب الذي حال دون اختراق المنطقة إلى جانب الظروف الطبيعية المباشرة؟ هذا سؤال يحتمل العديد من عناصر الرد الإيجابي، ونرى رؤية كلود كاهن.

## 2- مقارنة المؤرخ صالح أحمد العلي

نظّر صالح أحمد العلي في كتابه «الفتوحات الإسلامية»<sup>(4)</sup> إلى قضية الحدود التي جرى رسمها لهذه العمليات الحربية، متوقفاً عند «رأي عمر بن

(1) كلود كاهن، المرجع السابق.

(2) صالح أحمد العلي: الفتوحات الإسلامية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة الثانية، بيروت 2013.

الخطاب في وقف التوسع عند المناطق الجبلية في شمال بلاد الشام، والجزيرة الفراتية، وشرق العراق، وعند صحراء ليبيا<sup>(1)</sup>، وقد اعتبر أن هذا الرأي «تدعمه الصلة الوثيقة بين جزيرة العرب والأقاليم التي حولها»<sup>(2)</sup>. نحن هنا أمام إقليم معيشي وثقافي متكامل، أو إقليم جغرافي متجانس بالمعنى الواسع.

يرأي المؤرخ العراقي أن التضاريس، وهذا ما نفهمه من «المناطق الجبلية» هي الحائل الطبيعي الأساسي الذي حال دون الاستمرار في الاتجاه الشمالي سواء في بلاد الشام أو الجزيرة الفراتية، كذلك فإن طبيعة الأرض ومناخها شكلا حائلين من نوع آخر، وهذا ما نفهمه من عبارته «صحراء ليبيا»، ولكنه رأى أن ذلك يحول دون متابعة الفتوحات، لكن لا يحول دون تهديد الفتوحات، أو بعبارة أخرى إن الوقوف أمام هذه الحواجز الطبيعية لا يحول دون تهديد الفتوحات. ومن ورائها كل البناء الذي أقامته الدولة الإسلامية، فاعتبر أن التوقف «عند هذه الحدود قد يعرضها لأخطار ما يجعل الدولة السابقة تحاول إستعادة ما فقدت من الأراضي»<sup>(3)</sup>، نحن هنا أمام مسوّج جغرافي لمهمة أخرى تختلف عن المهمة الأولى للفتوحات والتي إحتصرناها بتلبية الحاجات، وتعزيز الدولة الناشئة. نحن هنا أمام وظيفة ثانية للفتوحات تتجاوز المألوف والمعروف، فقد غدت هذه الأعمال الحربية نوعاً من الدفاع بالرغم من شكلها الهجومي، وغدت نوعاً من الحماية بالرغم من طابعها التوسعي، وهذا معيار إضافي إلى جانب المعايير التي وضعها كاهن في شروط حركة الفتوحات، لأن هذا المعيار يتجاوز ضرورة التكتيف والامتزاج، كما هو الحال عند كاهن إلى ضرورة التحصن والدفاع، إنه معيار إستمرار الفتوحات، وليس إستقرارها فقط، كما رأى المستشرق الفرنسي. ولم يتوقف العلي عند هذا الحد، بل رأى أن أثر شبه الجزيرة العربية في

(1) المرجع السابق، ص 17.

(2) المرجع نفسه

(3) المرجع نفسه

والأقاليم المجاورة التابعة للفرس والروم كان أظهر وأقوى من أثر هاتين الدولتين فيها<sup>(1)</sup>، وهذا الكلام ينطبق على الفترة السابقة للإسلام، وما عشت هذه المنطقة من تشردم وتفرد، فكيف الحال بعد إنخراط الجميع في نظام ثقافي جديد يتجاوز بإنجازاته وحدوده كل التوقعات.

ربطاً بما تقدّم فقد طرح صاحب «الفتوحات الإسلامية» معياراً آخر في حدود التوسع الإسلامي، فبالإضافة إلى عبورة الجبال وامتداد الصحاري التسعة في إفريقيا اعتبر أن الحدود تنشأ عندما تصل الجيوش إلى مجموعات بشرية «ضعيفة» بجزء الجزيرة<sup>(2)</sup>. فبالرغم من عالمية الإسلام، وبالرغم من تحوره لكن الصفات بعرب الجزيرة<sup>(3)</sup>. فقد ظلت الأفاق العربية في صدر الإسلام هي العنصيات والعنقيات والإنشآت، فقد ظلت الأفاق العربية في صدر الإسلام هي الأفاق، وظلّ العالم مقسوماً إلى قسمين أحدهما عربي أو في فكره، والآخر، على أنواعه المختلفة، هو عالم بعيد وغريب وغير مأمون. لسنا في صد تلمس حبس القومي المبكر لدى أصحاب القرار في ذلك الوقت، لكن من الواضح أن الإحساس بالذات وجدارتها ودورها المميز بلغ مبلغاً متقدماً في التأثير على التفكير العام، وهذا أمر ما كان ليتم بهذه الطريقة وهذا المستوى، إلا بعد تجربة مريرة وعريقة، وبالعلة التعقيد داخل الإقليم الجغرافي الواحد، بعيداً عن الأثر الخارجية، بكل أشكالها ونماذجها.

### 3- مقارنة المشرق وبنهرت دوزي

نرى رأي المشرق وبنهرت دوزي دونه في كتابه «نظرات في تاريخ الإسلام»<sup>(4)</sup> يعتبر فيه أن الفتوحات ليست سوى امتداد لخطة الرسول في «أن ينقل العرب عن التفكير في خضوعهم... إن خير ما يربطهم بالإسلام لا يكون

(1) صالح أحمد العلي، المرجع السابق، ص 44

(2) المرجع نفسه، ص 335.

(3) بنهرت دوزي: نظرات في تاريخ الإسلام عصري صدر الإسلام وملوك الطوائف في الأندلس، ترجمة كامل كيلاني، دار مكتبة بيلبون، جيل - لبنان، د.ت، ص 378.



إلا عن طريق الفتح، والإنصارات الحربية، وما يجزئه ذلك من الغنائم»<sup>(1)</sup>.

إن هذا النوع من السياسة الداخلية للرسول ربّما كان موجوداً، لكن بصورة تختلط جوهرياً عن ما رآه دوزي، وثمة غزوة مشهورة عُرِفَتْ بغزوة المريسيع<sup>(2)</sup> شهدت نوعاً مشابهاً من تعامل الرسول مع المسلمين مع بعض الاختلاف، لكن هل يمكن أن ينسحب تفكير هذه الغزوة ومثيلاتها على مجمل عمليات الفتح وما مرّت به من تجارب ومراحل وإنجازات؟ هل يمكن اعتبار هذه العمليات، برئتها، معالجة لعقدة العربي في رفضه المطلق لفكرة الخضوع، هذه الفكرة التي ترسّخت في ثقافته الخاصة بمنظومة «القيّار» وما رافقها، أو تولّد عنها، من عقلية «التحرّر من كل قيد»؟؟.

لا شك بأن هذه العمليات تعالج، على نحو غير مقصود، العديد من القضايا التي تنشأ من الركود والجمود، وهي بالفعل حقّقت الكثير من هذا القبيل، لكن عقدة الخضوع فقدت الكثير من معانيها ومصاديقها السائدة في الجاهلية والروثية، وإن القيود التي كانت تكبل سابقاً أضحت في حكم المخفية بعد الدين الجديد. فالخضوع اليوم، والقيود اليوم، لم تعد خاصة بشخص أو قبيلة أو دولة، إنها غدت متصلة بالاله والرب كما آمن به العرب، وخضعوا له كما خضعت وتستخضع له كل الكائنات، شاءت أم أبى، وما حدث في المريسيع انتهى في وقت، ولم يشكل شغلاً شاغلاً للرسول، وكذلك الخلفاء من بعده.

لقد هدّبت الدين الجديد العديد من العادات والتقاليد، فضلاً عن الأذكار والقيم التي كانت سائدة في البيئة الجغرافية، وهو إذ لم ير ضرورة إلغاء الكثير منها، نظراً لطابعها المكاني المعقول، إلا أنه أجرى تعديلات جوهرية طالت المضمون وإن حافظت على الإطار العام.

(1) المرجع السابق.

(2) حسن سلهم: حركات الرسول وسراياه، مرجع سابق، ص 296.

#### 4 - مقارنة المستشرق فرانشيسكو كبريلي

تتوقف في هذا العنوان، أمام إشكالية تعرّض لها المستشرق البريطاني فرانشيسكو كبريلي في كتابه «محمد والفتوحات»، حيث لم يوافق على ما ذكره البعض عن «التردّد وعدم الرغبة في الشروع في الفتوحات»<sup>(1)</sup> لدى أصحاب القرار، وبعد أن يقوم الرواية التاريخية التي تنفي بأن عمرو بن العاص قد واجه صعوبة كبيرة في إقناع عمر في فتح مصر، يخلص إلى القول بأن «النقد الحديث يعتقد بأن الخليفة قد أعطى موافقة الكاملة للمشروع، وكانت تلك نقطة البداية لنقطة الفتح المفصّلة تماماً للتوسع»<sup>(2)</sup>.

لا شك بأن عملاً بهذا الحجم لا يمكن أن يحدث في ظل التردّد وضعف الرغبة على الدوام، لكن على ما يبدو من تطوّر الأحداث، والدوافع والكوابح التي ظهرت في العديد من المظاهر والمراحل، أن أياً من القادة أو الخلفاء - بملك نصوراً عاماً، ولا أقول تصوراً دقيقاً ومفصّلاً - عن مجرباته وحدوده الفعلية. لقد كانت الأمور تجري بتطوّراتها الخاصة أكثر من دوافعها المطروحة أو المأمولة، كذلك فإن كوابحها كانت خاضعة لمنطق الحرب والميدان أكثر من خضوعها لأي هواجس ومخاوف معلنة أو مضمرة هنا أو هناك.

#### - بعض الاستنتاجات

لا أحد يمكنه افتراض أن خريطة الفتوحات قد رسمت في أي مكان، بما فيه مركز الخلافة، بالشكل الذي تمت به فعلاً، بل ولا يمكن القول بأن العناوين العامة ومحاور الجهات قد تم تحديدها، مسبقاً وبدقة، في أي مكان، ومن قبل أي من أصحاب القرار. نعم كانت الصورة تتضح كلما اقتربنا من الميادين الفعلية «تطوّرات في مراحلها الأخيرة». والتشديد هنا له ما يبرّره في الروايات التاريخية

(1) فرانشيسكو كبريلي: محمد والفتوحات، ترجمة عبد الجبار ناجي، دار المحجة البيضاء، منشورات حمل، الطبعة الأولى، بيروت وبغداد 2011، ص 283.

التي خلت تقريباً من أي رؤية عامة قابلة للتنفيذ عشية البدء بالفتوحات... الأمر بسحب على مجمل الفتوحات الأولى بما في ذلك عهد الخليفة... الحطاب الذي شهد أعم وأبرز أحداث الفتوحات وما يتصل بها. لقد كان... يسيرون في ضوء إنجازاتهم وملاحظاتهم للأرض المفتوحة، أو تلك التي... على وشك أن تصبح كذلك. وليس من المبالغة القول بأن الخريطة التفسيرية... تكن موجودة، بل إن الخريطة العامة للمنطقة لم تكن معروفة أو موجودة... معرفة بعض الواحي لم تتجاوز بعض الطرق والمعالم التي لا تكفي لشيء... النوع من الأعمال الحربية الممثلة.

نقل الطبري<sup>(1)</sup> ورواية عن الخليفة عمر بن الخطاب أن المسلمين كانوا... بفتح جلولاء واستأنفوه المتابعة فأبى وقال: لوددت أن بين السواد وبين العرب... سداً، لا يخلصون إلينا، أولاً نخلص إليهم، حبسنا من الريف السواد، إنني أتر... سلامة المسلمين على الأقاليم<sup>(2)</sup>.

وفي رواية أخرى للطبري بنقل عن عمر قوله، وهو في زمن الفتوح... «حبسنا لأهل البصرة سوادهم والأهواز، وددت أن بيننا وبين فارس حلاًز... ناء، لا يصلون إلينا منه، ولا نصل إليهم، كما قال لأهل الكوفة وددت أن بينه... وبين الحبل حلاًز من ناء، لا يصلون إلينا به، ولا نصل إليهم»<sup>(3)</sup>.

تستوحى من هاتين الروايتين الأفق المرئي للفتوحات عند صاحب الق... النهائي، وهو كما نرى لا يتجاوز الإمتداد الطبيعي لأرض الحجاز، حيث... هو الحد وهو المقصد، والأمر لا يقتصر على ذلك، بل يذهب بعيداً في... الحدود وتخيّل الحواجز: فهو سد في الرواية الأولى، وحل في الرواية الثا... وبالرغم من وجود الحل أساساً، إلا أن الخليفة كان يؤمن أن جبلاً آخر للفصل

(1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 28

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه، ج 2، ص 79.

فقط، وهذا إن دلَّ على شيء، فإنما يدل على مدى الشعور بالموصل الثقافية... والطبيعية، وعلى الغرابة التي كان يراها العرب في تلك الواحي من الشرق... بفعل إنغلافهم وإنطوائهم على ذواتهم، وسبكتهم أنه وهم ليس إلا، عدم... تخرق جيوشهم هذه الحواجز، وتصل إلى ما لم يكن في الحسبان على الإطلاق.

ما تقدم يؤكد المبادرة العفوية والتلقائية بالرغم من توافر مستوى عالٍ من... الإيمان بهذا الخير ونتاجه، إنها الإمداد الطبيعية بحكم الظروف المكنية... بالرغم من حضور قيم الهداية والدعوة إلى الدين الجديد ورسوحيها يمكن... القول أيضاً بأن الفتوحات شكلت أحط وأكبر إنجاز تاريخي لتدين الجديد منه... بهذه الطريقة، ما يوحي بطاقة ذاتية في الدين والواقع كانت تفعل فعلها، بعيداً عن... الوعي الذاتي والتاريخي عند المسلمين عموماً، والعرب على وجه الخصوص.

### ثالثاً: فتوح الشام والعراق ومصر

بالرغم من تشابه الظروف للفتوحات وفق الدوافع والكواحب العامة، إلا أنه... من لكل اتجاه ظروفه الخاصة وتطوّراته المميزة التي جعلته يسير في وقته... وأحداث تختلف عن غيره من الاتجاهات في أكثر من محال

لغة ثلاث اتجاهات رئيسية في الفتوحات

1- اتجاه بلاد الشام

2- اتجاه العراق

3- اتجاه مصر

والشأن في انطلاقة كل اتجاه لا يرى ثلاثية متوازنة ومتعادلة، بل نوعاً من... الترتيب هو أقرب إلى التفاعل بين الاتجاهات منه إلى الفصل والإستغلال،... بمعنى أننا لم تكن في البداية بصدد خطة ثلاثية الأبعاد، بل ببعد واحد نجم عنه،... بحكم تطوّر الأحداث، اتجاهان متواليان ثم اتجاه ثالث متأخر قليلاً، ما يدل... على أن الصورة الأولية لم تكن واضحة وكافية.



## ١ - فنوح الشام

## - عرب الحجاز والشام

ثمة علاقة بين شبه جزيرة العرب و بلاد الشام لا تقف عند حدود الإمبراطورية الحمراني، بل تتوغل في تاريخ الأماكن التي تشكلت وقامت على موارث دهر بعيد، أو تطوّرات حدثت مع بداية الحضور الإسلامي وما بعدها.

يتعين علينا أن لا ننسى أول إطلالة إسلامية خارج شبه جزيرة العرب تُشرّ في بداية السنة الخامسة للهجرة، وفي دومة الجندل<sup>(١)</sup> تحديداً، وتكرّر ذلك في وثائق للبلدة نفسها في أوقات لاحقة، كذلك مؤنة وتونك، وكل هذه الإطلالات كانت في عهد الرسول<sup>(٢)</sup>، وإيرادته المباشرة، ومبادراته الشخصية، وقد حظيت أماكن عديدة منها بحضوره، مقيماً، ومصلياً، ومحارباً، وعاقداً للاتفاقيات. وهذه الأماكن غدت طرقاً مفعمة بالذكريات المقدسة والرموز المثيرة، فقد ضمت هذه الأرض، قبل الإسلام بقرون، رفات العديد من الأنبياء والصالحين، وثمة أصحاب كثر للرسول استشهدوا ودفنوا في تراب هذه المناطق التي ستصبح معابر إلزامية للخروج إلى الشمال، فضلاً عن الشرق.

لقد تشكل لدى المسلمين ما يشبه الحنين الممزوج بطيف الرسول وإشاراته المتوالية إلى طريق المستقبل الذي ينتجه شمالاً، من قرى ومدن فلسطين والأردن إلى العالم كل العالم، وهذا ما ليس له مثيل في أي جهة أخرى من جهات الفتوحات اللاحقة.

وإذا كانت المصادر قد غيّت هذه المشاعر فلم تذكرها إلا لماماً، فلطالما دخلت هذه المصادر من كل ما كان يغلي في العروق، ويحتدم في الصدور، ويدفع بالرجال

(١) دومة الجندل: «من الصحاح» الشجر: الشجر: «منهم ما استأنسهم بجلد أج»، ص 182.

(٢) الواقدي: فتح الشام، ج ١، ص ٥٥.

للتضحية بالمال وبالحياة<sup>(١)</sup>. لقد تم تسجيل معظم الوقائع بعد عقود مديدة هادت فيها المشاعر، وتغيّرت القلوب، واختفت آثار العروق النابضة والجروح النازقة

هذا النوع من المشاعر لم نجده في بدايات الفتوحات العراقية، وشأن بين بدايات حاكمها<sup>(٢)</sup> أنامل الرسول وكبار الصحابة ونشئت حرمة وأصرارهم، وتلك التي حاكمها مبادرات فردية تبحث عن حاجتها في المشرب والمأكول، حتى إذا جاء الإسلام حملت لواءه وسلكت طريقته، من دون قطيعة ثمة مع الماضي

وإذا كان الطابع الروحي واضحاً في بلاد الشام فإن الطابع المادي سيغلي في العراق، ومع مرور الوقت، سيكشف المسلمون ثروات طبيعية وحضارية تجعل الاستقرار في الشرق أكثر ثباتاً ورسوخاً على المدى البعيد، والتاريخ اللاحق سينصف هاتين الناحيتين حين قامت عصاة الخلافة الأموية أولاً في بلاد الشام، على إيقاع البدايات والعلاقة الأولى مع الخارج، لكن البنية العامة الشامية، وإن تغيّرت كثيراً عن شبه جزيرة العرب، إلا أنها كانت دون تلك الخاصة بأرض العراق والشرق عموماً، وهذا ما سيدفع، تالياً، بمركز الخلافة وعصمتها نحو الشرق لتستقر هناك قرونًا متوالية، رغم التحذيرات والنصائح الحرجية والداخلية.

يظهر أن خالداً بن الوليد، أبرز قادة المسلمين في هذه الفتوح، لم يدرك طبيعة الفاتح بين هذين المصرين، فقد ذكر وهو في مقام إقناع نفسه بترك العراق، إثر ما بأمر الخليفة «أما إذا ولّاني فإن في الشام خلقاً من العراق»<sup>(٣)</sup>، فالتفت إلى أحد أصحاب المشي بن حارثة، يشير بن ثور العجلي، وكان - على ما يبدو

من سعة العارفين بحصوصيات السواحي والبلاد، فقال: «ما جعل الله الشام

(١) الأزهري: محمد بن عبدالله: تاريخ فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم عبدالله عامر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة 1970، ص 28، البجلي: البدء والتاريخ ج 3

(٢) د. نيسكو كزيلي: محمد والفتوحات الإسلامية، ص 257

(٣) الأزهري: تاريخ فتوح الشام، ص 69

من العراق خلفاً، والعراق أكثر من الشام حنطةً وشعيراً وديباجاً وحريراً وفضةً وذهباً، وأوسع سعة، وأعرض عرضاً، والله ما الشام كله إلا كجانب يسير من العراق<sup>(١)</sup>. يخلص هنا، أن هذا القائد الشهير، وبالرغم من مشاركته المباشرة في المرحلة الأولى من فتوح العراق، فقد ظل مفتوناً ببلاد الشام ولم يتسّر له إلى مقارنة واقعية خارج إطار العلاقة التاريخية والروحية مع هذه البلاد.

لقد كانت بلاد الشام، إذ ذاك، غاية الفتوحات في إنطلاقتها الأولى، وهذا بسجْم مع العمل الحربي الأخير (سيرة أسامة بن زيد) الذي أشرف عليه الرسول ﷺ قبل وفاته ولم يكمله، فجاء الخليفة الأول وقد أصّر على إنجازه، ولم تكن الأعمال الحربية التي قادها الخليفة نفسه بعد وقت قصير في هذا الاتجاه، استكمالاً لما شرع فيه في أول عهده.

هكذا بدت بلاد الشام بوابة العالم الجديد الذي كانت تتطلع إليه عقول وقلوب أصحاب القرار، حاملة دعوة جديدة هي سر نشاطها، وحاملة بالخيرات تنطفئ شطف عيشها.

هذه الوجهة لم تخطر في أذهان أصحاب القرار فقط، بل كانت ماثلة أيضاً في أمانتي وميول العامة الذين وجدوا فيها ساحة لائقة بالجهاد، واعدة بالغنائم على السواء، ولم يكن هذا التقاطع بين القيادة والقاعدة من قبيل الانسجام الفكري والديني فحسب، بل هو بالتحليل الأول والأعمق تعبير عن وعي طبيعي بالعلاقة العضوية الجغرافية والتاريخية التي تربط بين شبه جزيرة العرب وبلاد الشام كإمتداد طبيعي وديمقراطي وثقافي لم تحل دونه الاختلافات السكانية، وبعض التضاريس المحدودة.

تمة روايات المطبوع نحدث الأولى عن خروج أهل اليس إلى الشام، وروى مضر إلى العراق، والأخرى تتحدث عن ميل قبيلة النخع إلى الشام «فتزعموا إلى الشام، وأبى (الخليفة عمر) إلا العراق، وأبوا إلا الشام، فسرح نضهم إلى الشام

(١) المصدر السابق

وصحبهم إلى العراق»<sup>(١)</sup>.

فإن رواية الأولى، وبالرغم من وجود نزوع لدى قبيلة مضر إلى العراق، إلا أن الخليفة ذكرها بربسوخ أرحامها في بلاد الشام، مستغنياً عدم ذكر هذه القبيلة لأسلافها في هذه البلاد. أما الرواية الثانية فتبدو واضحة في عرض الميل الطبيعي لقبيلة النخع لبلاد الشام، وقد وصل الأمر بها إلى حد رفض رغبة الخليفة ما دعى لأخبر إلى اتخاذ قرار بتقسيم القبيلة، وبالتالي إرسال نصفها إلى ما ترغب، والنصف الآخر إلى ما يرغب الخليفة. وثمة روايات أخرى<sup>(٢)</sup> تشير إلى أن القيادة والنصف للفتوحات كانت قد اصطدمت مراراً بهذا الميل الطبيعي نحو المناطق الشمالية من شبه جزيرة العرب.

ترب المزدخ هشام جعيط عند هذه الإشكالية معبراً عن رأيه بقوله:

«ويجيب السياق التاريخي برمته، كما المصلحة المتنبئة للمصدر، إلى ندانة على أن مواجهة الشام كانت تعتبر الجهة الرئيسية، والجهة التي كانت فكرة الفتح عامة توضع فيها على محك الاختبار»<sup>(٣)</sup>، حتى أنه رأى أن إشكالية الفتح صموئلاً - إذا ما تم اعتبار ذلك إشكالية بالفعل كما أشار - إنما تنطلق ببخصيص الشام لا ببخصيص العراق»<sup>(٤)</sup>، وهذا ما يتناسب ليس فقط مع تطورات الأحداث لبيانية، بل أيضاً - وهذا هو الأهم - مع ما كنا قد أشرنا إليه من اندفاع طبيعي، ينطوي على عفوية ما، طبعت الإنطلاقة الأولى لعمليات الفتح، بل معظم مراحلها الأولى.

بكن هذه البداية وإن تمسكت من تحقيق نتائج منسوبة ومتسمة في بلاد الشام، حيث جرى فتح ما يصطلح على تسميته اليوم بالشرق الأوسط المعادي

(١) تاريخ الأمم والشعوب، ج ١، ص ١٩٤

(٢) المصدر نفسه

(٣) هشام جعيط: الكوفة، ص 7

(٤) المصدر نفسه



المحرم المتوسط، إلا أن العمق الاستراتيجي للفتوحات سينطلق في اتجاه آخر هو اتجاه الشرق، حيث الظروف الطبيعية، وغير الطبيعية، تستقطب المزيد من الاهتمام والمتابعة، وبالتالي مواصلة الفتح إلى مناطق تبعد عن مركز الخلافة آلاف الكيلومترات.

ولم تكن الفتوحات الغربية إنطلاقاً من مصر باتجاه المغرب، أقل أهمية بالمعنى الاستراتيجي للعبارة، من الفتوحات الشرقية، في هذا الوقت توفقت نسبياً، الفتوحات الشمالية عند حدود بيتها الجغرافية، وعُزِّد من مناعتها الواقع التاريخي الراشح في هذه الناحية.

#### - مقارنة كلود كاهن

اهتم المشرق الفرنسي كلود كاهن بهذه الجبهة تحديداً، غنيت بها الجبهة الشمالية، بقوله: «كان التغلغل عسيراً بسبب العوامل الجغرافية داخل آسيا الصغرى، وبسبب طبيعة السكان الذين لا يتسمون إلى العرق السامي، بل إنهم تأثروا بالحضارة اليونانية»<sup>(1)</sup>. وبعد أن يرى الشعوب داخل آسيا الوسطى قد أحلست لدولة القسطنطينية، وظلوا على إخلاصهم طوال هذه الفترة، لم يتجاهل ما سبَّاه «قدرة الدولة على الصمود مع عاصمتها»<sup>(2)</sup>، لقد مزج بين العامل الجغرافي المباشر الذي حدَّه لاحقاً بحال طوروس، والعامل الإثنولوجي الديمغرافي الذي تمثل بالعرق السامي الغريب عن أصول شعوب آسيا الصغرى، ثم العامل العسكري المتمثل بقوة الدولة البيزنطية. أما الريح الشرقي فلم ينفذ في وجهه هذا المزيج من العوامل، ما أتاح توغلاً متواصلاً، وإن كان «زحفاً شافاً» تخلَّته وقفات طويلة»<sup>(3)</sup>، على حد تعبير المشرق نفسه.

وفي الغرب توفقت كاهن عند ما وصفه بـ «المقاومة البيزنطية الهزيلة في تلك

(1) كلود كاهن، تاريخ العرب، ص 28

(2) المرجع نفسه

(3) المرجع نفسه

لأصقاع النائية التي لم تتأثر بالحضارة اليونانية»<sup>(1)</sup>، هكذا تختفي في الغرب المواعير المرتبطة بقوة الدولة وموقعها وبيتها الحضارية، بخلاف ما وجدته في الشمال والاختلاف بين وقائع الفتوحات لم يقتصر على الظروف المانعة أو الدافعة، بل السحب على الطريقة والمخطط الميدانية، فضلاً عن أنماط جهود وإنفاقيات الفتح وأنماذج المدن والأصوار المفتوحة.

#### - مقارنة صالح العلي

التصت صالح العلي إلى هذا الاختلاف واعتبر أن من أبرز مظاهره «هو أن العرب تعاملوا في بلاد الشام مع مدن، وعقدوا مع كل منها معاهدات منفردة، وإن كان نصوص الكثير منها متشابهة»<sup>(2)</sup>. وهذا أمر له دلالة في ضعف التجانس بين السلطة القائمة والمدن المحكومة الذي تسبَّب بما يشبه الجزر المنفردة، وإن حمى بحر السلطة الذي يحوطها من كل جانب.

فقد كانت بلاد الشام بعيدة بالفعل عن السيج الحجازي والدمعري والديلمي للدولة البيزنطية، لاسيما ما يتعلق بآسيا الصغرى وما بعدها إلى الشمال، وقد طهر هذا العدح حلياً بمستوى يعودها المتفاوت، بل بسنوي وحرد. من المتطوِّر. ثمة مدن عديدة فتحت بدءاً من دمشق، ثم حصص وحماة، بالإضافة إلى بعلبك، ومرو وراي بكل المدن الساحلية التي يطلق عليها حالياً اسم فلسطين ولبنان وسوريا، لكن من المثير حقاً أنها لم تجتمع لمواجهة هذه الفتوحات التي تأتاه جميعاً، وإن آتاه حشود عسكرية ضخمة في هذه الجبهة تستنطق دافعاً من خارج هذه المنطقة، وإن أكثر ما يمكن أن تشارك فيه هذه المدن هو الإلتحاق بها، لأنها من أقصى الشمال.

مع، ثمة تماك في الجبهة الساسانية أصيب بكر تداعت له كل أنحاء

(1) المرجع السابق، ص 29

(2) صالح العلي، الفتوحات، ص 18.



نعم هذا الوصف هو الأقرب إلى منطق معظم الروايات التي كانت تنص على مواقف الخليفتين الراشدين الأول والثاني، حيث الأفق العام لا يتجاوز الحدود العبدية للإقليم الساحلي نفسه، مع بعض حالات الخروج المؤقت، لكن اللون الصاعق كان أكبر بكثير من هذه التطلعات، وقد فرض نفسه على الجميع بطريقة تجاوزت كل المألوف من الخطط والرؤى والأهداف المرسومة، على الأقل في هذه المرحلة المبكرة، كما أثبتنا سابقاً.

### - البحر وبلاد الشام.

بالإضافة إلى ما تقدم ثمة عنصر آخر يتجاوز بأهميته كل ما قيل حتى الآن، إنه البحر، هذا المدى الذي يشرف على كل بقعة من بقاع بلاد الشام أو يكاد، ويطل كل ناحية من نواحيه أو هو على مقربة من ذلك، إنه الطريق الأقرب والأسرع والموقع الأدنى والأفضل، إنه الثغر الذي لا يمكن سدّه، والخطر الذي لا يمكن منعه، وهو المكان الذي أعاد الزمن إلى الوراء حيثما تجاهله أو تقدم عن غير طريقه. لقد كان البحر بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية كافياً بالفعل لتكريس معادلات عسكرية وسياسية على مدى قرون من تاريخ الشام الإسلامي. كما كان مؤثراً في تجريد والغاء مفاعيل العديد من الإنجازات البرية بلا تكلفة كبيرة، ومن دون حدود أجيالاً، ولطالما تاعمت الأحداث والوقائع الكبرى في تاريخ بلاد الشام الوسيط مع مسابحات سواحله، وإتجاهات رياحه، وإرتفاعات أمواجه.

هل يمكن فهم تاريخ هذه البقعة من غرب آسيا بلا أساطيل ومرافق، أو قلاع وحصون. امتدت على طول الساحل الشامي لثمان سنين<sup>٤٤</sup>، هل يمكن فهم تاريخ هذه البلاد من دون التأمل في أحوال البحر، ووسائل وأدوات الخوض فيه، فضلاً عن طريقة تأمين أخشاب السفن ومراكز التصنيع، ثم المغامرات والمخاطر التي لم تهدأ أو تستكين برهة.

هذا المدى الحيوي الذي سيكون له إسهامه الملحوظ في الانسحاق الإسلامي

على طول السواحل الشمالية للقارة الإفريقية<sup>٤٥</sup>، مروراً بالجزر والشواطئ الحيوية الغربية للقارة الأوروبية، وصولاً إلى الغرب، هو نفسه الذي حال دون العديد من محاولات الفتح البري شمالاً، وأبقى سواحل الخلافة الراشدية، ومن بعدها الأموية والعباسية، عرضةً لشتى صنوف التهديد والمحيط البيزنطي. وهذا ما لم ير العرب والمسلمون نظيراً له في كل النواحي الشرقية البعيدة وبشدة في الخلافة الإسلامية.

إن ما جعل هذا المدى في هذا المستوى من الحيوية يكمن في غربة العرب الحجازيين والتجديدين عنه، وترددهم ثم تأخرهم في خوض غماره كما سرى لاحقاً، لا سيما في المراحل الأولى من فتوحاته. لقد حالت تحريمه وتبذيره وعاداتهم الباشئة، بفعل منظومة «القدر» وسواها، من إحباط لربح والاستفادة المبكرة من هذا المدى الذي كان مسرحاً صاعباً في التاريخ القديم، بل كان قلبه ومركزه، حيث لا يتحرك التاريخ إلا على سطحه وأمواجه، راسخاً مع شروطه وأحواله.

في أي حال سوف نتوقف لاحقاً أمام إشكالية العرب والبحر، وسنرى كيف كان لهذا المدى الحيوي أثره الحاسم في العديد من قضايا التاريخ الإسلامي في برهة المبكرة.

### - الدوافع الحادية نحو بلاد الشام.

ثمة مشاهد عديدة تشير إلى الفتوح كطريقة في معالجة الأزمات وإشكال عدم وانعدام الخيارات، فقد قدم أبو الأعور السلمي على أبي عبيدة بن الجراح بدلي في فتوحاته فقال له «إننا قد جئناك من غير قحمة ولا عدم، فإن شئت أقمتنا من مرابطين، وإن شئت وجهتنا إلى عدوك من المشركين»<sup>٤٦</sup>.

صنع أحمد علي: الفتوحات، ص 324-326.

أحمد فتوح الشام، ص 42.



لاحظ كيف غاب عن هذا العرض أي مضمون ديني عن الخلفية والبريد الصريحة، فالفتوحات هنا فرص لرفع الجوع وإملاك الغير.

بل إن أحدهم، وهو قيس بن هيرة، تمادى به الخيال واستبدت به الرغبة حتى خرج عن طوره، فقد اعترض على قرار أبي عبيدة بن الجراح الانسحاب الشام بعد فتحها بغية تجميع القوات الإسلامية تحضيراً للمعركة الكبرى.

«تدعون هذه العيون المتضجرة، والأنهار المطردة، والزروع، والأعاب والخمر، والذهب، والفضة، والحريز، وترجعون إلى أكل الضباب، والبرص، والبلوس والشقاء»<sup>(1)</sup>، يجب علينا أن لا ننسى أن هذا التأثير والتحرش جاء على خلفية الانسحاب بغية تجميع القوة تحضيراً لمعركة فاصلة.

ولم يكتفِ ابن هيرة، على ما نقلته الرواية، بما تقدم، بل أعلن موقفاً مبغضاً نعاتت فيه بساتين وأنهار وثروات بلاد الشام بالجنة الموعودة في قوله «وترجعون أن تبتلوا بدخل الجنة ويصيب نعيماً... فأين تدعون الجنة وتهربون منها، وترهبون فيها وتأتون القرحة والحجر؟ لا صاحب الله من سار إليها ولا حفظ»<sup>(2)</sup>.

هذا نوع من الاغراءات التي واجهها العرب والمسلمون في بلاد الشام، وهو كما نرى من الوضوح والظهور ما يبعث على التفكير في أصل العصر الروحي الديني لدى شرائع واسعة من القبائل المشغولة بتأمين حاجاتها الأساسية.

لكن الصورة العامة لم تكن مادية إلى هذا الحد، فهذا موقف آخر لأحد كبار مساعدي ابن الجراح، وهو مبصرة بن مسروق، في المسألة عبيداً أكثر نوراً... بل يطوي على سبب عالية من التجرؤ والراعة، بالإضافة إلى الحرية بالميدان الحربي، لا سيما في هذه اللحظة الدقيقة من التحضير للتحدي القادم:

«لنا بأصحاب القلاع، ولا الحصون، ولا المدائن، وإننا نحن أصحاب الش...

(1) الأدي: تاريخ فتح الشام، ص 171.

(2) المصدر نفسه.

والبلد الفقر، فأخرجنا من بلاد الروم ومدائننا وحصونها وقلاعها إلى بلادنا، وإلى بلاد من بلادهم تشبه بلادنا...»<sup>(1)</sup>.

إن قيمة هذا الموقف تتجاوز في أهميتها البعد الشخصي لاس مسروق إلى البعد الجماعي، وإلى القيم العربية التي كانت لا تزال نافذة في وعي وخيارات هذه القبائل والجموع الغفيرة وهي تنجز عملية انتقال أو ارتحال واسعة في بلاد الشام.

من المناسب، هنا، أن نعيد الكلام عن أثر المكان ومشآئيه في تشكيل ذهنية العرب، والذهب، والفضة، والحريز، وترجعون إلى أكل الضباب، والبرص، والبلوس والشقاء»<sup>(2)</sup>، يجب علينا أن لا ننسى أن هذا التأثير والتحرش جاء على خلفية الانسحاب بغية تجميع القوة تحضيراً لمعركة فاصلة.

ولم يكتفِ ابن هيرة، على ما نقلته الرواية، بما تقدم، بل أعلن موقفاً مبغضاً نعاتت فيه بساتين وأنهار وثروات بلاد الشام بالجنة الموعودة في قوله «وترجعون أن تبتلوا بدخل الجنة ويصيب نعيماً... فأين تدعون الجنة وتهربون منها، وترهبون فيها وتأتون القرحة والحجر؟ لا صاحب الله من سار إليها ولا حفظ»<sup>(3)</sup>.

المسيحية وبلاد الشام.

نوفقنا في هذه الدراسة عند ظاهرة محدودة إنتشار اليهودية والنصرانية في شبه جزيرة العرب، وحللنا العلاقة بين منظومة المكان ومضمون كل من الديانتين، وما نحن الآن نأمل في هذا التنوع الملحوظ لمذاهب النصرانية في بلاد الشام التي لم يتسنّ للعديد منها أن يكون على توافق مذهبي مع العاصمة السططية<sup>(4)</sup>، فقد لاحظنا الأريوسية ثم اليعقوبية، كما لاحظنا المارونية لاحقاً، وليس من المعاد في التاريخ أن دولة محمد الأمير الطورية الرومية تمتد سيطرتها على معظم أنحاء البحر المتوسط لقرون قبل اعتناق المسيحية، وقرون سائلة بعد الاعتناق تقريباً، ومع كل هذه الهالة والعظمة في القسم الشرقي من شامها في ييظة بعد أقول نجم القسم الغربي في روما، نقول مع كل هذا

عصر ساساني، ص 157.

صاح أحمد علي: الفتوحات الإسلامية ص 41.

التراث والحضور المباشر فإن ذلك لم يُفَضَّ - على ما يبدو - إلى إنخراط بلاد الشام فعلياً في العقيدة البيزنطية، ولا حتى الثقافة الرومانية، لقد احتفظت بلاد الشام المسيحية بمستوى واضح من الاستقلالية والأصالة الدينية، وهذا يمكن ربطه بأمرين رئيسين: الأول يتعلق بمكان ظهور المسيحية، حيث المصطفى والحقيقة المشهودة، وأهل المكان شهوداً حقيقيون، وبعبارة أخرى هم أولى من غيرهم بهذه الحقيقة، بحكم مجاورتهم وقربهم وتماثلهم مع وقائعها وآثارها. فالمكان هنا يميز ويمنع وضعية مختلفة تمسك بها الشاميون وواجهوا دونها.

والأمر الثاني يزيد في طقة الأول ويتكامل معه، فهذه المنطقة الوسطى من الشرق لها ثقافتها وتاريخها، لها منظومتها الطبيعية التي انعكست أنماطاً من العيش الخاص والتفكير الخاص لا يمكن أن تتفاعل بإيجابية مطلقة مع القادم من الشمال أو الشمال الغربي، إلا بشروطها وبمنطقها، وهذا ما لم تتسكن من تأييده الدولة الرومانية في القسطنطينية. لقد كان الإيمان بالمسيحية الواحدة والطبيعة الواحدة للمسيح عقيدة نسبة كبيرة من الشاميين في مقابل الإبداع بالمسيحيين والطبيعيين للمسيح عقيدة الدولة البيزنطية، لقد مضى النزاع حول هاتين الموقفتين إلى أبعد الحدود، وسلك العديد من الطرق والدروب، ومن الصعب فهم هذا الخلاف والاختلاف بعيداً عن أنماط العيش والتفكير التي كانت تتحكم بذهن الإقليميين الساخنين في الشمال والوسط العربي الإسلامي هذه الأنماط التي تنتج معانيها ومقاييسها ومصطلحاتها التي قد لا تتفق مع المعايير والمقاييس والمصطلحات المعتمدة عند الآخر، وسببنا الأسف في آسيا الصغرى يحتفظ حصونه عن الأسقف في بلاد الشام، لا سيما في تلك القرون التي شكلت فيها المسافات البعيدة فواصل حقيقية بحيث يمكن الحديث عن عوالم مختلفة في الجهات الواحدة من الكرة الأرضية، فكيف الحال مع تعدد الجهات وتعدد الأقاليم.

هذا الكلام لا يعني بالتأكيد حصر هذا التنوع في هذا العصر المكاني، بل

وكما تعودنا في هذه الدراسة، ليس سوى تظهير لما يمكن تسميته بالعنصر النافذ في هذه القضية، كذلك لا يعني حصر وجود الحقيقة الدينية في مكان ظهورها، أو حتى استمرار التباين الجوهري بين الأقاليم الجغرافية، إنما هي تفسيرات لغواهر عبرت كان للمكان أثر ملحوظ في نشونها خلال ذلك الزمن.

### - معركة اليرموك: وقائع ودلالات مكانية

تعتبر معركة اليرموك معركة بلاد الشام قاطبة، حيث طالت نتائجها كل هذه المنطقة بالرغم من كونها وقعت في الطرف الجنوبي منها، فكيف كان المكان وكيف كانت الجغرافيا في هذا الحدث المبرور؟<sup>(1)</sup>

المعطيات العامة تشير إلى عدد ضخم من الروم نحو أربعمئة ألف رجل قدموا من مناطق عديدة في الشمال، وقد شارك أهل الجزيرة وأهل أرمينية إلى جانب الروم بأعداد ملحوظة. الإجراء الإسلامي الأول عقب سماعهم هذا الحدث «أن يتنحروا إلى أرض من أرض الشام، ثم انضم إلينا أطرافنا وقواصينا، ونكون بذلك المكان جماعتنا»<sup>(2)</sup>. إذن الإجراء الأول ذو طبيعة ميدانية جغرافية: المباشرة لتحديد المكان المناسب، مكان تلاقي مكان الاجتماع، ثم من مكان المعركة. ومن الواضح أن حسم المكان جاءه على إمكانية تحقيق الإحتصاف بسهولة وأسرع وأبسط طريقة من جهة، وأقرب نقطة مأسسة للحصون على بعد المطلوب والذي كان في معظمه قائماً على العصر الشري من جهة أخرى.

لقد أشار ابن مسروق، عبارة لا يس فيها، إلى عراة القلاع والحصون والمدائن عن البيئة العربية التي كانت لا تزال تعمل وفق التواضيس الطبيعية أكثر من أي شيء آخر، وأن هذا النمط من المثلث العسكرية والميدانية يحتاج إلى بيئة مختلفة عن تجارب وحيرات شبه جزيرة العرب. فالعرب «أصبحت الشرب واللد القفر» هذه هي الحقيقة وهذا هو الواقع إنها البدنة سبعة إلى الأصوب

(1) لأبي: فتح الشام، ص 180، الواقدي: فتح الشام، ج 1، ص 142-144.

والمظنمة النافذة بكل تقاليدھا وأعرافھا، وحتى حيلھا وخدعھا العسكرية كمسرى. تجدر الإشارة هنا إلى أن ابن مسروق كان في صدد إبداء رأيه في طريق المواجهة الفاصلة مع الروم، عشية معركة اليرموك، فقد طلب إستبدال المسلمين والمكان بسريح ومكان تشبه بلادنا على حد تعبيره.

ثمة لغة وتجربة ولغة وحوار متبادل بين الإنسان والمكان بما يؤمن الحرج الممكن من التكامُل والتناسق، هذا ما تعنيه بالنسبة لنا كلمات مسيرة بن مسروق، وهذا ما كان يريدُه هو على الأرجح.

لقد وقعت معركة اليرموك، حيث كان يريدُها الطرفان، - على ما يبدو - وكان رأي ابن مسروق راجعاً بهذا المعنى، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه كيف تسرُّ لهذه الواقعة الفاصلة أن تحدث على أرض قريبة إلى هذا الحد من شبه جزيرة العرب، بل على تخومها الشمالية فعلاً؟؟ وإذا كانت جيوش الروم مستفيدة في المبدأ من موقع المعركة، المكان الذي سيتأثر كل محيطه فوراً بأية هزيمة يمكن أن تقع، فماذا عن موقف العرب المسلمين؟؟.

إن التحصينات والإستعدادات وشتى القرارات التي اتخذها القادة المسلمون، عشية هذا اللقاء الحربي الحاسم، توحي بأن مكان معركة اليرموك كان بفعل إرادة عربية إسلامية توافق عليها قادة الفتح، وقد تم إنجازها بعد الإنسحاب من العديد من المدن والتواحي في الداخل الشامي، بما يشبه الجزر بعد المدّ، لم يقو على إستيعابه وهضمه العديد من المشاركين في الفتح، نعم، لقد جرى تنفيذ عملية استدراج واسعة جداً إلى الجنوب، وبطريقة تشبه الظهور، بل ربّما بالعودة نهائياً إلى المكان السابق، بالإضافة إلى ذلك فإن المدقق بالمداولات السبع لمعلبة الحزم هذه لا يتوقع أن تكون نتيجتها بهذا القدر من الأهمية.

نعم كانت اليرموك في عقر المكان العربي الإسلامي، وهذا موقف دفاعي من حيث الشكل، ومثير للإحباط بعد سلسلة من الفتوحات بالنسبة للمسلمين، لكن ما حدث تجاوز الشكل وانقلب الموقف رأساً على عقب، وما كان في عقر

المكان تحول إلى مكان جديد بين الضلوع، أما الجيوش القادمة من الشمال فلا يجد أنها كانت تملك من قوة الإرادة ما ساعدها على تحقيق النصر، فوُعت في شب الهزيمة وانهار كل شيء.

الخطوة الأولى كانت ميدانية فعلاً، وقد تم وصفها بالخروج من الشاء<sup>(١)</sup>. وذلك بعد هذا الانسحاب الواسع، حيث جرى فتح العديد من المدن والأصوار، وثمة من كان له رأي آخر يميل نحو البقاء في هذه المنطقة والمواجهة فيها، وقد جرح خالد بن الوليد على رأس أصحاب هذا الرأي، لكن الأكثرية رجحت الرأي الأول.

المصادر المتوافرة لدينا لم تتوغل في خصوصية هذه البقعة التي تُسمى اليرموك، باستثناء أنها «أرض واسعة لمجال الخيل»<sup>(٢)</sup>، وأنها المكان المقابل لمركز المسلمين الذين جعلوا أذرعاً خلف ظهورهم ليكون المدد قريباً منهم، لكن ثمة ناحية في هذا المكان وصفها الأزدي بأنها «مكان مشرف على لوبة (أودية منخفضة) تحتهم»<sup>(٣)</sup>، أما الواقدي فأشار إلى أنها «وادي عظيم مطروء ماء»<sup>(٤)</sup>، وبينما سماها الأزدي بـ «الواقصة»<sup>(٥)</sup>، أطلق عليها الواقدي بـ «الناقص»<sup>(٦)</sup>. التأمّل في مسار المعركة يدرك أنه في مكان «الواقصة» أو «الناقص» جرت خواتيم المعركة، أو على الأقل هكذا بدت في المصادر، وأن مدد اليرموك لم يرق تأثيره إلى ما وصلت إليه هذه السحابة أو الوادي الغامض

وغيره

أردني: فتح الشام

أردني: فتح الشام، ج ١، ص ١٨١

(١) الأزدي: المصدر السابق ص 23٠.

(٢) الواقدي: المصدر السابق ص 212.

أردني: المصدر السابق

أردني: المصدر السابق



رواية الواقدي تفيد بأن أحد قواد الروم تعمّد النزول إلى جانب هذا الوادي الكبير في إطار مكيده للعرب، حيث جعله في وسط المسافة بين الفريقين، كما أن الرواية تختص بأنه «لم يعلم أحد من الروم ما عمقها»<sup>(1)</sup>، أما الأزدي فلم يشر إلى أي علم سبق بهذا الوادي من أي طرف، وأن الروم بدأوا «يتساقطون فيها»<sup>(2)</sup> ويصرون... فأخذ لا يعلم آخرهم ما يلقى أولهم... حتى سقط فيها نحو من مائة ألف رجل، ما أحصوا إلا بالقصب»<sup>(3)</sup>، وقد اتفق الواقدي مع الأزدي في تحديد عدد القتلى بالواقصة أو الناقصة بزهة مائة ألف<sup>(4)</sup>.

وما ساعد على حدوث هذه المجزرة الرهيبة أنها تمت في يوم شهد صيفاً، وأن أكثر حالات الوقوع جرت في غلام الليل.

إننا أمام معركة لا نظير لها في التاريخ الإسلامي، حتى ذلك الحين عن الأفل. من حيث الأعداد الضخمة للمشاركين فيها، فقد أشار الواقدي إلى عدد المسلمين كان قرابة الأربعين ألفاً<sup>(5)</sup>، كان التفاوت بين الطرفين هائلاً، ولكن وقوع المعركة كانت مختصرة، أو هكذا أوحى المصادر المتوافقة، والمثير أنه لم يجر تسليط الضوء على العوامل المؤثرة بشكل مباشر، إلا فيما يتعلق بموقع ميدان المعركة، ثم الوادي الذي شهد مجزرة غير مسبوقة بلغ عدد قتلاها زهاء مئة ألف من الجيش الرومي كما أسلف، لا يريد الدخول في دقة الأعداد، لكن من الواضح أنها كانت ضحية وضعت حداً لهذه المعركة، وبالتالي أسفرت عن هزيمة واضحة وفاصلة في صفوف الجيش الرومي.

في اليرموك، حسب الواقدي والأزدي، غاب الحديث نسياً عن الخطط والإستعراضات وتفاصيل المواجهات العسكرية، كما غابت مشاهد الشجاعة

(1) الواقدي: فتح الشام، ص 212.

(2) المصدر نفسه، ص 231.

(3) الواقدي: فتح الشام، ص 231.

(4) المصدر نفسه، ص 201.

الشجاعة والتضحيات العظيمة، ولم نثر على إشارات مؤثرة تربط بالمعنويات العالية هنا أو المتدنية هناك، ثقة بقعة شديدة الانحدار، وعبدة الفقر، سكنت المشهد المربع والأخير في أكثر معارك التاريخ الإسلامي أثراً، إن لم يكن أكثره على الإطلاق.

والسؤال المركزي هنا هل يمكن مجازاة المصادر في إقرار هذا المشهد كنقطة تحول وحيدة في هذه المعركة الضخمة؟ ألا يمكن اعتبار ذلك من قبيل الجبال العربي الذي ما انفك يرسم النهايات على طريقة القصائد والمفولات؟

نسأفي صدد تقييم كل ما يمت بصلة إلى هذه المعركة، بل لسنا في صدد إعادة النظر بتاريخ هذه المعركة بشكل عام، ما يهتفنا في هذه الدراسة أن المصدر أولت الحجاب الميداني هذا المستوى من الإهتمام، وبالرغم من ضخمة المعطيات وبيته إلى المبالغة، إلا أننا لا نستطيع تجاهل الحد الأدنى الممكن في مثل هذه المواقف، هذا الحد الأدنى يكفي بالنسبة لهذه الدراسة لتعوير منظر الأثر حكايي الملحوظ في هذا التاريخ.

ومن الأمور ذات المنحى الطبيعي المؤثر في هذه المعركة ما أورده الأزدي عن مجموعة من مساعدي أبي عبيدة بن الجراح في توقيت بدء المعركة، حيث ورد «إن هؤلاء (الروم) قد زحفوا إلينا في مثل هذا اليوم المطير، وإن لا يرى نرحل إليهم فيه، إلا أن بأنونا حتى يلطوا بعسكرنا أو يضطربوا إلى ذلك»<sup>(1)</sup>، بر اللات في هذه المعركة إستثمار العرب لعنصرى الميدان والصح هذا شك. أو على الأقل تنفادي آثارهما السلبية، ذلك أن ما حدث في «الواقصة» أو «الناقصة» لا يمكن فهمه من دون إرادة ودور بشريين، إن هذا الهروب أو إسحاب في صفوف الجيش الرومي، وبالطريقة التي تم فيها، جاء تحت ضغط معين مارسه الطرف المقابل، معتمداً على حيلة المباغتة والمفاجأة، وما سلكه على الدوام عنصر إضعاف أو تهديد للجيش العربي الإسلامي (المنامخ)

تحول، بفعل تحديد المكان والزمان، إلى عنصر قوة وما يشبه الفرصة، حين تم ترك الجيش الرومي يعالج معوقات «اليوم المطير»، قبل وقت ملحوظ من بدء المعركة، وبقي الاحتفاظ بالقوة العربية إلى اللحظة التي كانت فيها جيوش الروم قد انقضت كثيراً من طاقاتها، وبالتالي القدرة على توحيد صفوفها وتنسيق حركتها، وسط هذا المحيط البشري الذي لم تُعرف له بداية أو نهاية.

لقد أشار الواقدي في فتوحه إلى وضعية مكانية بالغة الدلالة بقوله:

«وأقام المسلمون باليرموك، وهم مستعدون لقتال عدوهم كأنهم ينتظرون وعداً وعيداً به<sup>(1)</sup>»، هذه الوضعية لا تنطوي فقط على توقعات إيمانية حرس فحسب، بل هي بالإضافة إلى ذلك ناجمة عن تقييم خاص للحيز المكون الذي اختاروه، ما سمح لهم بفترة طويلة من الاستعداد المعنوي والمادي، وهم يرتقبون جحافل الروم قادمة إليهم وقد أنهكها المسير، وشئت بعضها على الطريق وتزاحم المشاركين، وابتعدت عن مركز سلطتها وإمداده المباشر. العرب المسلمون فقد احتفظوا بالعديد من عناصر قوتهم من خلال اختيرهم لبيدان المعركة، وهذا أمر أسهم، على ما يبدو، في حالة الطمأنينة المذكورة من نص الواقدي

#### - توقيت المعارك

إن أول ما يستوقف في توقيت المعارك الرئيسية في بلاد الشام وقوف معظمها في وسط فصل الصيف<sup>(2)</sup>. وقعت أجنادين أواخر حمادى الأولى سنة 13 هـ، أي أواخر تموز سنة 634م، فتح دمشق في النصف من رجب سنة 14 هـ أي في أوائل أيلول سنة 635م، أما وقعة فحل فقد جرت في أوائل ذي القعدة من السنة الهجرية نفسها، أي 14 هـ، وفي أوائل كانون الثاني عام 636م أي في بداية السنة النبوية.

(1) الواقدي: فتوح الشام، ص 154

(2) الأزدى: فتوح الشام، ص 272

أما معركة اليرموك الواقعة في أوائل شهر رجب سنة 15 هـ أي وسط آب سنة 636م. فمن أصل أربع معارك، ثمة ثلاث وقعت في قلب الصيف، فيما وقعت الرابعة في أوائل الشتاء.

وإذا كانت المبادرة بيد العرب، فإن أجنادين وفتح دمشق جاءتا وفق التوقيت العربي. فيما شكلت فحل استثناء يعبر عن ضرورات ميدانية لم يُقد فيها زمام المبادرة بيد الفاتحين على غرار الأولى والثانية. أما معركة اليرموك فالمعطيات المتوافرة - كما رأينا سابقاً - تشير إلى أن تحديد المكان كان أكثر تأثيراً بالإرادة العربية الإسلامية، وإذا كان أمر المكان على هذا النحو، فالزمان كذلك لآل حركة الإسحاب والاستدراج وإنهاء الاستعدادات العربية الإسلامية كانت قد اتصلت عشية وصول الجحافل البيزنطية، ما يعني أن التوقيت هنا أيضاً يعود للعرب.

وبالرغم من أن توقيت المعارك في الصيف مفيد وملامح للطير، لا سيما فيما يتعلق بعوائق المطر ووحولة الأرض. إلا أن ذلك يبدو أكثر تأثيراً في صفوف العرب المسلمين الذين جاءوا من قلب الصحراء الدافئة والجدة بحدود المعركة على الطريقة العربية في شبه الجزيرة، حركةً وسلاحاً ولباساً.

ويبدو أن تدني الحرارة الملحوظ في بلاد الشام، مقارنةً بشبه جزيرة العرب، كان أكثر العناصر الطبيعية تأثيراً في البيئة العسكرية العربية الإسلامية، وهذا ما لا ينطبق على الجيوش البيزنطية المجهزة والمعتادة على درجات من البرودة تدور معها برودة بلاد الشام غير ملحوظة، وبالتالي غير مؤثرة. ومن المشاهد الباهرة على تأثير العرب بهذا العنصر، ما نقله الواقدي في فتح بعلبك، البلد حصن والمستع به كثرة وجاله، وشدة برده، وذلك أنه لا يزال البرد في الشتاء والصح<sup>(3)</sup>، وأن العرب المسلمين عانوا شدةً بالغة أثناء حصارهم هذا البلد

(1) الواقدي: فتوح الشام، ج 1، ص 119 ومن الإشارات المفيدة ما ذكره المقدسي عن بعلبك في مقام وصفه لإقليم الشام وأشد هذا الإقليم برداً وبعلبك وجولها، ومن أمتلهم قبل للبرد أن تملك قال: «... قال فإن لم نجدك قال بعلبك يتي». المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص 193.

«وَمَا لَهُمْ هَمٌّ إِلَى الطَّعَامِ وَلَا الشَّرَابِ، وَلَا يُرِيدُ أَحَدٌ مِنَّا إِلَّا الاصْطِلَاءَ بِالْمَاءِ شِدَّةَ الْبَرْدِ»<sup>(1)</sup>.

وهذا الأمر، أي تأثر العرب المسلمين بالبرد والمطر إلتفت إليه الروم في بيت المقدس، وحسبوا أن المسلمين لا يقدرّون عليهم في ذلك الوقت من أيام الشتاء والبرد. وصبر النصر عند الواقدي أتى من صبر المسلمين على البرد والثلج والمطر<sup>(2)</sup>، وليس من صبرهم على حصار هذه المدينة أربعة أشهر كاملة. وإذا كان مناخ المنطقة عموماً أقرب إلى الاعتدال فإن هذا الفارق الشديد ناشئ بالدرجة الأولى عن المزايا الجسدية للمقاتلين العرب الذين قديموا في مناخ صحراوي حار وجاف في غالب أيام السنة.

وهذا أمرٌ، وإن لم نتحدث عنه المصادر كثيراً، كان له دوره وتأثيره في العديد من قضايا الفتوحات توقيتاً ونتيجةً واستقراراً، وبالتالي شكل واحدة من التحديات الطبيعية التي كان على القاديين من الجنوب الدافئ تجاوزها بأسرع ما يمكن، وهذا ما حدث على الأرجح.

## 2 - فتوح العراق

يظهر المثنى بن حارثة بن سلمة الشيباني في المشهد الأول لفتوحات العراق حيث كان، قبل الإسلام، يغير على السواد<sup>(3)</sup> ومعه مجموعة من قومه، هذا ما دعا أبا بكر للإهتمام به، ومن ثم التجاوب معه في أن يكون قائداً على من أسلم من

(1) الواقدي، المصدر السابق، ص 121.

(2) الواقدي، المصدر نفسه ص 224.

(3) الواقدي، المصدر نفسه، ص 224.

(4) السواد: سبيل العراق وصياغته التي أصبحت المستعمل على عهد عمر بن الخطاب، هي بذلك لسواده بالزروع والتخيل والأشجار، لأنه حيث تلتصق جزيرة العرب بالسواحل لا راح فيها شجر كثيف إلا ما هو من أرضهم ظهرت لهم حصة الزروع والأشجار فسموها بالسواد الحميمي، يقولون من عدائهم: معكم السواد، سبعة أمراء دار صنعة، الطبقة الثامنة، يروى عن محمد بن 222.

فومي<sup>(1)</sup> وفق ما ورد في طلبه. لا تذكر الرواية تاريخاً لدخول المثنى الفعلي في الإسلام، لكن على ما يظهر من تفاعل الأحداث، فقد كان قريباً من بداية عهد أبي بكر الصديق، أما إسلام قومه فقد تزامن مع مهمته التي تلت إسلامه مباشرة «ودعا قومه إلى الإسلام فأسلموا»<sup>(2)</sup>. إلى هذا الحد ينتهي المشهد، من دون تطورات يمكن التوقف عندها.

المشهد الثاني يظهر في بداية خلافة عمر بن الخطاب، حيث «دخل أبو عبد الله عمرو... إلى العراق في ألف... فأقل أبو عبيد لا يمر بقوم من العرب إلا رغبهم في الجهاد والغنمة فصحبهم خلق»<sup>(3)</sup>. لقد جرى تحييد المثنى في عهد عمر بن الخطاب، بالرغم من إستعماله من قبل الخليفة الأول، وهذه نقطة تحمل دلالة يمكن العودة إليها لاحقاً.

## - معركة الجسر

شكل يوم الجسر، أو معركة الجسر، أول التهام جدي بين المسلمين بقيادة أبي عبد الله والفرس، وذلك في شهر رمضان من السنة الثالثة عشرة للهجرة، وتسمية الجسر تعود إلى المعبر الذي كان يصل الضفة الشرقية لنهر الفرات، حيث كان يعرف الفارسي، بالضفة الغربية، حيث كان الطرف الإسلامي، ويبدو أن هذا المكان غير محدد بشكل واضح، حيث اكتفى صاحب «معجم البلدان» بعبارة «رب الحيرة»، وقد حاول المؤرخ العلي ترجيح هذا المكان «في الأطراف الجنوبية من بابل وبالقرب من بانيقيا»<sup>(4)</sup>، ومع ذلك فالمناطق العامة معروفة ويمكن حوز هذا التفصيل. لقد انتهت هذه المعركة بنتيجة قاسية جداً على المسلمين،

الآلاني، فتوح البلدان، ص 238.

المصدر نفسه.

المصدر نفسه، ص 247.

علي بن حجر، ص 47.



حيث أفادت المصادر عن وقوع زهاء «أربعة آلاف... بين غريق وقيل»<sup>(1)</sup>، وهو رقم، على الرغم من إمكانية المبالغة به، لم يكن له نظير في كل العمليات الحربية التي خاضها المسلمون حتى تاريخه<sup>(2)</sup>.

المشهد، كما هو واضح، محيط ولا يتنجم مع السياق العام للفتح، لا سيما في هذه الجهة، والسؤال الذي يطرح نفسه في هذه الدراسة أين تكمن أسرار هذه النتيجة الصادمة وغير المسبوقة للعرب المسلمين؟

ثمة تفاصيل عديدة يمكن إيرادها حسب تناقلها في المصادر، فقد كان قرار أبي عبيد العبور إلى الضفة الشرقية، قاطعاً الجسر الذي سميت المعركة به، ينطوي على اختيار لمكان المعركة هو مكان تواجد العدو، وثمة من أشار على أبي عبيد بعدم العبور، لكن أبا عبيد لم يتجاوب<sup>(3)</sup>. التفصيل الثاني يتعلق باستخدام الفرس الخفيفة في المعركة، وهو أمر لم يألفه العرب المسلمين في حروبهم، وقد كان لذلك دور مؤثر في هذه المعركة، حيث أن قائد المسلمين تزل بسب عراكه المباشر مع إحدى الفيلة، وقد توالى على القيادة أخوه، ثم ابنه قبل مقتلهما، ما دفع بالمشق من حارته إلى قيادة ما تبقى من المسلمين والنجاة به.

لقد كان اختيار مكان المعركة لجهة تواجد العدو بكل طاقته وأسلحته، لجهة موقعه، حيث يتطلب عبوراً عسيراً، ينطوي على تهديدات متنوعة، إن هذا الاختيار شكل عنصراً حاسماً في ترجيح موازين المعركة لصالح الفرس.

لقد وصل المسلمون إلى الضفة الشرقية بطريقة غير مألوفة لديهم، حيث أن هذا النوع من التحرك والانتقال يستلزم أصولاً ومهارات وأدوات تكاد تكون مفقودة لدى العرب المسلمين. ولدى وصولهم، بهذه الطريقة وبهذه الطاقة المستنفدة، باغتهم الفرس بأعدادهم التي تجاوزت الأربعة آلاف مقاتل، وباستخدام الفيلة،

(1) الطبري: تاريخ الأمم، ج 3، ص 499... السعدي: مروج الذهب، ج 2، ص 366.

(2) العمري: معجم البلدان، ج 2، ص 140.

(3) البلاذري: المصدر السابق.

ما جعلهم محاصرين بين الماء والعدو، لقد كان منزلهم حسب الطبري «منزل محتلهم والمذهب»<sup>(1)</sup> محدداً بشكل أفقد سلاح الخيالة دوره، ولم بعد ثمة من المفرد والمذهب في المناورة والمباغة<sup>(2)</sup>، ومن المؤشرات السلبية أن مواش كافية للمسلمين في المعركة، ما جعل دوره محدوداً للغاية<sup>(3)</sup>. أما القدرة على الانسحاب، فضلاً عن الحصول على الإمدادات، فقد كانت صعبة وضعيفة على الحد الذي جعل الهزيمة محتومة إلى هذه الدرجة.

يمكن القول إن المكان كان مقلداً، والحضور فيه شبيه بالوقوع في الفخ. يمكن للجيش في الأماكن المفتوحة إذا ما أحس بالضعف والعجز أن ينفذ خطة بسحاب يجري تغطيتها، وبالتالي يمكن التقليل من الخسائر الشربة بشكل كبير جداً، لكن ما حدث في هذه المعركة يخالف أبسط قواعد الإحباط العسكري، فقد إرتبط مصير كل المقاتلين الذين عبروا إلى الضفة الشرقية بجسر لم يكلف أحد بحياته أو رعايته وضمان بقائه، حتى إذا ما سقط هذا الجسر، أو أزيل من مكانه، وقد تمت إزالته فعلاً من قبل عملاء للفرس، اشتد الخناق على العابرين وتعدت الخيارات أمامهم بصورة شبه كلية.

وما زاد الطين بلة، أن المقاتلين العرب لم يتقنوا فنون السباحة - على ما يبدو - فقد شكل العبور على الماء سباحةً تجدياً لم يقرّ عليه أكثرهم، فكانت الحصيلة أعداداً كبيرة من القتلى والفرق<sup>(4)</sup>، يمكن القول أنهم كانوا ضحايا للمكونات والظواهر الطبيعية للمكان. وإذا ما بدا لنا أن الأساس يكمن في الإنسان الذي اختار المكان، فلنا أن نقول إنه في هذه المعركة خضع الجميع لمنطق المكان

(1) الطبري: تاريخ الأمم، ج 3، ص 454.

(2) صالح أحمد العلي، الفتوحات، ص 88.

(3) الواقدي: فتح الشام، ج 2، ص 1175 بالمعقري: التاريخ، ج 2، ص 142.

(4) نقل السعدي أنه «مات في الفرات أكثر ممن قتل بالسيف...» السعدي: مروج الذهب، ج 2، ص 365.

الذي تحكّم فعلاً بما جرى، وإذا كان الإنسان قد إختار المكان فقد إختار بحياته ومنطقه، ولم يحل هذا الإختيار دون مزاولة هذا المكان تأثيره وتقرّنه الجسم، كما لاحظنا.

لقد كان العرب المسلمون في يوم الجسر يقاتلون على غير طريقتهم ويأرضون تختلف عن أرضهم، لقد كانوا مضطرين لمعاركة حيوانات غير مألوفة أو معروضة لديهم، وكان خيلهم، حيوانات الأساسي في الحروب، مدفوعاً للوقوف في وجه الفيل، وهذا أمر مخالف لطبيعته وجزئته، لقد نفر إنسان العرب وحيوانه من هذا الحيوان الخطير والبالغ الضخامة على السواء<sup>(1)</sup>.

كذلك كان العرب بحاجة ماسة لمهارة لم تدخل في عداد مهاراتهم وأنشطتهم العادية أو الحرية مهارة السباحة، وإن الماء الذي كان عليهم خوضه في الفرات لم يعتادوا على حجمه ومساحته وعمقه، إن هذا الماء الذي لطالما كان هدفاً في جلهم وترحالهم، وحاجة دائمة في حياتهم، ها هو اليوم في معركة الجسر يتحوّل إلى سبب من أسباب موتهم. بعد أن كان سبباً دائماً من أسباب حياتهم وحركتهم لا ندري كيف تسبّب لهؤلاء الخروج من صورة الماء السابقة في أذهانهم وأحسبهم إلى الصورة الراهنة، وهل نماعت الصورتان في خيال المقابلين العرب فطنوا أن سر الحياة هي الأولى لا يمكن أن ينتهي سر الموت لدى الثانية. فكانت لحظة الفرق تجربة وجودية بين السرّين ارتوت فيها أجسادهم وملاهم وأسلحتهم التي لطالما أعتابها العلماء، وجففتها الرياح الحارقة، وعظّلت مفاعيلها الرمال المتناثرة في الهواء.

نعم لم تكن التجربة الجديدة مع الماء بصورته الثانية قد اكتملت، وأعد العن أن قسماً كبيراً من الأطمئنان الذي عاشه العرب مع مياه الفرات بعد عبورهم الجسر يعود إلى الطابع الحيويني لهذه المادة، الغالية والرائحة والطيبة في خيالهم وغفوتهم. لقد رمى هؤلاء أنفسهم في الماء طأ منهم. وللمرة الأخيرة، أن هذه

(1) أبو زيد البلخي: البلد والتاريخ، ج 2، ص 200 و 201

الماء مقرونة بالحياة وسبب من أسبابها في كل الأحوال.

كان من المقدّر أن تكون الخسارة أكبر بكثير لولا تدخل المثنى بن حارثة شيباني في اللحظة الأخيرة، وبالتالي قيادته لعملية الانسحاب بمن بقي من المسلمين، من دون أن ينجو، هو نفسه مع مساعدين له، من بعض الإصابات والجروح<sup>(2)</sup> بفعل صعوبة الموقف وخطورته.

ودلالة نجاح المثنى هنا تؤكد دور الخبرة بالمكان وقابليته وتحدياته، وبأنه في تناسق مع منطقته ونفوذته، وهو الذي ما انفك قبل الإسلام يوالي هجماته على شعوب الدولة الساسانية فأدرك طبيعتها وطريقتها، كما أدرك السيل الماسة في مواجهة ذلك، من هنا فإن تدخله كان تدخل العارف والمتمرس والمعتاد على مواجهة ظروف ومكونات جغرافيا هذه المنطقة.

لا نعرف بالتحديد أسباب إستيعاده عن قيادة أول حملة عسكرية من نوعها ضد الفرس، وهو من هو في قتال الفرس والمداومة على مهاجمة أطرافهم، لكن يبادرته في معركة الجسر ألقت بعض الضوء على الشروط التي ينبغي توافرها في القائد العسكري، لا سيما لمجهة الظروف والقابليات المكانية.

إن سر الهزيمة في معركة الجسر يتجلى أكثر في المعركة التالية بين الفريقين، حيث حشد الساسانيون «عشرة آلاف من فارس من الأساورة»<sup>(3)</sup>، وتمركزوا في شطآن بانتظار جولة ثانية على غرار الأولى، وهو ما تبيّن له القائد الجديد حرب المسلمين جرير بن عبدالله الجعفي عندما رفض إشارة أحد مساعديه: «أمر الدجلة إلى المدائن»، فقال جرير: ليس ذلك بالرأي، وقد مضى لكم في ذلك عبره بمن قتل من إخوانكم يوم الجسر»<sup>(4)</sup>، الأمر الذي دفع بالفرس بعد هزيمتهم ذلك إلى تغيير الخطة، وبالتالي العبور إلى الضفة المقابلة فلما

(1) الطبري: تاريخ الأمم، ج 3، ص 455.

(2) لسعدي: مروج الذهب، ج 2، ص 368

(3) المصدر نفسه

عبر منهم النصف، أو نحوه، حمل عليهم جرير.. ففتوا ساعة، فقتل العرب وأخذهم السيف، وغرق أكثرهم في دجلة، وأخذ المسلمون... عسكرهم. إنه العبور نحو الهزيمة وقع به العرب أولاً ثم الفرس، لكان النهر حُدس لا يمكن تجاوزه، إلا بكلفة كبيرة تدفعها القوة العابرة من صميم رصيدها، على درجة من الضعف تقربها من الهزيمة، لا سيما إذا اشتد القتال في عملية العبور، وما يعني ذلك من الإضطراب للمواجهة بنصف القوة التي تربط وحالها حال من لم يستقر على أرض صلبة، وقد فرضت عليه المواجهة من إن حجم الخسارة التي تكبدها العرب في معركة الجسر تتجلى أيضاً بمقارنتها مع خسارة الفرس الذين أخذوا بالسيف، وغرق أكثرهم، ولم المسلمون على ما كان من عسكرهم، ذلك أن المكان مألوفٌ عندهم، وهذا من الانتقال ليس جديداً عليهم، كذلك أدواته وقواعده، فإذا كان الأمر كذلك وأدى بهم العبور إلى ما أدى إليه من خسائر فكيف الحال بالعرب المسلمين. أما الطاقة المعنوية والحماس الديني فينبغي النظر إليه في حدود ما تسمح طابع الأشياء، وخصائص المكان والموقع تصل في كثير من الأحيان إلى المستوى الحاسم من النفوذ.

### - واقعة مهران

مرة جديدة يتابع الفرس المعركة بقيادة قائدهم الجديد مهران بعد انتصار المسلمين واجتماع القائدين المشي بن حارثة وجرير بمحلة البجلة، ومرة يتبع المسلمون من العبور، إلا أن القائد الفارسي الجديد كان لديه من الإمكانيات ما دفعه للعبور الثاني بعد عبور المرزبان «وبغى على المسلمين فالتقوا وصبر الفريقان جميعاً حتى قُتل مهران»<sup>(1)</sup>، ما أدى إلى مشاعر

(1) المصدر السابق، ص 269.

(2) السعدي: مروج الذهب ج 2 ص 368.

وقلق عظيمين عند الفرس، الأمر الذي دفع القيادة العليا إلى تشكيل حملة عسكرية جديدة بقيادة شيرزاد المكنى بيوران، ويبدو أن هذه الحملة فاقت قدرات المسلمين على المواجهة، «فتحى المسلمون لشأ بلغهم سيره، فلبق جرير بكاطعة فنزلها، وسار المشي بقومه من بكر بن وال فتزل سيراف»<sup>(1)</sup>.

لقد كانت كلفة العبور للمرة الثالثة في هذه الجهة مقتل القائد ثم وقوع الهزيمة، هكذا قُتل أبو عبيد بن عمرو العربي، ثم المرزبان ومهران الفارسين، وهكذا وقعت هزيمة الجسر، ثم هزيمتي المرزبان ومهران. أما المعركة الرابعة فلم نلاحظ فيها أية عملية عبور، وكانت نتيجتها تثبيت الحضور الفارسي في المنطقة، فيما قُتل المسلمون التنحي جانباً، ربما تنضج الظروف والإمكانيات.

لقد روى البلاذري واقعة مهران بعد الجسر، فذكر أن عدد الجيش الفارسي بقيادة مهران بلغ إثني عشر ألفاً بزيادة ألفين عما ذكره السعدي، كما أشار إلى موضع البويب حيث قتل مهران، وأن جنيتي هذا الموضع «أفعمت عظاماً حتى استوى»<sup>(2)</sup>، في إشارة إلى حجم القتل من الفرس في هذه البقعة، ويُستفاد من هذه الرواية أن ميدان المعركة كان محدوداً على شاكلة محدودة المكان في يوم الجسر.

لقد تبدل الدور فعلاً، وبصورة شبه كاملة، بين الجسر ومهران، والمشارك في هذين الحدثين أسماء الأمكنة، وعمليات العبور، وعدد القتلى والغرق، في سياق دقيق لتفاعل الجيشين مع خصائص الأرض والماء بصورة مؤثرة.

### - ما بين العراق والشام

ينضج لدينا بعد هذا الرد والتحليل الاختلاف بين فتوح العراق وفتح الشام، حيث بدت غربة المكان في الأولى طاغية على الأحداث، فيما شكلت الألفة والتفاعل المباشر سمّة طاغية على فتح الشام.

(1) السعدي: المصدر نفسه، ج 2، ص 370.

(2) البلاذري: فتوح البلدان، ص 250.



لقد نجحت هذه الغيرة، بل هذه الرية، بامتناع العديد من القبائل للمشاركة في هذه الجهة منذ البداية، وقد ذكر الطبري أن أول عمل قام به عمر بن الخطاب في البصرة التي توفي فيها أبو بكر نذب الناس إلى أهل فارس، ثم عاد فذهب في وقت يبعث على مدى ثلاثة أيام «فلا يتدب أحد إلى فارس». وكان وجه فارس من أكره الوجوه إليهم، وأثقلها عليهم لشدة سلطانهم، وشوكتهم، وعزيمهم، وقهرهم الأمم»<sup>(1)</sup>.

لم نلاحظ إشارات مناخية باردة في العراق على غرار ما لاحظناه في بلاد الشام، قد يعود ذلك إلى الفارق المناخي لبلاد الشام، لا سيما في الشمال الأقصى بالنسبة لشبه جزيرة العرب، مقارنة بالعراق الذي يشترك مع شبه الجزيرة بكون صحراوي جاف أكثر من المناخ الشامي الأقرب إلى المناخ الساحلي الرطب. كذلك فإن توقيت معركة الجسر في شهر رمضان من السنة الثالثة عشرة للهجرة يعني وقوع هذه العملية في شهر تشرين أول من العام 635 ميلادية، أي في بداية فصل الحريف. وإذا كانت المعركة الثانية والثالثة متفارتين مع الأولى بما يشبه التوالي المباشر، كما يستفاد من الرواية التاريخية التي لم تضع لأي منهما تاريخاً مفصلاً، فلنأخذ أمام معارك ربما لم يتجاوز تاريخ وقوعها وسط الحريف من العام نفسه. وهذا يعني، من جهة ثانية، أن هذا التوقيت يتناسب مع حجم المياه في الأنهار، حيث ينخفض مستواها إلى أقل ما يمكن، قبل أن تستأنف الارتفاع مع فصول الشتاء والربيع والعصف، لا سيما في المناطق الجنوبية منها، وهذه هي أماكن وقوع المعارك على الأرجح كما أسلفنا.

والسؤال الذي يفرض نفسه في هذه الدراسة، إذا كانت التضاريس والفاصل الجغرافية الحادة تحول دون تحقيق الفترات، وقد حالت دون استمرارها في شمال سوريا فعلاً، وقد تمثلت هذه التضاريس بالفاصل الجغرافية الحادة والصعبة، لا سيما المرتفعات الجبلية الشاهقة في جبال طوروس، ألم يكن

(1) الظفر ناريج الأسم والحلوك، ج 1، ص 44

جاءت اعراس في الشرق على الحدود مع بلاد فارس، هذه التضاريس المرتفعة  
والصعبة والصعبة أيضاً، أن تلعب الدور نفسه، ولماذا لم نحل هذه الحال دون  
... على غرار نظيرتها في الشمال ٢٢.

سبباً لا بد من الالتفات إلى أن وجهة الفتوحات في حان طور من شأنه، من مواجهة المزيد من العوامل المناخية المتصاعدة في قوتها، وحداثتها، في هذه الجبال هو برّ بارد وطويل يحتاج إلى أيام عديدة متواصلة لقطعها، مع ضائل القدرة على تحصيل الإمدادات المطلوبة فيه، لا سيما الطعام والشراب، فإن هذه المنطقة يربطها محاذية للشواطئ البحرية، حيث الأسطول البيزنطي يحظ بقدرة عالية وضخمة على التحرك، بما يمكنه من الوصول إلى مناطق جديدة في شمال أفريقيا ومصر، فضلاً عن سائر المدن الساحلية في بلاد الشام وأحبال زاغروس فهي وإن امتدت من الشمال إلى الجنوب، وأن الفتوحات كانت على التوالي القسمين معاً، إلا أن الفتوحات التأسيسية، لا سيما القادسية كانت في منطقة «جنوب غربي العراق»<sup>(١١)</sup>، وهي المنطقة الأقرب إلى إقليم شبه جزيرة العرب المناخي، وهذا ما كان يشدد عليه الخليفة دائماً، وفي هذه المنطقة الحديث عن العرب أول مدينة لهم شُيّت بالكوفة لتكون قاعدة إنطلاق في توحات القبلة. إذن، نحن في العراق في إقليم مناخي أقرب إلى المناخ البري من إقليم مناخ الشمال، كما أشرنا، وقد بدأ هذا الفارق نسبياً من خلال ما يحدث عن البرد، على سبيل المثال لا الحصر، في فتوحات العراق، بينما نشهد حديثاً مطوّداً عن التأثير الشديد بالبرد في العديد من المدن الداخلية من ساحة بلاد الشام، وقد توفى عددٌ من المعسكرات في بعض هذه المدن، كما حدث لبعض المسلمين قريباً من قسارية:

722  
ص. 722  
ص. 722

نقل الواقدي عن أحد المسلمين<sup>(1)</sup> المرافقين لعمر بن العاص حين سار إلى قيسية<sup>(2)</sup>، حيث تم الدخول إلى قرية من قرى الشام «وكان البرد شديداً»، وقد تناول عقوداً من العنقيد المدلاة ما أدى إلى شعوره بالبرد الشديد «من شدة برد ذلك العقود»، بعد ذلك عثر صاحبنا عن نظيرته العامة للبلاد بقوله «وقع الله هؤلاء الملاعين بلدهم بارد، وعينهم بارد، وماؤهم بارد، وأنا أخاف الهلاك من شدة برد بلادهم»<sup>(3)</sup>.

من الواضح لدينا أن هذا التأثير الشديد يعود إلى طبيعة الحياة والمناخ العربي الذي اعتاده العرب أكثر من الطبيعة العامة للحياة والمناخ الشامي بشكل مستقل. علماً أن هذه المنطقة، قيسية وبعبلك، أقرب بكثير إلى المناخ العربي من المناطق الشمالية في طوروس وما بعدها. في أي حال هذه عينة من القسم الجنوبي أو الوسطي من بلاد الشام، فكيف الحال في القسم الشمالي، لا سيما في أشهر البرد الكثيرة

وإذا كان ما بعد طوروس برآ خالياً وقاحلاً فإن ما بعد زاغروس يحرك الدافعية ويشد العزيمة، حيث المدن والبلاد العامرة والغنائم والكنوز الوفيرة. نحن في الشرق كمن يحفر في أرض طرية وطية، كلما ازداد عمقاً ازداد خيراً، أما في الشمال فالمثال معكوس، كلما ازداد عمقاً ازداد صعوبة وجفافاً وبرداً.

من هنا قد يكون رأي المستشرق الإيطالي فرانيسكو كيريلي في كتابه «محمد والفتوحات الإسلامية» بأن دفاعات الدولة البيزنطية «في جبال طوروس، وقوتها السياسية والعسكرية والتنظيمية، تمكنت من إيقاف الانتفاضات العربية

(1) سجع بن ضمرة الحراني الواقدي، فتوح الشام، ج 2، ص 14.

(2) قيسية: «بلد على ساحل بحر الشام، بُدء في أعمال فلسطين، منها طريق طرية ثلاثاً... الحسني، معجم البلدان، المجلد الرابع، ص 421.

(3) الواقدي، فتوح الشام، ج 2، ص 14.

القوي المفاجئ»<sup>(1)</sup> بحاجة إلى نقاش وإعادة تأمل. ذلك وإن كان الوضع السياسي والعسكري والتنظيمي قوياً في الدولة البيزنطية، إلا أن مرحلة الفتوح الأولى، لم تفلح إلى اختبار متانة هذا الوضع، بل لم تعد ثمة معركة فاصلة بين الفريقين بعد اليرموك طيلة هذه المرحلة التي تمتد على مساحة العهد الراشدي. لا يعني هذا الكلام أنه لو قدر لهذه العوامل المكانية أن تكون أضعف مما عليه أن الفتوحات ستعجز سيرتها في هذه المنطقة، فالمقصود هنا أن الأمور لم تصل إلى حدود حذر البنية السياسية والعسكرية والتنظيمية الكاملة بين الطرفين، وعلى فرض سهولة العوامل الجغرافية والمكانية، فإن النتيجة عسيرة على التقدير، ومعقدة حتى الدوافع وتداخلها، وفي كل الأحوال فإن هذا التساؤل يجرح سائر إطار البحث التاريخي.

«بمعنا هو التأكيد على أن طبيعة هذه الجبال، وما وراءها من أراضي جرداء، وقد جاورها على طول القسم العربي من سواحل بحرية شكلت مبدأً دائماً لاسطر البيزنطي، كل ذلك في ظل عوامل مناخية مخالفة ومعاكسة لما اعتاده العرب وتكيفت أجسامهم عليه، هذه العوامل مجتمعة (التضاريس، التربة وسطح الأرض، البحر، المناخ....) هي التي حالت فعلياً دون متابعة الفتوحات، وهذا واقع يختلف - نسبياً - عن ما واجهته الجبهة الشرقية في بلاد فارس

### - معركة القادسية: وقائع ودلالات مكانية

على غرار اليرموك - كما أشرنا - جاءت المعركة الفاصلة لجبهة العراق، مثل ثلثت الأمور لدى الفرس مبلغاً من الشعور بالتهديد الأثني من الغرب والحرب، ويبدو أن ثمة ترتيباً للسلطة داخل الدولة الساسانية مكثها من التوحد، لتتولى حشد الجيوش، الأمر الذي وضع زمام المبادرة بأيديهم بعد فترة عصية من التفتك والتشتت. كذلك خرجت قبائل من النصارى في المنطقة عن عهود نسق قد أمضتها مع المسلمين في أعقاب ظهورهم خلال الفترة الأخيرة، كتب

المثنى بن حارثة إلى عمر بالواقع الجديد، فكان ردّه على الشكل التالي: «نخ إلى البر، وادع من يليك، وأقم منهم قريباً على حدود أرضك وأرضهم، حتى يأتيك أمري»<sup>(1)</sup> لقد كان تحديد المكان: مكان الاستعداد، ومكان المواجهة، ومكان منازلة التهديد، ومكان الظهور والحضور أمام أعين العدو، أول إنجاز في هذه المعركة المقبلة.

فالبر أرض العرب ومدينتهم، وهو المكان المقابل للماء، كما هو المكان المقابل للأرض العامرة أو المزروعة، البر هنا هو «الفقر» و«الأرض الخالية»، وكل ما يتصل بأرض البادية، والإقتراب من المكان المقابل نوع من التحديد المسبق لخريطة المساحة والمسافة الفاصلة بين الطرفين، وإلا فإن إمكانية وقوع المعركة بشكل تلقائي، ومن دون قرار مسبق، تصبح واردة جداً، وهذا لا يصب في مصلحة الفوة الإسلامية الناشئة والمسكونة بشيء من التحشس والحد الشديد. وقوله «حدود أرضك وأرضهم» ترسيمٌ يبلغ لجغرافيا المكان. وهذه الأرض هنا - على ما يبدو - لا تأتي من السيطرة أو الفتح، أو خروج العدو وإخلائه لمساحة ما من الأراضي التي تعود له، ولا حتى من التاريخ وملكيّات الأزمات الغائرة، إن هوية الأرض في هذا النص تكمن - على الأرجح - في مزاياها ومكوّناتها وصوريتها الدائمة ومداها الطبيعي. هويتها في موقعها وشكلها، خبر تراثها ومستوى عمارتها، هذا ما يمكن أن نفهمه من كتاب الخليفة إلى عمر بن حارثة.

ثمّة صيغ أخرى، متزامنة أو لاحقة، تؤكد هذا المعنى، منها ما نُقل عن صه س أمي وقصص القائد الحذيد لهذه الجهة أنه أمر بعض القبائل «أن ينزلوا على حد أرضهم ببر الحزن والسيطة»<sup>(2)</sup> ومنها أيضاً ما نُقل عن الخليفة في كتاب آخر لسمد بأمره فيه بمقاتلة عدوه «على حدود أرضهم على أدنى حجر من...»

(1) الخطيب تاريخ الأمم، ج 1، ص 482.

(2) المصدر نفسه، ج 1، ص 496.

العرب، وأدنى مدّة من أرض العجم»<sup>(3)</sup> كذلك هناك معايير عسكرية أشار إليها الكاتب نفسه تتعلق بالخيارات المتاحة بعد نهاية المعركة، سلباً أم إيجاباً، لجهة السباح أو الهجوم، لكن حتى هذه المعايير غير مجرّدة أو معرّولة عن ظروف المكان وعلاقة كل طرف به، وهذا ما تطرّق إليه الكاتب في ما يتعلق بإحتمال الهزيمة «وإن تكن الأخرى [الهزيمة] قاهوا إلى فئة، ثم يكونوا أعلم بيلهم وأجراً على أرضهم»<sup>(4)</sup>.

إن الخبرة بالمكان مقدمة لشكل من أشكال العلاقة به. هذه العلاقة التي من شأنها أن تولّد معنويات خاصة بالمستقرين فيها، والمتفاعلين مع طبيعتها وخصائصها، إن هذه الأرض تنطوي على إحياءات عديدة في الإحساس بالأمن وسلامة يمكن فهمها وإستيعابها كلما عاد إليها أهلها، منسحين من معركة أو مستعدين لمواجهة، أو حتى قادمين من غربة أو سفر.

ثم ما هي حكاية الحجر والمدّر الواردة في بداية الكتاب، وهل يوفّر حكاية مفصلة ومميّزة إلى هذا الحد، فكل الأرض حجر هنا، وكلها مدر منك. أو على الأقل ما يغلب عليها؟! صحیح أن أبنية الفرس من المدر - على ما يبدو - وبيوت العرب من حجر، لكن هل يمكن فهم هذا المعنى البسيط بسفحي لمباراة الكتاب فقط؟! من غير المرجّح أن يكون كذلك.

فالحجر عند العرب يرمز إلى منظومتهم ونمط عيشهم «الفقار»، وليس مكان سكنهم، أو مادة بناء مساكنهم فحسب، وأرض الحجر عند العرب يمكن تمييزها هجتها ومكوّناتها، بمتاحها والزوايا وفرعها الغالب، وليس بحجرته فقط. - هذا ما أراد أن يرمز إليه صاحب الكتاب.

أد المدر فهو يرمز أيضاً إلى منظومة الفرس، ونمط عيشهم «الإعمار»، ليس مكان سكنهم، أو مادة بناء هذه المساكن فقط. وأرض المدر عند الفرس

مصدر السابق، ص 490.

عربي، مصدر السابق.



يمكن تمييزها بخصوبتها، وألوانها الخضراء، وعمارتها الغالبة، زرعاً وأشجاراً ومنشآت. فالفارق بين هذه العنصرين يتجاوز المرادفات البسيطة إلى ما ينطوي عليه كل منهما من رموز حضارية، وأنماط حياتية، ما يجعلنا نتحدث عن بيئة مدنية وبيئة حجرية، وليس مادة المدر ومادة الحجر فحسب.

ومن المفردات المكانية التي أثّرت عشية حرب القادسية في كتاب آخر للخليفة، يحذر فيه سعد بن أبي وقاص من بلاد فارس، أمة العدد الكثير، والعلم الفاضل، والبأس الشديد، وأنه يقدم «على بلد منيع - وإن كان سهلاً - كجود لجوره وفيوحه ودأته، إلا أن توافقوا غيضاً من فيض»<sup>(1)</sup>. لقد شكلت البيئة الحارّة الكثيرة المتدفقة عنصراً غريباً مألوف في وعي العرب، وهي العنصر الثاني - بعد المدر على رمزيته - في تحذيرات الخليفة، وإن مناعة هذه البلاد وحصانتها - كما يوحي النص - تأتي من بحوره وحالات الفيضان ومتغيرات العصبية على المجازاة أو الاستيعاب.

لقد شكل دجلة والفرات محوراً رئيساً، وميداناً مركزياً، في كل الأنشطة الحربية التي خاضها المسلمون مع الفرس، منذ بدء الفتوح وحتى نهاية معركة القادسية التي تمت في أعقاب عملية عبور من قبل الفرس<sup>(2)</sup>. لقد شكل هذان النهران حدوداً جغرافية وطبيعية فعلية بين العرب والفرس، كما تحكّما، إلى حد بعيد، في تقرير مصير المعارك تبعاً لعملية العبور، حيث تقتزن الهزيمة عادةً بالعابرين إلى أي طرف انشمو، وبالرغم من تنوع السياق العام للمعارك، فقد شهدت الصفات نوعاً واحداً من الهابات، تتساقط فيه الجيوش العابرة، فتحتل الجيوش الثابتة والمتنظرة بالنصر. وإذا كان ميدان المعارك السابقة لا ينطوي على تشايعات استثنائية على مستوى الفتح، إلا أن المعركة الأخيرة في هذه المنطقة، معركة القادسية، بدت وكأنها هي معركة الفتح بكل ما تعنيه العارة،

(1) الطبري، تاريخ الأمم، ج 1، ص 490

(2) الطبري، تاريخ الأمم، ج 1، ص 497

قد جرى تحديد مكانها على أساس أنها «باب فارس في الجاهلية، وهي أجمع تلك الأبواب لمادتهم...»<sup>(1)</sup> كما ورد في نص كتاب الخليفة الأنف الذكر.

ومع ذلك فقد أعرب الخليفة، في كتاب آخر لابن وقاص، عن محدودية حزن بهذه البلاد «.. قلة علمي بما هجتم عليه... فصف لنا منازل المسلمين، والبلد الذي ينكم وبين المدائن، صفة كآني أنظر إليها»<sup>(2)</sup>، إنه صراع المنازل وحيادين والبلدان، صراع الأماكن والمراكز والجغرافيا، ولقد لاحظنا الخليفة عبر، في أكثر من مناسبة، يطلب من قياداته تقديم وصف دقيق للمكان الذي يبرزون فيه في بلاد الشام، كما في مصر، وفق ما سنرى لاحقاً، وهذه ملاحظة بني التوفيق عندها ملياً.

كما رأينا، إذن، فالمعارك في شكلها ومفوماتها المادية سعي في هزيمة لدوير الدخول إلى مكانه، والسيطرة على ميدان وجوده وحضوره، والخطط تند على هذا المؤشر لتحديد مصير المعركة، وإذا صاف أن تمت الهزيمة «شويات السلمية عبر المفاوضات، فعالباً ما يكون التصرف بمكان العدو سحاً للمتصرف في حرية الدخول والخروج، أو الحصول على منافع وإتيازات دت منشأ مكاني أو طبيعة مكانية.

لقد انتهت معركة القادسية بهزيمة الفرس، ويظهر من الخسائر البشرية التي عرفت بالألاف، أنها كانت معركة فاصلة بالفعل، ويبدو أنها المعركة الأخيرة حسة، أو الحامية بين الفريقين في هذه المنطقة، فالمعارك اللاحقة، على الرغم من تعددها داخل الدولة الساسانية، إلا أنها لم تكن بصراوة وحضور هذه المعركة

#### - بعض التساؤلات والإستنتاجات

فلنعد قليلاً كل الظروف الأخرى والعوامل الأخرى جانباً، من دون التخلي

المصدر السابق، ص 1491 صالح العلي: الفتوحات الإسلامية، ص 125

من شأن أي طرف أو عامل، ألا يمكننا التساؤل عن سر هذا التفكك السريع والانهار السريع في صفوف الجيش الفارسي غداة سقوط الحاجر الطيبي والتحدي الجغرافي، المتمثل بنهري دجلة والفرات. هل هي مصادفة أن يخربم الفريقان معاركهما الأولى، عابرين للنهر، ثم منهزمين غرقى وقتلى على السواحل حتى إذا أنهت القادسية مرحلة النهرين، كمحور للمعركة، وبالتالي تجاوزوا الحاجر، يتناشد معارك مختلفة ويتنازع مختلف، أقل ما يقال فيها أنه تفرق إلى حرارة أو ضراوة أية معركة كانت على ضفاف أي من النهرين، شكلت «العاقصة» أو «الناقصة» مخرجاً لمعركة ضخمة، غير مسبوقة، شُنت بمعركة اليرموك، وها هي القادسية، كبؤابة رئيسية للعبور إلى بلاد فارس، تنكب مخرجاً لحرب تعددت معاركها على الضفاف، وفوق سطح المياه في التراب ودجلة، هذه المرة تستعرج جيوش العرب، من دون أن يكون ثمة من ينتظرها. على الضفة الأخرى، ولأول مرة لن يكون العبور عبوراً إلى الهزيمة، ذلك لأن حاف، في أعقاب وخلال وقوع الهزيمة في الطرف المقابل، وسيتحول النهر، ومنغمرانها إلى خلف المسرح الحقيقي للأحداث، حيث تم وضع حد لها كعصرين أساسيين في ما تبقى من معارك الحرب الطويلة مع الفرس، من دون أن يغفل دورهما الحيوي في العديد من تطورات تاريخ المنطقة في العصور الحديثة والحضارية، وحتى العسكرية الداخلية لاحقاً.

كذلك، وكما رأينا في اليرموك تدخلنا للطبيعة في إنهاء المعركة، عبرة انتصاب وظلام الليل، ما نحن في القادسية بللمع مؤثر الهبة من «وهبت ريح عاصف، فقلعت طيارة رستم عن سريريه، وهبت من دبور، ومال العار عليهم» نسب باضطراب الجيش الفارسي.

بجهد كثير في المعارك المتكاثرة، أو ذات الأحجام الهائلة، الطرفين غير قادر على حسم مصير المعركة، حيث يظهر للخصم

(1) الطبري: تاريخ الأمم، ج 23 ص 1564 صالح علي: الفتوحات الإسلامية، ص 1

على ساحة زمنية مفتوحة وغير محددة، في هذه اللحظة تحضر الجغرافيا، ويلعب المكان دوره في تقديم الوقت وإنهاء الحدث، وهذا أمر متكرر ومتعدد الوجوه في معارك التاريخ، كما في العديد من مبادئه ومجالاته، وقد تكون العواصف والرياح الشديدة والمعاكسة لإحدى الطرفين سبباً في هزيمته، كما يمكن أن تكون الأعاصير والفيضانات المفاجئة سبباً في هزيمة الموجودين على أراضيها، وهكذا يتحول البرد والمطر لمصلحة أحد الطرفين، كما يفقد الضاب فرصاً عديدة للتسلل إلى داخل المعسكر الآخر، أو يكون سبباً في السقوط بالمجهول. وإذا كان توقيت المعارك يجري غالباً وفقاً لطبيعة المناخ وقابلية الميدان، من زاهر الربيع حتى أوائل الخريف في معظم الأحيان، بهد شكل غير مباشر من أشكال تدخل المناخ والميدان في تحديد مواعيد الوقائع الحربية، هذا التدخل قد يؤدي في بعض الأحيان إلى إلغاء المعركة، بل الحرب أيضاً، إذا ما دخلت ظروف جديدة لاحقاً حالت دون الاستمرار في هذا الخيار أو ذاك.

### 3- فتوح مصر

إن من يتبع الفتوحات لا يصعب عليه تلمس خصوصية فتوح مصر، هذه الناحية التي دفعت بالعرب المسلمين نحو الغرب، حتى ليكاد الباحث يرى تقارباً بين بلاد الشام والعراق وحتى بلاد فارس لا يراه في مصر، فقد أنفردت بلاد الأهرام، فعلاً، بخصائص ومميزات جعلتها، بعض الشيء على الأقل، خارج السياق المركزي للأحداث، فبالرغم من تمتعها بكل المواصفات الأساسية لبراك الدول وعواصمها الأثرية، فإن هذه المنطقة لم يسلح بها أن تتحول إلى مركز للسلطة، إلا في وقت متأخر تحدد الفتح الإسلامي، مقارنة بدستور بغداد، ومن خارج الإطار التقليدي لسلطته، وقد نشأت في حوض النيل أقاليم دولتهم منافسين ومزاحمين للسلطة التقليدية المعروفة، في مثل غمرة، بالخلافة العباسية في بغداد.

ثمة العديد من المواضع والأماكن التي تربط المسلمين بهذه المنطقة، ولقد

أشار الجغرافيون إلى ذلك، وفي مقدمتهم المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»<sup>(1)</sup>، حيث ذكر بأنه إقليم النبي يوسف، وموضع آثار الأبي. واليه الذي عوقب به اليهود، وطور سيناء، وعجائب النبي موسى، ومقص السيدة مريم في هجرتها مع ابنها، وأنه جرى تكرار ذكر هذا الإقليم، دون غير في القرآن. ثم لفت إلى أن خيرات مصر عمرت الحجاز، وبأهلها تألق مرس الحج، وأن برّها عثر الشرق والغرب، ولم يسس الموقع البالغ الأهمية لمصر. حيث وضعها الله بين البحرين، البحر المتوسط والبحر الأحمر، وفي مقارنة الشام رأى المقدسي أنه مع جلالة الشام فإنها ليست سوى رستاقاً لمصر. أما الحجاز فهو وأهله ليسوا سوى عيال مصر. إلا أنه توقف عند ثوبات الجبل التي نصيبها والتي تقدّر بسبع سنين متواصلة، ما يتعين الاستعانة بالله من قسط الذي يدفع بأهله إلى أكل الكلاب وبالتالي إلى انتشار الوباء.

ويتابع الحديث عن المناخ، حيث ترتفع حرارته عن سواحل الشام، وتشتد برودته مقارنة معها، أما البيئة الداخلية فهي بيت الجرب بسبب العفونة السائدة بخلص بعدها إلى وصف قلوب المصريين بالضعيفة، وثمارهم بالقليلة، وأطعمهم يعادل الندى، وطيرهم الحداة (نوع من الطيور الجارحة) وكلامهم رخر مثل النساء.

هذه صورة إجمالية عن مصر الجغرافيا والمكان والإنسان، وقد تعمّنا عرضها هنا لكونها أقرب إلى ما كان يجول في أذهان العرب والمسلمين عشية الفتح. والمقدسي، بالرغم من أنه ينتمي إلى أجيال القرن الثالث الهجري، إلا أنه قدّم معطيات ذات طابع مكاني ثابت نسبياً، أما المتغير فهو أقرب إلى التاريخ المتكرر والبطيء. في هذه البقعة المتجذرة في التاريخ القديم.

ولابد من التنويه أن مصر وشبه جزيرة العرب تشتركان مناخياً في الهند الأكبر من مساحتهما، نظراً لوقوعهما على خطي العرض 20 و 30 ومحيطهما...

(1) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص 163 - 181.

الفاصل بينهما هو البحر الأحمر الذي شكّل ما يشبه الحاجز الطبيعي بالإضافة للأخطار والمصاعب التي تتأتى من عبوره بسبب وجود الشعب المرجانية و التكوين الجيولوجي للسواحل المتقابلة من الجانبين، حيث التضاريس النافرة تحول دون تحوّل هذه السواحل إلى مرفأ نشطة، باستثناء ما عُرِف عن الجار وجده لاحقاً، لكن بمستوى لا يرقى إلى النشاط المناسب مع الحاجات المطلوبة.

ما تقدّم يمكن القول بأن العناصر الجغرافية المؤثرة في حركة الفتح لم تكامل على الطريقة التي لاحظناها في بلاد الشام. فالمناخ لا ينطوي على مغريات ووعود مشجعة كما أشرنا، وهذا بدوره يؤثر في الإنتاج العام للأرض الذي يتأرجح بين الخصب والجذب، لكن يبقى لنوعية التربة ما يشكل آمالاً دائمة بالمحاصيل الوفيرة.

ثم يأتي نهر النيل الذي حسم في التاريخ القديم، كما سيحسم في الوسيط وما بعده، إمكانية الحياة البشرية المستقرة في هذا الإقليم، وبالرغم من مخاطر فيضاناته، أو سلبات نقصانه، إلا أنه شكل على الدوام أحد أسرار ديمومة الحياة المصرية وتطورها، بل أغنى الحضارة الإنسانية في العديد من مجالاتها.

وللموقع دوره البالغ الخطورة والأهمية، حيث كان للروم حضور وقواعد عسكرية من شأنها تهديد الدولة الإسلامية الناشئة ومركز سلطتها<sup>(2)</sup> في المدينة المنورة، القريبة من السواحل الشرقية للبحر الأحمر، فضلاً عن باقي أنحاء شبه جزيرة العرب الشرقية والشامية. ثم إن السواحل المصرية هي النعم في اندح العرب، ولكل الانتشار أو «الانسياح» في هذه الجهة المتفرقة والمختلفة عتاً رآه العرب وعاشوه في فتوحاتهم السابقة<sup>(3)</sup>. تجدر الإشارة أيضاً إلى أن هذه السواحل تنطوي على فرص ذات طابع تجاري.

(1) صالح أحمد علي: الفتح، ص 110.

(2) طريف الخالدي: فكرة التاريخ عند العرب من الكتاب إلى المقدمة، ترجمة حسي، ص 98.

(3) النهار، الطبعة الأولى، بيروت 1997، ص 98.



من هنا فثبتنا لحظاً إنسياباً في كل ما يتعلق بفتوحات هذه الجهة: فقد استمر الفرار انسباً له نعهده في تعقيدات الشام والعراق، كما انساب الفتح وعمر «إسباً» كلما توغل في الغرب. وبالرغم من ردّات الفعل التي فرضت من ثبته، وبعد أكثر، لا سيما في السواحل، إلا أن كلفة ذلك كانت محدودة، وجرى المعارك طُلّت متواضعة، إذا ما قورنت ببيروك بلاد الشام أو قادسية العراق، وبر الإشارات ذات الدلالة في فتوح هذه المنطقة أنها لم تشهد معارك ضخمة غير غرار هاتين المعركتين.

لا نعرف مدى اهتمام الفاتحين بمادة الحنطة في مصر وبالتالي إستهداف الحصول عليها، مع العلم أن أهمية هذه المادة الغذائية للحجاز بدت واضحة وقت قصير من السيطرة على هذا الإقليم، لكن من المفترض أنهم كانوا يدركون أنهم سيطرتهم على هذا الإقليم فإنهم يقطعون إمداد هذه المادة عن الدولة البيزنطية، حيث يجري تأمين نسبة عالية من حاجات هذه الدولة من الحبوب المصرية<sup>(1)</sup>، إذن، نحن إزاء دولة مجاورة تمتلك العديد من الفرص الإيجابية التي يمكن أن تؤثر في أوضاع الخلافة الإسلامية، فضلاً عن التهديدات السلبية التي لا بد من معالجتها، بغية تعطيلها وتفويتها على الأعداء، وفي مقدمتهم الروم.

لقد توقف المستشرق الإيطالي فرانشيسكو كبريلي عند المقاومة العسكرية التي واجهتها الفتوحات في هذه المنطقة، فاعتبرها «أصغر بالمقارنة مع تلك المقاومة التي كان على العرب أن يناضلوا أو يتباروا معها في العراق» وأن عمرو بن العاص، القائد الأول لهذه الفتوحات، استطاع عبر ما أسماه «الدبلوماسية» وعقد المعاهدات أن يربح أكثر مما يربحه عن طريق السلام. وهذه آراء تشكك الكثير من عناصر التطابق مع منطق روايات الفتح، وبخاصة المختصرة لهذا الإقليم.

(1) البلاذري، فتوح البلدان، ص 214 و 211.

(2) فرانشيسكو كبريلي، محمد والفتوحات، ص 249.

كان من الممكن لعمرو بن العاص أن يتخذ من الاسكندرية، أو غيرها من البروج والواحات العامرة في مصر، مركزاً لسلطته، ولكن على ما يبدو أعرض عن أي تفكير جدي بذلك لأسباب عديدة منها: أن هذه المدينة لم يظهر عليها الاحتراف الجدي في الدين الجديد، وأن نسبة كبيرة من سكانها ليسوا في وارد ترك المسيحية إلى الاسلام، وقد بان ذلك من خلال فتحها أكثر من مرة. ثم إن وقوع هذه المدينة على الساحل يجعلها عرضة للهجوم البيزنطي البحري الذي دفع، بهذا هذه المنطقة طيلة الفترات اللاحقة. لقد حدّد القسطنطين الواقعة على نغمة الشرقية لنهر النيل، مكاناً لسلطته، هذا المكان المتصل بالبر مع الحجاز والأزرب، جغرافياً، إلى مركز السلطة في المدينة، وقد أراد إس العاص، على ما يبدو، بعيداً عن أية مؤثرات أو مكشّرات تنال من أصالته وعلاقته بالمرحلة الجديدة. لقد حاول أن يحشد المعاني والدلالات بما يتناسب مع مستقبل السطة الإسلامية، حيث يجري التحديق بالصورة الحديدية دون الصور المعتمدة السابقة. ربما لم يكن قد دار في ذهن عمرو بن العاص، أو غيره من أصحاب القرار، كثير من المعاني المترتبة على إختيار المكان والشروع في بنائه، ولكن من ربح أنه كان يعي علاقة المكان، والأرض عموماً، في طبي صفحات الماضي بفتح صفحات جديدة في مستقبل الزمن المصري مع الدين الجديد. هذا ما تود هذه الدراسة أن تكشف عنه بالتحديد.

## الفصل الثالث

## مزايا الأقاليم

١- تعريف السواد والتحويلات البنوية في الدولة الناشئة.

## ١- تعريف السواد

لا يكمل الحديث عن الفتوحات الشرقية إلا بالوقوف مطوّلاً أمام السواد، لسفحة الخصبة والتربة الغنية، حيث شكلت المساحة الأكبر والأكثر بروزاً في تاريخ العراق إثر الفتح. صحيح أننا لاحظنا اهتماماً محدوداً بالسواد عشية الفتح وخلالها، وأن الحديث حول نهري الفرات ودجلة والضفاف طغى على حديثنا، لكن ذلك لم يعدو كونه دخولاً في المكان من برأبئه الرئيسيتين، وإن السواد كان في عمق هذا المكان، وفي قلب الجغرافيا التي ما فتئت تحضر بامرها، الواحد تلو الآخر، لنسج تاريخ جديد لهذه المنطقة بتلاءم مع أحوالها وتاريخها الحاسمة.

لقد سُمّي السواد بهذا الاسم «السواد بالزروع والتخيل والأشجار»<sup>(١)</sup>، أما سبب تسميته فقد تطوّرت مع مرور الوقت، وقد أشار الحموي في معجمه إلى أن «حد السواد من حدبة الموصل طولاً إلى عبادان، ومن العذيب بالقادسية إلى حُلوان»<sup>(٢)</sup>، ويكون طوله مائة وستين فرسخاً، وأما العراق في العرف، فطوله يقصر عن

(١) نوت الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٧٥، ابن خردادبه، عبدالله بن عبدالله: المسالك، ص ٢٢٢، نطقين حبر الدين قلاوي، ص ٢٢٢، (٢) نسخة في المخطوطات العربية القديمة، دمشق ١٩٩٠، ص ٤١، ٤٢.

طول السواد، وعرضه مستوعب لعرض السواد<sup>(1)</sup>. نحن إذن أمام إقليم جعري برته، بشكل ثروة لا تضاهيها ثروة في كل الأراضي والمساحات المفتوحة وتاريخ القبائل العربية المجاورة للسواد هو تاريخ الإغارة والغزو لأطرافه، ومن المشهور أن الشئ من حارثة، قبل أن يياشر عمليات الفتوح الإسلامية في هذه الجهة، كان يدب على هذا النوع من الأعمال السائدة في تاريخ المنطقة.

وما تمركز السلطة الساسانية في قلب منطقة السواد سوى تعبير عن حيوية الاستراتيجية في بنية الدولة واقتصادها. جرت عادة المصادر<sup>(2)</sup> في تقدير إنتاجية السواد بالعودة إلى حجم الجباية في زمن الساسانيين، ثم زمن الخليفة عمر بن الخطاب، لكونها كانت بلغت ذروتها في هاتين الفترتين. والرقم المتدور للجباية السنوية في معظم المصادر المتوافرة هو مائة وثمانية وعشرون مليون درهم، وهذا رقم لا يبدو أنه خطري بال أحد من أصحاب القرار في الفتوحات، وهو كثير من الوقائع التي شكلت تحدياً أمام الفاتحين آثار العديد من القضايا والمواقف، هذا ما نستوحى من طريقة التعامل مع السواد بعيد فتحه وإستباب أمره. إن صورة السواد قبل الفتح لم تتجاوز - إلا قليلاً - المألوف من النواحي الحصنة، وكل ما في الأمر حديث عن وفرة الخيرات، من دون تقديرات واضحة ودقيقة.

والأمر الأساسي الذي ينبغي التعمق فيه هو أن السواد لم يشكل مصدراً اقتصادياً فائق الأهمية نسب، ولا مكاناً للسلطة ومركزاً لأجهزتها الإدارية. وسائر معانيها فقط، بل شكل ما يشبه الينة المكانية التي جمعت العرب والفرس المقيمين في نواحيها، وقد نجم عن ذلك تعددية دينية وثقافية ولغوية. أما هي الأخرى. في تسهيل عمليات الفتوح، وجعلتها أكثر تفاعلاً مع بيئات أخرى غلقت عليها هوية ثقافية، ودينية، ولغوية واحدة.

(1) الحموي المصدر السابق.

(2) ابن خردادبة، المسالك والمستغان، ص 42، 43. الحموي، معجم البلدان، ج 1.

تتشكل السواد، إذن، عنصر جذب ساعد على تجاوز العديد من العوائق والجوارح، ولا يبعد أن يكون واحداً من عناصر محدودة بثت الفتوح في هذه الجهة، وأبقت عليها، بعد ما لاقت من ضعف في الإقبال لدى القبائل في بداية أعقب ذلك خسائر في المعارك الأولى لم يكن لها نظير في سائر حروب المسلمين حتى ذلك التاريخ، بل لا يبعد أن يكون العنصر الأكثر تأثيراً في هذا معمار.

كتب ياقوت الحموي عن السواد قبل الفتح الإسلامي وفي عهد ملوك فارس، حيث كانوا يشبهونه «بالقلب وسائر الدنيا بالبدن»<sup>(1)</sup>، وقد أطلقوا عليه عبارة «دل ينشهر» أي قلب إيران شهر، «الإقليم المتوسط لجميع الأقاليم»<sup>(2)</sup>، أما سبب شبه بذلك فيرى الحموي لأن الآراء تشعبت عن أهله بصحة الفكر والروية، حيث تشعب عن القلب دقائق العلوم ولطائف الأدب ولأحكام.

ينبغي مع ياقوت الحموي وهو يصف خصوبة بلاد الرافدين، حيث لا عوائق لها ولا شواقي، ولا مفاوز موحشة، ولا براري منقطعة، فالعمارة متواصلة، الأبنية مطردة من الرساتيق وبين القرى، مع قلة الجبال والأكام، وكثرة أنواع الفلأ والثمار، وإلتفاف الأشجار، وعذوبة الماء، وصفاء الهواء، وطيب التربة، واعتدال الطبيعة، وتوسط المزاج، وكثرة أجناس الطير والصيد<sup>(3)</sup>.

نحن بالفعل أمام نموذج مقابل لمنظومة «القفار»، وإذا كان الحموي قدّم صفاتاً متضاربة، فقد أورد صورة سابقة على الفتح لا تقل غنى عن ما ذكره لاحقاً، - معظم الأوصاف المذكورة هي الأوصاف الطبيعية لتضاريس المنطقة - وننص:

«... كالتصاق الحرى بالكل واليهوى بالمدحمة»

الحموي، الحموي، معجم البلدان، ج 1، ص 42، 43. الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 15 و 16.

الحموي، الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 15 و 16.

الحموي، الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 15 و 16.

الحموي، الحموي، معجم البلدان، ج 2، ص 15 و 16.



## 2- السواد والمفهوم الجديد للغة.

لكن وادة السواد لا تتصل بخلفية الفتح وتشتتها فحسب، بل في الرؤية الفنية - الاقتصادية الجديدة التي فرضها بفعل مساحته وإنتاجيته، حيث لم يسأل للمسلمين أن واجهوا نظيراً أو مثيلاً لها، ولا يظهر أنهم واجهوا ذلك في فترات لاحقة من تاريخ فتراتهم. لقد فرض السواد واقعاً اقتصادياً لم يكن يوسع عقول أصحاب القرار، ولا قواعد فقه الغنائم المعمول بها حتى ذلك الحين، فادارة على توليد صيغة ترقى إلى مستوى هذا التحدي الاقتصادي الضخم.

لقد كان الموقف حرجاً بالبلع، والمصادر<sup>(١١)</sup> بمعظمها تشير إلى صعوبة هذا الموقف الذي أدى إلى انقسام في الرأي لدى العديد من كبار الصحابة، بين مؤيد للقاعدة التقليدية في توزيع الغنائم، بما فيها الأراضي، على المشاركين بالفتح، لكونه تم عزوه، وبين فريق ذهب بعبداً في تقدير الموقف لجهة آثاره المباشرة على نفوس الفاتحين، وغير المباشرة لعلاقاته بمالية الدولة، وبالتالي وجوب ضمان استمرار تدفق مصادرها للأجيال المقبلة. وكان الخليفة في مقدمة الفريق الثاني، فبما ضم الفريق الأول العديد من المستفيدين من غنائم الفتح، وبغضهم من كبار الصحابة.

لقد كان موقف الخليفة الثاني في بعض وجوهه، لا سيما لجهة توقّيته وأثّاره المتوقّعة، شيئاً ما سوف الخليفة الأول لحظة ظهور حركة الرّوثة، وكان المصداق الصادرة سريعاً إلى إعلان الموقف، والمباشرة بتأمين شروط تنفيذ هذه العاجلة وفوريّة، وهذا ما حدث بالفعل.

لقد فصل الخليفة عمر بن الخطاب لأول مرة في تاريخ الغنائم الإسلامية  
- على ما يبدو - بين الأرض وما عليها، ففي كتابه إلى سعد بن أبي وقاص

(١) البلاغ في شرح النسخة، ص ٢٦١، ٢٦٢؛ أو يوسف يعقوب بن إبراهيم كتاب الخصال، مجمع  
محمود كـ في التراث (القصدي)، ص ١٤٣؛ عديم الغصن شلق، دار الحديث، القاهرة، ١٩٨٠.  
بيروت، ١٩٨٠، ص ١٤٢؛ الجعفي، البلاغ، ص ٢٦٢، ١٩٨٠.

«فانظر ما أجلب عليه اهل العسكر بغيهم وركابهم، من مالٍ أو  
 من دماءٍ بينهم بعد الخمس، وأترك الأرض والأنهار لعمالها، ليكون ذلك  
 عطية المسلمين...»<sup>(١)</sup>، لقد بدا المكان بصورة جديدة غير المألوفة، وبحكم  
 ما هو غير مسروق، لم يعد مادة عطاء، لقد جرى تثبيت هوية مختلفة له هي هوية  
 الدولة الناشئة، فغدا من أملاكها ومن أصول أموالها، والمستفيدون منه هم كل  
 هذه الدولة من مواطنين، وما ستضمه في المستقبل.

فتمت للأرض والأنهار شأن مختلف، وحساب مختلف، وقبمة مختلفة،  
فما بهيكل إرهابات تأسيسية لما سيعرف لاحقاً بملكية الأرض في  
دولة الإسلام، لقد برز الخليفة هذا الإجراء غير التقليدي بكتابه إلى عامله  
في تلك الأثناء بين من حضر لم يكن لمن يبقى بعدهم شيء... وهذا هو  
برز الرئيس البعيد المدى، لكن ثمة مبرر آخر قريب المدى - لا يبدو أن  
المصدر توقفت عنده كثيراً - ولقد أورد البلاذري في فتوحه شيئاً من هذا، حيث  
في نيز الخليفة عمر لقراره هذا... وأخاف إن قمتم أن تنفادوا بينكم في  
الدين، وفي مكان آخر ينقل عن الخليفة الراشدي الرابع قوله «لولا أن يضرب  
بكم وجوه بعض لقسمت السواد بينكم»<sup>(1)</sup>.

هذا البرر يتعلق، إذن، بمفاعيل هذا الحجم من الغنائم على نفوس الفاتحين  
سويهم، وهي غنائم تفوق حاجاتهم بالتأكيد، وتفتح أمامهم أبواب واسعة  
تصل الأموال وإنفاقها، وهذا أمر إذا ما تم فإنه ينزل بعدد تطورات  
في الحياة الاجتماعية الإسلامي، من شأنها أن تفسر مشاريع الفتوحات المقبلة  
في الحاضر لقضايا المال وسبل تنميته وإستثماره، بل من شأنها أن تعدل  
الأولاد للعديد من الأمور المتعلقة بالسلطة وتداولها، وبالتالي العلاقات

اللابري قروح اللسان، ص 261

٢٠٤٤

الحمد لله، ص 263

بين أصحاب القرار والنفوذ. بهذه الحال يمكن النظر إلى قرار الخليفة الذي أصدره بعد مشاور مع مجموعة أخرى من الصحابة بقرارات رجال الدول وقادة الشعوب.

كل هذه التطورات، في الفقه كما في الاقتصاد، وفي السلطة كما في المعارض، صدرت عن مساحة شاسعة من الأراضي، ونوعية خصبة من التربة، ومصادر مياه لا تنضب من الأنهار والبحيرات، ومزايا ميسرة وسهلة من أشكال سطح الأرض حيث لا مرتفعات أو أودية تحول دون أنواع من المزارع أو شبكات الري. فضلاً عن الموقع بين النهرين، وعلى ضفافهما، يجعل الوصول إليها، والإنتقال منها، في غاية اليسر والسهولة. لقد حظي المسلمون إذن بمساحة من الأرض تتوفر فيها غالب عناصر المكان والجغرافيا المرجوة.

### 3- السواد والسلطة.

إذن لم تعد قضية السواد تقتصر على تحفيز الفتوحات، ولم يعد التفكير فيها خاضعاً للحظة الراحنة أو الواقع القائم، فتم مشروع لبناء الدولة، وثمة مشروع للنهوض بأعباء الدولة، وهذا السواد هو مادة البناء والنهوض على السواد وحاسية هذه المنطقة الخصبة، أو هذا الإقليم الغني، لن تنتهي بمجرد استكاته المعترضين وخضوعهم لقرار الخليفة، وبالتالي حسم ملكية السواد للدولة. فالمشروع لتطورات هذه القضية في العهد والمصور اللاحقة يدرك حجم التحدي النوعي الذي حدث عندما تم فتح هذه المنطقة. فقد ظلت الأعين محدثة على تطوّر فيها، سواء لجهة الملكية أو الإنتاجية، وثمة حادثة توحى بالكثير من هذه الحساسية التي رافقت تاريخ السواد لعقود وقرن من تاريخ الإسلام. فقد نفت المصادر<sup>(1)</sup> أحداث سنة 33 هـ للهجرة تولية الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن

(1) البلاذري، أحمد بن يحيى: أنساب الأشراف، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي، 11 ج. الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، د.ت، ج 6، ص 147، الطبري، 10 ج. دار المعارف، ج 4، ص 322 و 323.

عبد السعيد بن العاص مدينة الكوفة وقد قدمها واجتمع بوجهائها، ومما قاله في هذا المجلس «إنما هذا السواد بستان قرش»<sup>(1)</sup>. لقد كان لهذا الكلام وقع صاعقة على الحضور فانبأ أحدهم، وهو مالك الأشتر، للوالي الجديد قائلاً: نزع من السواد الذي أفاءه الله علينا بأسيفنا بستان لك ولقومك! والله ما يزيد ذلك فيه نصيباً إلا أن يكون كأحدنا.

بالملكية التي إدعاهها الوالي المعين من قبل الخليفة لا تعني صلاحية البيع وشراء، أو أي تصرف من هذا القبيل، إنها تعني صلاحية التصرف بالتاج ونجاية المتأينة منه، وإذا كان هذا التاج وتلك الجباية يشكلان المورد الأكبر لحالة الخلافة، فالمعنى هنا ينصرف إلى السلطة بكل ما تعني من حقوق، يقتض من صلاحيات، لقد غدا بالفعل أن من يمسك السواد يمسك السلطة، تلك، فإن رد الأشتر يمكن أن يفهم بهذه الطريقة، إنه نزاع حول أهم مكون من مكوناتها، وأخطر مورد من مواردها.

وحن عندما تتوقف أمام السواد من زاوية أثر المكان في التاريخ، فإننا نسج تاريخاً جديداً وشاملاً قد بدأ مع بداية السيطرة على هذه الجهة الغنية من التوحات. إن تعديلاً وتغييراً في شكل السلطة وسياساتها سوف يظهر مع مرور الزمن. ومع كل تطوّر جديد في حجم المحاصيل والجباية، وتبعاً للمعطيات لترجيح القائمة.

عندئذ، مع دخول السواد، نمطاً قديماً للسلطة والسياسة، وُدُس نمط جديد سبغ في حياكته المبالغ الهائلة من الدراهم والدينار القادمة إلى بيت من لعمري في الشرق.

لغة، إذن، حاجات جديدة، وطموحات جديدة. وأحلام جديدة، مشتبهاً في هذه الإمكانيات المالية الهائلة. وإذا كان العهد الراشدي قد شهد بعض من هذا التحول، إلا أن العهد الأموي سيكون له الحظ الأوفر في ظهور هذا التحول.

(1) مصادر عثمان

وبالتالي التفاعل معه إلى أبعد الحدود، على حساب العديد من القيم والغايات التي نشأت في الزمن الإسلامي الأول.

إن كل ما عرّفناه سابقاً فيما يتعلق بنمط الحياة العربية، بكل عاداتها وتقاليدها ومنظوماتها العامة والخاصة، وكل ما حلّلناه في خلفية الفتوحات وغاياتها، كل ذلك بدأ يسير باتجاه مختلف مع أول عملية جبابية شاملة للسود. لقد انتهى عصر عربي عريق وطويل ومعه الكثير من محرّكاته وأشياءه، ونحن على مشارف عصر جديد ينطوي على محرّكات وأشياء جديدة ومختلفة. إن ما بعد السود مختلف نوعياً عن ما قبله، لقد كان أثر الأرض الجديدة، والجغرافيا العديدة، أكثر بكثير مما كان يترخى الفاتحون، أو يحلم به أصحاب القرا، وفي مقدمتهم كبار الصحابة والخليفة نفسه.

#### 4- آراء في تداعيات فتح السود.

تعددت الأقلام التي قاربت هذا التحول البيئوي في الخلافة الإسلامية، فقد قدم المستشرق كلود كاهن مقاربه لهذا التطور النوعي في التعامل مع الغنائم، فقد اعتبر أنه جرى إقناع «البديوي بأن الفيء إنما يكون لصالح الأمة بأسرها»، وفي سبيل الأجيال اللاحقة<sup>(1)</sup>، إنه نوعٌ من إعادة تشكيل للثقافة العامة والأرض العامة، تمهيداً للدخول في عصر الدولة ومرجعيتها الأولى.

كذلك أشار هشام جعيط إلى ما رآه تطوراً في مفهوم الغنيمة «فصار الفيء نوعاً من الوقت تصرف به الدولة لمصلحة الجميع»<sup>(2)</sup>، وأنه تقدّم باتجاه دعم سلطة الدولة، وبالتالي التبعية للسلطة المركزية. أما الفضل شلق فقد استمع أن غزاة السود أثبت «أن الجزء الأكبر من نظرية الخراج الإسلامي هو سخر

(1) كلود كاهن: تاريخ العرب، ص 22.

(2) هشام جعيط: الكوفة: شأه المعنوية العربية الإسلامية، دار الطليعة، الطبعة الثانية، بيروت 1991، ص 64.

منهذه وليس نتيجة نص محكم»<sup>(1)</sup>، معتمداً على قراء الخليفة عمر بن الخطاب بخصوص التفريق بين الأرض وما عداها في غنمة السود.

بحث الباحث محمد عبد الحي شعبان إلى نقطة بالغة الأهمية فيما يتعلق بكتابة التقسيم الفعلي لأرض السود على الطريقة التقليدية، أي بتوزيعه بين الفاتحين والمشاركين، ورأى ذلك «مستحيلاً من ناحية عملية... بسبب انتشار هذه الممتلكات في السود بأكمله». ويبدو أن هذا الرأي يملك العديد من المرجحات الواقعية، فمع فرض تجاوز الخلافة لكل ما ذكرناه سابقاً، فكرة ربط بالمدى المتوسط أو البعيد، وأنه جرى تنفيذ عملية توزيع لأراضي شتت على مساحة تغطي قسماً كبيراً وشاسعاً من العراق، بحيث أن جبايتها قد قدر بمائة وثلاثين مليون درهم، ألا يعني ذلك أن العديد من القبائل، لا سيما قبيلة التي إشتربت حصولها على حُصص الغنائم بعد إزالة الحُصص لهذه لأول، أي ما يعادل عشرات الملايين من الدراهم، سوف نصاهي السطوة المركزية بحجم أملاكها وإيراداتها؟، ثم إذا جرى التوزيع على هذه الطريقة، فمن يمكنه بعد ذلك الحديث عن سيادة أو حكم حقيقي للخلافة في السود، لأنهم من العراق، بعد أن غدت أملاك الخلافة موازية لأملاك بعض القبائل، إن لم تكن دونها؟<sup>(2)</sup> إننا إزاء عملية من شأنها وضع المنطقة أمام نوع من التقسيم والاستحواذ لا يعود فيه الحديث عن حضور الخلافة حديثاً ذا مغزى أو معنى.

هناك من ماذا يعني تحويل أعداد هائلة إلى رقيق، وما ينجم عن ذلك من خلل في سيرة الحياة الاقتصادية العراقي القائم على الزراعة، حيث تشكل هذه العملية عائقاً أمام نمو الاقتصاد، فربك نظام اقتصادي لا يملك الفاتحون الجدد رؤية واضحة عنه، فضلاً عن صعوبة توافر مقوماته وعناصره الأساسية<sup>(3)</sup>.

(1) سحر العراج الإطاع والدولة، دراسة في الاقتصاد السياسي للدولة الإسلامية، مجلة الاحتماء، العدد الأول، تموز تشرين الأول 1988، ص 132.

(2) سحر العراج الإسلام والدولة الأموية، ص 58.



وأغلب الظن أن هذه العملية، لو تمت، كانت ستشكل عملية تفتيت وتجريد بتهيئتها تاريخ عريق لهذه المنطقة، بل يصبح مضمون السواد مصطلحاً مختلفاً تماماً عما كان عليه في ذلك التاريخ الطويل. وهذا يؤكد ما ذهب إليه المؤرخ إبراهيم بصور في تقويمه لسياسة الخليفة في السواد معتبراً أنها «حالت دون ظهور إقطاعية عسكرية شبيهة بأنظمة العصور الوسطى في أوروبا التي حُرِّت كثيراً من التناحور بين الأجيال المتعاقبة»<sup>(1)</sup>، على أن صاحب كتاب «الحجرات والدولة الإسلامية» كان قد أشار، قبل ذلك، إلى أن سياسة الخليفة في هذا الشأن تعود بالدرجة الأولى إلى تأثيره «باختلاف طبيعة الأرض، ونظام الزراعة، بين الحجاز والسواد».. على حد تعبيره<sup>(2)</sup>.

فالقضية إذن، لا تتوقف، فقط، عند حاجة الأجيال المقبلة إلى مصادر مالية مستقرة، كما نكَّر ذلك في المصادر على لسان الخليفة، ولا عند العزيم الخطيرة على مستوى نفوس وسلوك الكثير من الأثرياء الجدد في المجتمع الإسلامي بحسب، بل عند المشهد العملي والتطبيقي العسير والخطير الذي يبدو محصور ضعيف ومحدود للخلافة في هذه الناحية الغنية والمثيرة من الفتوحات.

5- بين القفار والساد.

مع السواد نحن أمام دور مختلف وغير مألوف للمكان، لكنه لا يبرده، بل تأثيراً ونفوذاً في التاريخ، تاريخ صدر الإسلام والخلافة الراشدة. تعودنا سماعاً لا سيما في العقود والقرون السابقة للإسلام، أن يكون للمكان نفوذاً وفق الظروف والأحوال الطبيعية الشديدة في قساوتها وغزواتها، وألفنا مشاهدة آثار المناخ الصحراوي الجاف في أنواع السلوك والقيم، كما في المأكَل والملبس وحتى في اللغة والأخلاق.

(1) إبراهيم بصور، الحجاز والدولة الإسلامية، ص 146.

(2) المرجع نفسه ص 145.

لأن الشكل يختلف، والمظهر العام يتباين، لكن النفوذ لا يزال ملحوظاً في كثير من مظاهر ومتعدد. من قال أن الوفرة في المأكَل والمشرب أقل تأثيراً في حياة الإنسان من القلة أو الندرة، ومن قال أن اعتدال المناخ وتوازنه أضعف تأثيراً في أحوال الإنسان من تطرفه أو قساوته؟؟.

يمكن سلطاناً نافذ، أياً تكن سياسته ووسائله وأدواته، سواء أكانت ذسية أم بنية، حشة أم ناعمة.

لقد دخل العرب عصر السواد، وبدأوا الخروج من عصر «القفار»، أو على الأقل قسم كبير منهم، وبين «السواد» و«القفار» فروق شاسعة في أنماط العيش، وبخاصة الكثير من العادات والتقاليد والأعراف.

لقد دخل العرب عصر «السواد»، حيث من المفترض أن يتم الإقلاع عن الأحيال الدائم، لمصلحة «الاستقرار»، ومن معيشة «السير» وأن «ما يصلح للسير يصلح لنا»، إلى معيشة الأرض، وبالتالي ما يصبح للأرض شأن ونفوذاً ومكانة.

تتحلى هذه القبائل عن كثير من عاداتها وتقاليدها، لكن شريطة أن لا يتغير مع نمط العيش الجديد مع الأرض وفي الأرض.

هذا التجاني السائد بين العربي وأرضه في شبه جزيرة العرب. سيقبض في العراق عند أول تعايش مع الأرض تظهر فيه مصدراً سخياً وطيباً للعباد، وللعبيد من حاجاته وطموحاته.

تحدث تحول شامل للقبائل العربية نحو الزراعة ومستلزماتها في بلاد الرافدين. ثمة من لا يمكنه الخروج من العصر، أو هو لم يكن في صدد ذلك. يمكن من الواضح أن عصر «السواد» بكل أعرافه وعاداته قد بدأ بقوة لا يمكن إنكارها في تاريخ العمران العربي حتى ذلك الحين.

حصة أكثر مما يحتاج أو يتوقع القادمون والقاتلون الجدد، والماء

متوافر بشكل مباشر على الضفاف، أو بإجراءات على مسافة محددة بين نهري الفرات ودجلة، والمناخ أكثر ملائمة للحياة البشرية كما للحيو، فضلاً عن التربة، والتضاريس سهولاً وروابي دفعت نحو الزراعة، كما يَترت الحركة والانتقال، أما الموقع فقد شكل السواد مساحة إنتقالية، وبوابة رئيسة، للمعبر من بلاد العرب إلى بلاد الفرس، بكل ما تعنيه عبارة العبور جغرافياً وتاريخياً وحضارياً، إضافة إلى ذلك ففي معظم نواحي السواد مسالك مائية تجعل الانتقال من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، ومن بعض الغرب إلى الشرق، شكلاً من أشكال التزعة أو الرحلة الممتعة.

والسؤال الذي يسأعنا على جلاء الصورة أكثر يمكن طرحه على الشكل التالي: هل يمكن كتابة تاريخ العرب في العراق، أو فهم هذا التاريخ في العهد الراشدي وما بعده، بمعزل، أو بعيداً، عن «سواده»، هل يمكن كتابة تاريخ العراق أو أي بلد آخر، بمعزل عن مكانه، أو عن أصرار ونفوذ هذا المكان؟!..

في أي حال لا حاجة لإثبات ما تقدم، فالتاريخ الذي بدأ من جديد بعد الفتح منعمٌ وراخٍ بالمعطيات التي تدفع بكل ثقة للقول أن العرب عندما عبروا إلى السواد لم يضيفوا مساحات جديدة وغنية في حجم دولتهم فحسب، أو بقوا حذوهم ونغورهم إلى أعماق الشرق، وما يعنيه ذلك من خروج كلي عن حياة الفرس وتحريمهم للمرة الأولى في تاريخهم بهذا الشكل، لكنهم بالإضافة إلى ذلك فقد عبروا إلى مرحلة تاريخية جديدة تختلف معها العديد من جوانب ومستويات عيشهم وحياتهم<sup>(١)</sup>، وبالرغم من أن ذلك سيأخذ وقته الكامل عبر الأجيال والسنين الطويلة، إلا أن طلائعه الأولى بدت واضحة في السنين الأولى عندما أخذت الفتوحات تسارع بوتيرة غير مسبوقه أو مألوفة، وفي آخر من حيا أو ناحية.

(١) رآي سورديل أن التحصيل الفراج من «السواد» أصبح في القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد من أهم المهام الإدارية في الخلافة واختيار الوزراء، كان يتم في هذه المرحلة من قبل الخلفاء الذين كانوا يستوفونه، جاثين ودميتيك سورديل: معجم الإسلام التاريخي، ص ١٩

التعامل مع حيثية المكان.

١- الفتح وإحترام التجربة الحياتية السابقة.

من الظواهر اللافتة في سياسة الفتوحات إعتبار العديد من حيثيات المكان من التكوين العام للمكان، سواءً أكانت نُظماً أو آليات عمل، أو حتى لخصائص دينية وقبلية محددة، حيث جرى التعامل معها بواقعية، بل بحساسية دينية واضحة أحياناً.

ربما أدرك الفاتحون الجدد ان التركيبة القائمة هي شكل من أشكال التطور على المكان، حيث تمر المجتمعات بمراحل طويلة من التجارب والتدبير، مدعمة مع ظروف المكان وقابليته حتى تخرج بصور مختلفة تصنع جزءاً من كبريى التاريخي. من ذلك ما رأينا في سياسة التعامل مع السواد، حيث جرى بذل الأمور على حالها، مع ما ترتب على ذلك من إعتراض وتعديل في مفهوم الحياة وأحكامها، أما ما جرى إستحداثه فقد اقتصر على الهوية العامة، وبالتالي لم يضرية بعنوان جديد هو «الجزية»، بالإضافة إلى مفهوم السلطة الذي أخذ صبغةً جديدةً وتطبيقاً متطوراً.

لقد توقف ابن خلدون<sup>(٢)</sup> عند هذه المسألة ورأى فيها ضرورة لاستمرار نفس الحضاري الذي كانت عليه هذه البلدان، مقارنة مع البداوة التي كان بها العرب وكانوا لا يزالون مرتبطين بجمل عاداتها وتقاليدها وثقافتها، لكنهم معزاً ما خضعوا للعديد من العادات والتقاليد القائمة في الأماكن الجديدة، ثم دلوا أن تعارفوا جميعاً بتشكيل ثقافة جديدة تتناسب مع المرحلة التاريخية، ويرون أن تفقد اتصالها بالخصوصية المكانية والجغرافية.

٢- ينص الموقف، إذن، على إحترام ومراعاة السائد ما لم يتعارض مع مبادئ الدين الجديد، بل كان من المفيد جداً تحقيق نوع من الانصهار مع

البيئات القائمة، بغية نقلها من وضعية القبول بالأمر الواقع إلى وضعية الإسهام الإيجابي في الواقع الجديد، فالمشروع توخى تحويل كل هذه الطاقات في سبيل استكمال عمليات الفتح التي ينبغي أن تتم بأيدي الجماعات الجديدة، وكل ما لديها من خبرات وأنظمة اكتسبتها في مكانها وزمانها. وأدرك العرب جيداً أن ما راوه جديداً وثرياً لن يقتصر على المأكل والمسكن والملبس، فمة نواحي ومجالات أخرى، أكثر تعقيداً وأعمق تأثيراً، يجب التآني في التعامل معها. ولقد لاحظنا كيف بقي الفلاحون فلاحين<sup>(1)</sup>، والدهاقون دهاقين<sup>(2)</sup>، كيف استقر الأساورة من الحماة النخبة للساسانيين إلى المجاهدين الأحرار في صفوف المسلمين<sup>(3)</sup>.

لقد كان الحرص ملحوظاً في استثمار كل ما حفل به المكان والزمان من طاقات، ولم تحدث أية قطعية أو أية عملية إلغاء في معظم هذه المجالات، بل يمكن القول أن ما ارتبط بخصوصية المكان، سواء أكان أرضاً أو ماءً، أو موقعاً أو تقنية ري، أو غير ذلك، جرى إبقاؤه على حاله، ما لم يشبّه ظلم أو تعسف، وإن ما حدث لاحقاً من إجراءات وتبديلات لا تعود إلى السياسة الأساسية في الفتح، بل إلى سلوكيات خاصة ببعض النافذين وأصحاب السلطة، لا يمكن بالتاكيد منطلقات هذه السياسة ومعاييرها.

إن هذا النوع من التعامل مع حبيّة المكان، أو قل بعبارة أخرى إن هذا النوع من تقدير وتقبل خصوصية وتاريخية المكان، لم يسهم فقط بإستمرار عملية الفتح وتحفيزها، أو يؤمن مصادر غنية للدولة الناشئة فحسب، بل أبقى على الأمور تجري وفق طبيعتها، متجنباً ما يمكن وصفه بتعطيل أو تجميد أشكال الحياة برمتها. لقد بدا واضحاً أن الفتوحات لم تكن هي صدد تعبير إلى (السياسة)

(1) الحرب، تاريخ الألب واليونان، ص 149.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه، ص 80.

كانت تستهدف، بالإضافة إلى الغنائم، منظومة العقائد والقيم السائدة، بغية تغيير تركيبها، أو بنائها، وفقاً لمبادئ الدين الجديد، من دون أن يعني ذلك إكراه الناس على الدخول في هذا الدين، بل كان الإمسك بالسلطة الفعلية، وإنهاء دور السلطة السابقة، كافياً من حيث المبدأ.

وبرغم الاختلاف في الدين، وما يتضمنه من أصول وأحكام وأخلاق، فقد نشأت ضرورات إعمار المكان، أو على الأقل الإبقاء عليه عامراً، مقدّمة على غيرها. لقد كان تأهيل الطرق أو شقها، وبناء الجسور أو صيانتها، وتأسيس الأسواق، وحفر القنوات لجلب المياه إلى المساحات المزروعة، ورعاية الحقول، وحتى تشارها، والإسهام في بناء مرافق الدولة الجديدة ومشآئها، وغير ذلك، لها مجالات لتحسين أو تطوير إمكانيات المكان. والطريقة الأمثل هي الاستعانة بالمكان، الممارفين بما يفسده وما يصلحه، والحريصين عليه، المعتادين على قربه وأحواله.

## 2- الفتح ومفهوم الإستمرارية.

كان الانتقال سريعاً إلى البيئة الإسلامية الجديدة، كما كانت الفتوحات وخبرّات خاطفة ومتوالية. لقد أشار موريس لومبرد في كتابه «الحجرات» لـ «سجّة للعالم الإسلامي»<sup>(1)</sup> إلى مفهوم الإستمرارية، وهي تعني إستمرار حضارات الناشئة في البلدان المفتوحة وعدم حصول أي توقف أو انقطاع، ومفهوم ينطوي على دلالات تتصل بالطاقة الإستيعابية للدين الجديد، كما يشير برؤية العرب المسلمين لحكم وتدبير شؤون هذه البلدان.

لقد كان على الفاتحين وما يحملون أن يثبّثوا قدرات فائقة، ومرونة، ملحوظة، كمرئى لهم حكم أنواع عديدة من الشعوب، وأقاليم عديدة من الأماكن، وبرغم من التقارب العام بين بلاد الشام والعراق ومصر ودارسن، إلا أنه نشأ

(1) موريس لومبرد: الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي، ص 162.

تباينات حضارية وتاريخية ومكانية فرضت نفسها بقوة، وكان التحدي الكبير المحافظة على إستمرارية «الحياة» و «الحضارة»، و الاتصال بالمكان والذات فيه، والإقلاع عن فكرة مغادرته من قبل السكان السابقين، لقد ظل هذا التحدي قائماً وماثلاً أمام كل عملية فتح، وإستطاع الفاتحون تجاوزه بنسبة عالية. ربما كان سكان بلاد الشام أكثر البلدان تخوفاً من القادمين الجدد، وقد أحلى بعضهم بلدانهم بصورة شبه كاملة، كما أوحى بذلك سياق التطورات، لا سيما عبر سواحل البحر المتوسط، لكن التأمل في فتوحات هذه البلاد لاحقاً، وكذلك سائر الجهات الأخرى، يفيد بأن أكثرية الناس في العراق وفارس ومصر وشمال أفريقيا استمرت في نواحيها، أو على الأقل لم تحدث في أي منها تبدلات ديمغرافية ملحوظة.

ومن الأمور اللافتة ما رواه اليعقوبي عن التعامل مع «أشراف الأعاجم»، فقد عُدَّ مجموعة من الدهاقين الذين جرى تقريبهم وإستيعابهم بأمر من الخليفة، حيث فرض لهم «الفين ألفين» وقال: قوم أشراف أحببت أن أتألف بهم غيرهم»، ويذكرنا هذا الإجراء بطريقة الرسول في التعامل مع أشراف مكة لا سيما قبيلة قريش. فالموضوع لا يقتصر على أشخاص معدودين بجزء إرضائهم أو إغرائهم، إنهم ليسوا سوى أبواب ومنافذ للوصول إلى من خفي عن المجموعات البشرية التي ترمق كل سلوك أو موقف يصدر عن هذه النماة المؤثرة فيهم. نشير هنا إلى أنه ثمة عمليات فتح نوعية تمت على أيدي بعض الدهاقين في خراسان بالتشبيك مع ولاية المسلمين في المنطقة.

إذن، نحن إزاء سياسة تعتبر أن الأصل إبقاء الآليات والأدوات والمخزبات على حالها، والإكتفاء بنحويل وجهتها وعوالتها إلى السلطة الجديدة، نوع من مجازاة الواقع ومداراته، بغية إحداث التحول من دون حصص سوى مكلفة. لسنا في صدد تفكيك شبكات وعلاقات قديمة، بغية تأسيس أخرى.

(1) اليعقوبي: التاريخ، ج 2، ص 153-154.

وجديدة، فهذا أمرٌ يجعل الجميع مستغرقين في ما لا ضرورة أوجدوى فعلية له، بل يبعثهم أمام مواجهة وجودية مع طبائع الأمور والأشياء.

توقف المؤرخ صالح العلي أمام هذا النوع من السياسات ذات الطابع الإستراتيجي، مستنحاً «أن المدن إحتفظت بنظمها القديمة في تنظيماتها الإدارية، وأن التغير الذي حدث فيها يرجع إلى التطورات السلمية الويدة التي حدثت فيها»<sup>(1)</sup>. لا يمكن عزل أية مجموعة عن تاريخها وتجاربها، إلا بقدر عزلها عن مكانها وأرضها وبيئتها وغير ذلك من خصوصياتها، وهذا نوع من الدخول في المجهول، من دون ضرورة أو جدوى راجحة، كما أشرنا.

لقد كان إعمار، أو على الأقل إبقاء العمران القائم على زخمه، واحدة من المبادئ الضرورية لبناء السلطة الجديدة وإستقرارها بأقرب وقت وأقل كلفة، ولم يكن رفض توزيع الأراضي المفتوحة على الفاتحين وتعمد إبقائها في أيدي أصحابها مقابل دفع الجزية، إلا لكون أصحاب الأرض «أعلم بها وأقوى عليها من غيرهم»<sup>(2)</sup>، هذا ما أراده الخليفة الثاني بالضبط في كتابه إلى واليه على بلاد الشام أبي عبيدة بن الجراح.

هذا العمران ينبغي أن يستمر في ذلك الزمن، بغية إستمراره في المستقبل، ولصالحه الطرفين على السواء، من هنا كانت التوصية بأهل الأرض: «وامنع للمسلمين من ظلمهم، والاضرار بهم، وأكل أموالهم، إلا بحقها»<sup>(3)</sup>، قد لا يتفق المتحورون مع التجمعات البشرية القائمة في الدين والسلوك الشخصي، ولكنهم يتفقون، حتماً، على ما يزيد في إنتاجية الأرض، ويحجي محاصيلها ويحضر من طرق رعايتها. إنهم متفقون، حتماً، على ما يصلح المكان، ويزيد في عمارته وتحسين أحواله. لقد جرى تجميد وضبط كل أنواع الاختلاف والحلاف،

(1) العلي: الفتوحات الإسلامية، ص 180.

(2) الأردى: تاريخ فروع الشام، ص 141.

(3) المصدر نفسه، ص 142.



والتي الجميع حول المكان، كما استقروا وحضروا فيه. لقد شكل المكان بقابليته المحايدة، وطاقاته التي لا يختلف عليها إثنان، وأصول مداراته التي يؤمن بها الجميع ويسعى فيها الجميع، لقد شكل هذا المكان، بهذه الجبهة مصدر تقارب وتعايش، كما شكل مساحة تشارك وتجاور، وخضع الجميع لمنطقه، ليشكل ذلك أول الطريق نحو التفاهم، ثم التسامح، وبالتالي تقاسم هموم الحياة ومتاعها، وصولاً إلى الالتزام والتوحد حول القيم والمبادئ، والدين الواحد، وهذا ما حدث فعلاً.

### 3- تجربة التعامل مع الأساورة.

هذا التدرج، والتأني، والرفق في سلوك الطريق وقطع المراحل، كان واضحاً في العديد من المواقف والتجارب الناشئة أثناء الفتوحات، وقد نقل البلاذري إحدى هذه التجارب التي تعود لأحد القادة من نخبة الجيش الفارسي، أبي الاسواري<sup>(1)</sup> وأتباعه، الذي لاحظ ظهور الإسلام «وأن السوس قد فتحت والأمداد متابعه»<sup>(2)</sup>، فأرسل إلى أبي موسى الأشعري أنه قد أحبّ الدين في دينه، وبالتالي مقاتلة العجم، وتجنبّ الدخول في أي صراع داخلي بين المسلمين، «وعلى أنه إن قاتلنا العرب منعتمونا منهم واعتصموا عليهم، وإن نزل حيث شئنا من البلدان، ونحن فيمن شئنا منكم»<sup>(3)</sup>، مع الحضور من شرف العطاء. فأجابهم أبو موسى الأشعري «بل لكم مالنا، وعليكم مدنا»<sup>(4)</sup>، ولما رفضوا ذلك سأل الأشعري الخليفة في أمرهم فأشار عليه «أن أعطهم ما سألوا»<sup>(5)</sup>، وكان ذلك مقدمة للإلتحاق بالمسلمين، وقد اجرت معه

(1) البلاذري: فتوح البلدان، ص 362.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه.

(5) المصدر نفسه.

عصر ساسان، ثم دخلوا بحلف مع بني تميم، بعد ذلك جرى تخطيط أماكن خاصة بهم فنزلوا بها، وحفروا نهرهم المعروف بنهر الأساورة. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فقد التحق بهم «قومٌ من مقاتلة الفرس ممن لا أرض له»<sup>(1)</sup>، في خطوة أولى نحو دخولهم الإسلام. وتكرر السلوك نفسه لدى مجموعة يقطن عليها قبيلة «السيابجة»، كانوا قد سمعوا ما كان من أمر الأساورة فأسلموا، وأنزلهم أبو موسى الأشعري البصرة، كما أنزل أسلافهم.

قد أبقى الخليفة على خصوصية ما للأساورة، معوّلاً على مرور الزمن، واستعداداً في الوقت نفسه من طاقاتهم، أو على الأقل تحييدها من المعركة. وبرغم من طلبهم عدم الدخول في ما للمسلمين وما عليهم، وهو طلب لا يخلو من رغبة، فقد جرى تحريرهم من أي قيد يتعلق بأماكن ترونها، بل من أي قيد يتعلق بالمجموعة أو القادة الذين سيخضعون لهم.

بجهر من شروطهم وإصرارهم عليها أنهم على درجة ملحوظة من الوعي. ويسكون رؤية إجمالية للمواقع القائم والمترقب، هذه الرؤية هي التي دفعتهم سعيهم إلى تقديم العرض الذي يتضمن ما يمكن وصفه بالكياليات الضرورية للحلف. كالدخول في الدين ومقاتلة العجم، كما يتضمن محاذير وجبهة من غير عدم الدخول في الحروب الداخلية للمسلمين. على أن المشاركة في دفاعهم تستوجب مشاركة أخرى من قبل المسلمين في مقاتلة الغرب، فيما لو جرت إعتداء من قبلهم على الأساورة. وهذا مضيق فيه من شروطهم التي تتعلق بالفرس، كما يوحي بهذه الهدية السهلة والخبرة التي تسع في هذا تشجيع التجنيد للمحاربين الفرس.

قد حظي الأساورة بالموافقة على كل مطالبهم، كما قاموا بكل ما يوجب منهم تحالفهم مع المسلمين، واستطاعوا جذب مجموعات جديدة. بحيث لم يحرط الجميع في السنة الحديدة للمسلمين، واختفى تدريجياً هذا

المصطلح ومع تلك الخصوصية في فترة وجيزة.

لقد قُدمت هذه التجربة أنموذجاً من المرونة في التعامل مع المجموعات المختلفة في تجربتها التاريخية وبيئتها المكانية، وكما كانت واعية وجريرة وواقعة، فقد نالت كل مطالبها، بالرغم من أن أحد هذه المطالب (مواجهة) اعتداء عربي ضد الأساورة) يشكل تورطاً محتملاً مع من يُفترض أنهم من المدن الأساسية للدين الجديد والسلطة الجديدة.

لقد كانت المراهنة كبيرة على وحدة المواجهة والمصير، ووحدة الدين والأمن والسلام الداخلي، وأخيراً على وحدة البيئة وإطار العيش العام، لقد كانت هذه المراهنة قادرة على تجاوز كل التفاصيل العابرة والمؤقتة لمصلحة انقسام أقوى المجموعات العسكرية، وأشدّها خطراً على المسلمين، إلى الدين الجديد. لقد شكل الأساورة، بكل ما لديهم من قوة وتجربة فريدة، إحدى الجيوش المؤثرة التي كان يتعين مراعاتها من قبل الفاتحين للدخول إلى الأماني والجغرافيا الجديدة، البوا تناجاً لها وتعبيراً عنها بمعنى من المعاني. وبالإمكان عزل هذه الشريحة النافذة والنشطة عن كل ما يربطها بمكان إقامتها ونمط عيشها، إن هذه الحيثية لا تختلف عن أي حيثية أخرى يمكن توضيحها في الحرب القائمة للفاتحين الجدد، إلا بقدر معاندتها ومعارضتها المطلقة للمرحلة الجديدة، وهذا ما لم نلاحظه في سلوك الأساورة على الإطلاق.

ثالثاً: الخليفة عمر وهواجس المكان.

1- الخليفة ووعي المكان.

نقل المسعودي في كتابه «مروج الذهب»<sup>(1)</sup> نصاً مطوّلاً روى فيه أن الخليفة عمر بن الخطاب، وبعد فتح العراق والشام ومصر، كتب إلى أحد حكماء العرب ما يلي: «إنا أناس عرب، وقد فتح الله علينا البلاد، ونريد أن نتبرأ الأرض وسكانها».

(1) المسعودي: مروج الذهب، ج 2، ص 41 و 42 و 43.

للبلاد والأمصار، فصف لي المدن وأهويتها ومساكنها، وما تؤثره التربة والأهوية في سكانها»<sup>(2)</sup>.

لم يذكر المسعودي سند الرواية، مكتفياً بعبارة «ذكر ذوو الدراية»، وإذا كان هذا المؤرخ في عداد كبار المؤرخين المسلمين، لا سيما لجهة عنايته بالسكان والجغرافيا عموماً، وإذا كان منطق الأحداث يساعد على قبول ذلك، فإننا سنطعن مع هذا النص بواقعية وتفهم، ولا بد من التنويه هنا أن هذا النوع من نهج حطي باهتمام الخليفة الذي لطالما حذر قاده في معظم الفترات من معة الخروج عن حدود الصحراء<sup>(3)</sup>، أو ضرورة عدم وجود دصل مني بين الخليفة أو القائد وبين المسلمين<sup>(4)</sup>.

إن أول استنتاج يمكن التوقف عنده هذا الوعي المكاني المسبق الذي تحوّل إلى تفكير جغرافي له آثاره الميدانية كما الذهنية. ويظهر أن مستوى هذا التفكير لم يبعد بالدرجة الأولى إلى مستوى الإنهماك الفعلي في أمور المكان وشجونه. لقد عاش العرب تحت وطأة الظروف المكانية - القاسية، وبالرغم من كثرتهم فقد ظلّوا يتحسّسون كل إختلاف أو تغيير في بنية المكان المناخية وغير المناخية، بل إن قسماً من تكيّفهم كان يتأثر بمستوى إدراكهم لمنطق الطبيعة وعناصر التبدّل والتحوّل فيها، بطريقة بداية على الأقل. في أي حال إن إثارة هذا النوع من التفكير حتى في زمن المسعودي له دلالة وأهميته.

2- الخليفة وهاجس التمدّن.

الهاجس الأول الذي يبدو أنه أخذ القسط الكبير من قلق الخليفة هو البيئة المدنية أو المدنية، فقد طلب من هذا الحكيم «فصف لي المدن وأهويتها

(2) مسعودي: مروج الذهب، ج 1، ص 41.

(3) مسعودي: تاريخ الأمم والملوك، ج 1، ص 48.

(4) مسعودي: مروج الذهب، ج 2، ص 490 و 491.

وساكنها<sup>(1)</sup>. وهذا أول الوعي بمفهوم بيئة المكان وتفاعلها، لا سيما حين الهواء، ومصطلح الهواء على ما يبدو كان يقصد منه مانقصده اليوم من «مناخ» المناخ، ثم تابع هواجسه فقال «وما تؤثره التربة والأهوية في ساكنها»<sup>(2)</sup>.

ما يمكن أن نستوحيه من هذه المطالب هو الغموض لدى عرب الجحور عموماً، والخليفة بالتحديد، في ما يتعلق بطبائع المدن وأوصافها. فقول «سليمان» لي «المدن» يعني، بالدرجة الأولى، عدم وجود تصوّر كافٍ لهذا النمط والبنية المكانية، وهو شبه بما نقل عن الخليفة نفسه عندما أرسل إلى قائده عمرو بن العاص في مناسبة أخرى «صفي لي البحر وراكبه»<sup>(3)</sup>، والوضعيتين متشابهتين لاجبة الغموض والقلق لدى الخليفة.

إن هذا التساؤل أو السؤال يضعنا أمام حجم المخاوف الذي شعر بها صاحب القرار في لحظة الانتقال بين إقليمين مناخيين، ولقد كانت التقديرات الأولى سيّرة ومنطقية، ولا ينبغي الذهاب رأساً إلى المفهوم التقليدي الذي يكثر بوصف الإقليم الجديد بأنه «أكثر رخاء»<sup>(4)</sup>، مقارنة مع «الحياة القاسية في شبه الجزيرة العربية»<sup>(5)</sup>، وبالتالي الخروج بنتيجة فورية بأن العرب «كانوا بالتاكيد قادرين على التكيف بحياة أكثر رخاءً في مكان آخر»<sup>(6)</sup>، كما رأى أحد الباحثين المعاصرين. فهاجس الخليفة، على ما يبدو، كان يصدر عن مخاطر عبث الانتقال، عن الفترة التاريخية التي تفصل ما بين الاستقرار الأوّلي والتكيف. وهي فترة قد تكون في حجم الأجيال، هانك عن الكلفة والعواقب التي قد

(1) السعدي: المصدر السابق، ص 41.

(2) المصدر نفسه.

(3) السعدي: تاريخ الأموي، ج 4، ص 258.

(4) شأن: صدر الإسلام والدولة الأموية، ص 11.

(5) المرجع نفسه.

(6) المرجع نفسه.

باتجاه العودة إلى المواطن الأولى، هذا ما كان يدور في ذهن الخليفة في تلك اللحظة التاريخية على الأرجح.

ثمة ظروف وعادات وقابليات، وقدرات وتهديدات وتحديات، لا يمكن إن تعرض فوراً بالمناخ المعتدل والأرض الخصبة، وإن ما أنته ظروف حاكم في شبه جزيرة العرب من ظروف وعادات، وغير ذلك مما ذكره آباء، يعني أن يتفق نظيره ومشيله في بلاد الشام والعراق ومصر، قبل الحديث عن التكيف أو الاستقرار النهائي. ثم إن التدقيق بما سيقدمه الحكيم للخليفة سيكشف بعضاً من تلك المبرر الذي شعر فيه الأخير.

### 3- المكان في الشام ومصر والعراق.

بعد أن عرض له مخاطر التطرّف في أي اتجاه من الاتجاهات الأربعة، كره بشكل تطرّف في البرودة والحرارة، وبعد أن ينصح به المناطق المعتدلة، نرى حكيماً بالحديث عن الشام، البلد الذي تغطيّه السحب، ولا تتركه الرياح، جعل الأجسام رطبة والألوان صافية، إلا أنها تلبّد الأحلام والفهم، وتجعل سمع في حالة من الضباب، كما تذهب بماء الفريضة. ثم يعرج على خصوبة هذه بلاد وأشجارها وأنهارها إلى أن يتوقف عند معالمها الدينية، كمنار للأنبياء، وأنه عثر في ربوعها أشرف خلق لله تعالى، وأما جباله فهي مساكن المجتهدين المستعدين<sup>(1)</sup>. قد يكون في بعض ما ورد إضافات من قبل الفلك، لكن أياً يكن مصر هذه الميزات والحجيات، فإنها تنطوي على إشارات بالغة الأهمية في تعريف المكانية بين شبه جزيرة العرب وبلاد الشام.

أما مصر فيرى أنها كانت ديار الفراعنة، وأنها محمودة بفضل نهر النيل، ودفنها من حمدها، ذلك أن هواها راكد، وحرها زائد، وشربها وارد، فلا تحفظ من الألوان وتخب العطن، كما تنسب في شبه (إس) لا أنه معد كبير.

التمية، كالذهب والجوهر والزمرد والأموال، وتسمي بأنها مغارس الغلات،  
وانها تجعل الأبدان سنية، والبشرة مسودة، والأعمار طويلة. ثم يستعرض ذكر  
أهلها ورياءهم، وخبثها وخدعها، قبل أن يخلص إلى فكرة جامعة بقوله «إلا أن  
بلد مكب لا بلد مسكن، لترادف قننها وإتصال شروها»<sup>(1)</sup>.

وفيما يتعلق بالعراق فقد وصفه حكيم الخليفة بشار الشرق، وإن  
الاعتدال، حيث الأمزجة الصافية، والأذهان اللطيفة، والمسرات المنصنة،  
بلد الفضائل الكثيرة، وغير ذلك من المزايا الطبيعية والحضارية الراقية<sup>(2)</sup>.

بمعزل عن دقة ما أورده هذا الحكيم، لكنه - على ما يبدو - قدم وصف  
متوازناً ينم عن فهم شامل لما يمكن أن يمثلته المكان بالنسبة للإنسان، وفي  
الوقت نفسه كشف عن أن عملية الانتقال ليست يسيرة، ما يعني أن البلاد البعيدة  
وبالرغم مما فيها من المخاطر والتحديات، إلا أنها ستكون أفضل، مقارنة بما  
كانوا سيواجهونه في مواطنهم الأولى. وقد أورد الطبري في تاريخه العديد من  
الإشارات التي تتوافق مع ما عرضه حكيم الخليفة: منها أن وفوداً من المسلمين  
جاءت الخليفة من القادسية والمدائن، فلما نظر في وجوههم استغرب ملامحهم  
فقال عن السبب «قالوا: وخومة البلاد»<sup>(3)</sup>، ومنها أن الخليفة نفسه همَّ إلى الشام  
غازياً في السنة السابعة عشرة للهجرة، حتى إذا كان بناحية سرغ<sup>(4)</sup> «لقبه بالبر»  
الأجناد فأخبروه أن الأرض مقيمة، فرجع بالناس إلى المدينة<sup>(5)</sup>، وفي السنة  
الثامنة عشرة حدث طاعون عَمَّواس<sup>(6)</sup> وقد انتشر بالشام ومصر والعراق، إلا أن

(1) المصدر السابق، ص 43.

(2) المصدر نفسه، ص 43 و 44.

(3) الطبري: تاريخ الأمم، ج 4، ص 40.

(4) سرغ: «أول الجبال وأخر الشام بين الحيرة وتيوك...» الحموي: معجم البلدان، ج 1، ص 211.

(5) الطبري: المصدر السابق، ج 4، ص 57.

(6) ضوئاس: «قرية من قرى الشام، بين الرملة وبيت المقدس، وهي التي يسمونها ضوئاس»  
منها بلاء... البكري: معجم، ج 4، ص 227.

«سفر بالشام»<sup>(1)</sup>، وقد بلغ عدد موتى هذا الطاعون ما يقارب خمسة وعشرين  
ألفاً من الناس<sup>(2)</sup>.

ما يعيننا في ما تقدم حجم الظروف الدافعة التي كانت خلف عمليات التنوع،  
حيث لم تقو على إعاقتها أو تعطيلها العديد من الظروف الكابحة من قبل ما  
وكناه آنفاً.

❦❦❦

(1) الطبري: المصدر السابق.

(2) المصدر نفسه، ج 4، ص 101.



## الفصل الرابع

### المسلمون العرب والبحر

أولاً: إشغالية العرب والبحر.

١- دور الموقع والحدود.

شكل موقع شبه جزيرة العرب بين البحر الأحمر والمحيط الهادئ والخليج واحدة من أبرز مميزات هذه المنطقة من القارة الآسيوية، والقول بأنها شبه جزيرة يشير بأن التحديد تم في ضوء المكان ويقاموسه. في مثل هذا الموقع، وهذا القدر من الحدود مع المياه التي تحيط بالجهات الثلاث، لابد من التوقف نبلاً عند تاريخ منطقة شبه جزيرة العرب مع هذه الظاهرة الطبيعية التي اصطلح على تسميتها بالبحر.

التاريخ القديم، كما الوسيط، فضلاً عن الحديث والمعاصر، شهد العديد من أنواع النشاط الإنساني في البحر، وثمة من اتخذه طريقاً، أو مورداً عدته، أو ثروة، وحتى لحماية موقعه أو تحقيق انتصاراته، وقد يكون مجالاً لتوسيع الدول، أو زيادة في مناطق النفوذ، وغير ذلك. ولا يصعب على متابع التطورات التاريخية لرؤية جزيرة العرب، لا سيما عشية ظهور الإسلام، أن يلاحظ نوعاً من أنواع سعي النفس عن الخوض في هذه الظاهرة الطبيعية الواسعة والشاسعة، وإنه من قبل المفارقة أن يكون لهذه المنطقة هذه المساحة المديدة مع البحر. من ثمة أن تتأثر به حياة قسم ملحوظ من سكانها، لكن ثمة ما يمكن التوقف عنه في هذا المجال.

بإستثناء القسم الشمالي الذي يربطها ببلاد الشام والعراق، يمكن القول بأن الحدود الشرقية والجنوبية والغربية هي حدود بحرية، لكن ما يعيننا بالدرجة الأولى في هذه الدراسة هو الحجاز الذي يقع في وسط القسم الغربي من شبه الجزيرة، أي القسم الأقرب إلى البحر الأحمر. أما الحدود الشرقية والجنوبية فقد كان لكل منها تجارب خاصة مع البحر، الأولى مع منطقة الخليج حيث طغى الوجود الفارسي، والثانية مع المحيط الهندي، حيث لعبت مناطق الشرق الأقصى، لا سيما الهند والصين دوراً ملحوظاً في العديد من أنشطته، بالإضافة إلى الدور الثابت للدول والإمبراطوريات المصرية واليونانية والرومانية والفارسية وغيرها، حيث كان الحضور في البحر واحدة من أبرز المؤشرات على الوجود الإمبراطوري للدولة، وبالتالي قدرتها على الهيمنة، لا سيما البحرية، حيث ظل هذا المكان مسرحاً لما يمكن تسميته بالقوى العظمى في التاريخ. والراجع لدينا من خلال المصادر المتوافرة أن خبرة العرب الشرقيين والجنوبيين لم تسرّب إلى الداخل، ولم تنعكس نمطاً مؤثراً في النواحي الداخلية لشبه الجزيرة. ويمكن القول أن أكثر الأنشطة ذات الصلة بالبحر والتي امتد تأثيرها المحدود إلى الداخل هو النشاط التجاري، فقد تحوّلت بعض النواحي للمخطوط التجارية بين الشرق والجنوب، وبين الجنوب والشرق، والشمال والشرق، إلى ما يشبه المحطات والمناهل، حيث استغادت منها القوافل القاطنة قريباً منها.

أما ناحية الغرب فلم تعد المعطيات التاريخية المتوافرة عن أي شيء حادراً مؤثراً، فقد طُلت هذه الناحية، على الأقل قبل عقود من ظهور الإسلام. مع تطور التطورات التاريخية التي حفلت بها النواحي الأخرى من شبه الجزيرة، يمكن تعليل ذلك بالعناصر المعيقة التي جعلت السواحل غير مؤهلة لعب دورها في بعض التطورات المحدودة التي سوف نتوقف عندها لاحقاً. كما يمكن تعليل ذلك

(1) لطفي عبد الوهاب: العرب في العصور القديمة، ص 322.

محاكاة المياه على هذه السواحل، فضلاً عن وجود الشعب المرجانية<sup>(1)</sup> التي حالت بالفعل دون أي من النشاطات الواسعة بسبب خطورتها وإعاقتها العملية. إنّه، نحن إذاء تضاريس ومستويات مائية، ومكوّنات طبيعية، حدثت فعلياً من في إبحاء جدّى نحو البحر الأحمر، وإذا استحضّرنا مقولة أن البحار عموماً، كانت مرتعاً للقوى العظمى والإمبراطوريات النافذة في التاريخ القديم، فإنّ منه بطريقة أفضل هذا الإعراض الملحوظ لعرب المنطقة العربية من شبه الجزيرة عن البحر.

## 2- مقارنة ابن خلدون.

توفى ابن خلدون عند هذه الظاهرة في التاريخ العربي، ظاهرة الإعراض عن البحر، فاعتبرها نتيجة بنية نفسية وصفها بـ «التوخّش» التي تدفعهم لإنتهاب وسب ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر<sup>(2)</sup>، فهم «لا يذهبون إلى البرحة والمحاربة، إلا إذا دفعوا بذلك عن أنفسهم»<sup>(3)</sup>. يبدو من هذا التحليل أن يوفى العرب من البحر، حسب ابن خلدون، يصدر بالدرجة الأولى عن معنهم الحفوة وطريقتهم السهلة، إنهم شعب يريد العيش بأقل الجهد وأبعد ما من خطر، وما كانت غزواتهم فيما بينهم إلا تعبيراً عن هذا الجموح نحو تأمين حاجتهم المادية بأسرع ما يمكن، ومن دون أية أعباء موضوعية. وقد توسّع ابن خلدون في هذا الميل عند العرب الذين يختارون الأسكن السهلة، ويتجنبون كل ما هو وعراً، كالجبال أو الهضاب، ويقصدون السانط لعب الحمية لصعبة. وقد كان هذا دأبهم في البرّ، فهم أكثر حذراً وأشدّ توجّساً في البحر، لكونه يجمع صعوبة العيش إلى الإحساس الشديد بالخطر.

(1) ابن خلدون: الحجاز والدولة الإسلامية، ص 73.

(2) ابن خلدون: المقدمة، ص 286.

(3) ابن خلدون: المقدمة، ص 286.

وفي مكان آخر يكتفي صاحب المقدمة ببداوة<sup>(1)</sup> العرب تعليلاً لموقفه من البحر، فبعد أن يستعرض أحوال الأمم والشعوب الأخرى مع العرب يتطور موقف العرب، من الحذر الشديد في عهد الخليفة عمر من الحصار إلى الإنخراط الكلي فيه خلال العهد الأموي، وبالتالي تحقيق إنجازات حربية ومدينة ملحوظة على شواطئه وجزره، لا سيما في بلاد الشام وأفريقية والحبش والأندلس<sup>(2)</sup>. والملاحظ هنا أن ابن خلدون ترك للمقارئ وحده مهمة تعليل هذا التطور، فقد اكتفى بوصفه، ولم يتوغل عميقاً بأسبابه التي تعود بالدرجة الأولى إلى الأماكن الجديدة العديدة التي استقروا فيها وشعروا بضرورة تكييفهم معها وبالتالي إنخراطهم بتجاربهها ونمط عيشها. وإذا كان لنا أن نخرج باستنتاج، فيما يتعلق برأي ابن خلدون يمكن القول أن ما وصفه بالطبيعة المتوحشة للعرب وبالتالي تجنبهم الصعاب، وتوَجُّسهم من كل خطر، لا يعود بالدرجة الأولى إلى بينهم النسبة الفطرية والأصلية بقدر تأثرهم بطبيعة المكان ومنظومة الله الذي طالما أشار إليها، حتى إذا تبدل المكان تبدل، تدريجياً، كل شيء. قد بدأ خروج العرب من هذه السلوكية مع بداية خروجهم من هذه البيئة، وتطوُّر عن التردد والتجَبُّ والحذر الشديد، مع تخليهم التدريجي عن عالم البلى وعلاقاتها، وقد أسهم ذلك في ظهور ثقافة جديدة وذهنية مختلفة.

### 3- مقارنة معاصرة.

ثقة مقارنة لعلاقة العرب بالبحر قبل الإسلام كتبها اسماعيل حفي إبراهيم تنصُّن تفاصيل وحيثيات من المفيد التوقُّف عندها. فقد أشار إلى مدى حرية العرب من الخشب الصالح للسفن القوية، وكذلك الحداثة<sup>(3)</sup>.

(1) ابن خلدون: المقدمة، ص 437.

(2) المصدر نفسه.

(3) حفي إبراهيم: أسواق العرب التجارية في شبه الجزيرة العربية، د. النشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ص 25 و 26.

تسبب بالمساير، وأنها ليست قريبة من أي بلد يستحجم، ثم لفت إلى عدم وجود نهج صالح للملاحة فيها، أما موانئها الممتازة فقليلة. واعتبر صاحب كتب أسواق العرب التجارية في شبه الجزيرة العربية، أن البحر الأحمر، الذي يمتد نحو 1200 ميلاً، يفصل بين مصر وجنوب الجزيرة الغربي (بحوالي 250 ميلاً) أكثر مما يقرب بينهما، وأن النصف الشمالي من هذا البحر يطوي على عقبات وصعب بالكاد. فعلى الجانبين صحراء جافة تمتد لمئات من الأميال، والشعاب البحرية الضخمة تحف كلا الساحلين، كما تمتد إلى الوسط، ما استلزم معرفة وحكمة في تلافي الاصطدام بها، وهذا لم يكن متوافراً لدى العرب. أما الجزر البحرية فهي للقراصنة، والبدو الجياع، الذين يرون فيها امتداداً بسيطاً لاعتراهم في صحراء أكثر من كونها محطت لنس على الطريق. ثم نبهة نسوح لا تمنع منجاً أماً من أخطار العواصف والقراصنة.

توقف إبراهيم عند صعوبة الملاحة في القسم الشمالي من البحر بسبب الرياح الشمالية التي كانت تهب جنوباً على هذا الجانب من البحر طوال العام، وهذا ما ساعد للملاحين الأوائل على مقاومته. كل ذلك دفع العرب لإعتماد طرق برية عبر صوم الساحل الغربي، كبديل آمن برأيه، مقابل أحوال البحر الأحمر.

ويعتبر أن سواحل الخليج أي الحدود الشرقية كانت أكثر ملائمة، إلا أنه اعتبر مستوى عمق المياه جمع ما بين الساحلين، وكذلك القرصنة المنتشرة على شواطئ والجزر.

بكر اعتبار هذا التعليل من النوع الجغرافي المكاني بشكل عام، حيث سبب الثروة الطبيعية السلبية في المواد والمياه، كما نوه بالمواع العريضة من الأسماك والحيوانات، من دون أن ينسى عنصر الاستثمار البشري السلمي. فبالإضافة إلى المناخ المتمثل بالعواصف والرياح الشمالية المتواصلة من ذلك، نحن هنا أمام تحكُّم يعني بذكر في موقف عدم لأحوال من البحر. فقد كانت القبائل العربية بين مكائين أحدهما مالوف ومجرب وقد أثر

عبياً في السلوك والقيم، وثانيهما موجش، وقليل التجربة، وينطوي على شروط غير متوافرة، وعناصر من التهديد متعددة، فمن الطبيعي أن تتحاذر القبائل للبحر، تاركة البحر للأجيال والتطورات اللاحقة، وهكذا جرت الأمور.

#### 4 - العرب والمنافذ البحرية الثلاثة.

ثمة ثلاثة منافذ ذكرت في المصادر الجغرافية، كمراسي ونقاط عبور من البحر الحجازي إلى البحر الأحمر والعكس، وهي «الشَّعْبِيَّة» و«جُدَّة» و«البحار»، لا يكون إطلاق مصطلح المرفأ على كل واحدة منها نوعاً من التسامح، لكن أقرب إلى المراسي الصغيرة منها إلى المرافئ المعتادة<sup>(1)</sup>.

#### أ - الشَّعْبِيَّة

نقرأ في معجم البلدان لياقوت الحموي أن الشَّعْبِيَّة كانت «مرفأ مكة ومُرس سفنها قبل جُدَّة»<sup>(2)</sup>، وأنها مرفأ «السفن من ساحل بحر الحجاز»<sup>(3)</sup>، وقد مرر أحدائها غير يتعلق بالسفينة التي حرقها الريح إلى هذا المرفأ، قبل أن تعطل. حيث جرى استخدام خشبها في تجديد بناء الكعبة قبل الإسلام، ولاحقاً عند هذه الناحية «قرية على شاطئ البحر على طريق اليمن»<sup>(4)</sup>، أما البكري<sup>(5)</sup> فقد نقل حادث السفينة المنحرفة باتجاه الشَّعْبِيَّة، كما أفاد بأن هذه البقعة هي قرية على شاطئ البحر بطريق اليمن أيضاً.

يبدو مما ورد لدى هذين المرجعين المشهورين أن مرفأ الشَّعْبِيَّة لم يعد دوراً بارزاً في تاريخ المنطقة، فقد اقتصر أمره على بعض الخدمات المحدودة.

(1) إبراهيم يصفون: الحجاز الدولة الإسلامية، ص 20.

(2) الحموي: معجم البلدان، ج 3، ص 350 و 351.

(3) الحموي: معجم البلدان، ج 3، ص 350 و 351.

(4) المصدر نفسه.

(5) إبراهيم يصفون: الحجاز الدولة الإسلامية، ص 20.

والتي يُرجَّح أنها استثنائية وفي حكم الضرورة، وأن تحوُّلها إلى قرية يؤكِّد محدودية نشاطها، حيث أن المرافئ الناشطة من شأنها بناء مدن وأمصار، وليس قري أو أماكن استقرار محدودة.

فهم من كونها منفذاً إلى طريق اليمن أن حركة العبور قد طغت عليها وجهة اليمن إلى الجنوب، ما يوحي بأنها كانت شرياناً ملحوظاً بين عرب الحجاز وعرب الجنوب. تبقى إشارة أخيرة إلى أن غياب هذا المنفذ كمرافأ لمكة بعد ظهور جُدَّة يعني أنه أدنى فعالية، وأقل فائدة، مقارنة بالمرفأ الجديد، وهما ما نشأ تعطيله بشكل نهائي، بعد تحوُّله إلى قرية هادئة غير مُستقطبة.

#### ب - جُدَّة

أما جُدَّة فهي المرفأ الثاني، وقد ذكر البكري في معجمه أنها البلد على ساحل بحر اليمن وهي فرصة مكة<sup>(1)</sup>، وقدّر الانتقال من مكة إليها ثلاث ليال، وأنها كانت مستقراً لقليلة قضاة في ما قبل الإسلام، حيث نزلوا وانشروا فيها وكثروا<sup>(2)</sup>. وقد حدَّد إطارها الجغرافي من الساحل، مروراً بالسَّهْل، وحتى الجبل، ما يعني أن أهمية هذا المرفأ لم تقتصر على ساحلية الموقع، بل تجاوزته إلى ما هو أبعد من ذلك.

أما المقدسي فقد تحدث عن «مدينة على البحر... عامرة آهلة»<sup>(3)</sup>، وهذا الكلام يعود إلى زمانه في أواسط القرن الثالث الهجري، لكن يُستفاد منه طبيعة المكان الثابتة، وإمكاناته الحياتية التي تحوُّل قسم كبير منها إلى فعل، بعدما كان قرية في زمن الإسلام الأول. إن إشارته لعلة القوس عندها، وأن لهم به قصوراً معينة، يبرِّح أن يكون عائداً لزم ما قبل الإسلام، حيث يلخص هذا النوع من المسكن والمنشآت العامة.

(1) الحموي: معجم، ج 2، ص 114 و 115.

(2) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص 81.



لقد انفتحت المصادر على شح المياه<sup>(1)</sup> العذبة وتدرتها في جذة كما في الشعبية، وأن الفاطنين في هذين الموضوعين كانوا يقطعون أميالاً عديدة لتأمين حاجاتهم من هذه المادة الحيوية.

ما تقدم هو أبرز ما تناقلته المصادر المتوافرة لدينا، وكما نرى، فإن معضد لا تشكل عصباً مؤثراً في مجرى التاريخ الإسلامي في مراحله الأولى. وبالإضافة إلى ذلك، فإن المصادر لم تستخدم في أية مناسبة من مناسبات الفتح لمصر، أو حتى في سياق الإمدادات التموينية الحربية أو السلمية، على ما يبدو. إن الإفتقار من الصفتين المتقابلتين، أي بين السواحل الشرقية والغربية للبحر الأحمر، يكون معدوماً، فوجهة هذين المرفأين لا تغير أي انتباه للغرب، وقد اقتصر الأمر على الجنوب، علماً بأن المسافة إلى الجنوب أطول منها إلى الغرب، وذلك قبل الفتح لمصر، وخلالها وبعده، على السواء.

صحيح أن مكة فقدت دورها كمركز تجاري مع السنوات الأولى من تاريخ الإسلام، إلا أنها لم تفقد دورها الديني الذي تعزز ووصل إلى ذروته في هذه السنوات، لا سيما بعد فتحها من قبل المسلمين.

إن هذا المعطى التاريخي للشعبية ثم جذة، لا يمكن أن يفهم بشكل واقعي إلا من خلال المزيد من البحث والتقصي في مكوناته ومقوماته الفعلية من حيث، بالفعل، بينهما وبين الدور المرتقب من الناحية النظرية على الأقل. وهذا شكل من أشكال التحكم السلبي للمكان، حيث تتراجع أهمية الموقع وجوهره إذا ما ضغطت عوامل المناخ، من رياح وعواصف مقرونة بحذف وجود الماء، وتترن لا تختزن في أحشائها وعوداً كافية، كل ذلك بالإضافة إلى تضاريس ساحلية، أقل ما يقال فيها أنها غير مواتية. لم يعد للموقع الحيوي في ظل هذه الظروف المعاكسة، لكن المكان عمرماً بحفظه في ريشة بشمك الإنسان من لعب دوره الإيجابي في التخفيف من وطأة العدم

المعينة، أو إلزائها، حتى إذا ما تم ذلك يستأنف المكان دوره لحديد، وينفذ الموقع بعد تراجع، ليزاول دوره على النحو اللائق به، وهذا ما سيحدث في العقود والقرون اللاحقة.

### ج - الجار

أما الجار فالأمر مختلفٌ بعض الشيء، فقد وصفه الهمداني بأنه «ساحل المدينة»، وهو ما كثره البكري<sup>(2)</sup>. لكنه أضف بأنه قرية كثيرة القصور والاهل من شاطئ البحر، فيما يوازي المدينة، أما الجديد النوعي فهو قوله «ترباً إليها من مصر» وأرض الحبشة، ومن البحرين والصين<sup>(3)</sup>، وهذه المرة الأولى التي يذكر فيها مرفأً للسواحل الغربية لشبه جزيرة العرب على صلة، أو تواصل بشيء، مع مصر والحبشة والبحرين والصين. نقرأ أيضاً في شعبية وخدة أنها لم يبق سوى منفذين إلى طريق اليمن، وهما نحن مع الجار لم نعد نغتر على ذكر ليس الذي أصبح أمراً بديهياً، فقد تجاوزوا إلى البحرين والصين، كما تجاوزوا من البحر إلى الضفة الغربية، فوصل إلى مصر وأرض الحبشة. تجدر الإشارة إلى أنه نمة تكملة لهذا المرفأ، وهي نصفه الثاني، تقع داخل المياه. كذلك نقرأ من هذا المرفأ تقع «قرية في جزيرة من البحرين ملاً في ميناء البحر لا ياتي السفن، وهي مرفأ للحبشة خاصة»<sup>(4)</sup>، هذه الجزيرة تسمى «قراف» سكنها نزار كسكان الجار، ويجلبون الماء من منطقة وادي بيليل، حيث تبعد مسافة حوالي عشرة كيلومترات.

حين إذن إزاء مقومات جيدة تؤهل هذا المكان لنشاط واسع، لا سيما في البحر. الحسن بن أحمد بن يعقوب: صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكرع، منشورات دار البصائر للبحث والترجمة والنشر، الرياض 1974، ص 58

(2) البكري: معجم ما استمعتم، ج 2، ص 63

(3) المصدر نفسه

(4) المصدر نفسه

المجال الداخلي مع مصر، وهو أهم مجال ورد في المعطيات التاريخية، ما دون أحد المؤرخين لا اعتبار «تجارة البحر الأحمر إنما هي في واقعها مصرية»<sup>(1)</sup>.

أما مرفأ الحبشة فهو إضافة نوعية توحي بمستوى التبادل والعلاقة بين الطرفين، ويتعين علينا أن لا ننسى الشكل للجوار، حيث النصف على اليابسة والآخر في الماء، وهذه إحدى السمات الأساسية للمرافئ القادرة على إستيعاب السفن المتعددة المهام والأحجام، وبالتالي حماية المرفأ من الأمواج والرياح والعواصف العاتية، تبقى قضية صعوبة تأمين المياه العذبة التي سيكون لها تأثيرها الخاص.

أما الحموي فقد رأى الجار «مدينة على ساحل بحر القلزم، بينها وبين المدينة (يثرب) يوم وليلة... ثُرُفا إليها السفن من أرض الحبشة، ومصر، وعدن، واليمن. وسائر بلاد الهند»<sup>(2)</sup>، نلاحظ هنا غياب للبحرين، وظهور لعدن في اليمن، كذلك ظهور لسائر بلاد الهند، وهذا ما لم نجده لدى البكري.

يكرّر الحموي ما ذكره سلفه أن نصف الجار في جزيرة داخل البحر، وبالقراب منه جزيرة أخرى في البحر بالمساحة نفسها، وأنها مرسى الحبشة، أي الاسم نفسه، كما يشير إلى أن سكانها تجار كأهل الجار، وأضاف جديداً بقوله أن المنطقة الممتدة من جُذّة جنوباً إلى قرب مدينة القلزم عدت باسم البحر، سمي البحر كله الجار<sup>(3)</sup>، وختم الحموي بذكر جماعة من أهل الحديث يتناولون إلى هذا المكان.

المعطيات التاريخية التي تقدمها المصادر لا تذكر تفاصيل وافية حول شطوط الجار، باستثناء نقل الإمدادات الغذائية من مصر، وهذا أمرٌ بالغ الأهمية والحبشة بالنسبة للحجاز، حيث شكل ما يشبه عنصر إستقرار وإستمرار للمدينة التي تكتف.

(1) إبراهيم يفسون: الحجاز والدولة الإسلامية، ص 71.

(2) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 2، ص 92.

(3) المصدر نفسه، ص 91.

في دورها المركزي للسلطة، أما النواحي الأخرى، داخل وحارح البحر الأحمر، يمكن الاكتفاء بالإشارة إليها على أنها كانت قائمة بالفعل، لكن في حدود غير مؤثرة نوعياً في تاريخ هذا المرفأ، وبالتالي المنطقة.

هل يمكن تعليل ذلك بكون هذا المرفأ بشكل نهاية للملاحة في المنطقة، بكون البحر الأحمر مقفل في أقصى شماله، وأن هذا المرفأ ليس بومعة أن يكون محطة عبور لما هو خارج شبه جزيرة العرب من ناحية الشمال، ما حين أي نشاط تجاري له مرتبط عضوياً بهذه المنطقة، بل بالحجاز على وجه التحديد؟ إن الإجابة الأولية على هذا التساؤل يمكن أن تكون إيجابية إذا ما تمكينا بالمعطيات المتوافرة، أو اعتبرنا أن غياب ما يتعارض مع هذا التوجه يشهد برحب المبدأ.

ثانياً: الخليفة عمر وركوب البحر.

#### 1- وقائع تاريخية.

نتموقف للخليفة عمر بن الخطاب من غرض البحر ينطوي على أبعاد و دلالات لا بد من التوقف عندها. نقل اليعقوبي في تاريخه أن الخليفة وجه «علقة» برحز المدلجي في عشرين مركباً، أو نحوها، فأصبوا جميعاً، فحلف عمر لا يحمل في البحر أحداً أبداً<sup>(1)</sup>. أما الطبري فيكرّر ما ورد في مصور سنة، بكون بعد هدف هذا التوجيه فيقول «إلى الحبشة في البحر، وذلك أن الحبشة كانت هزفت - فيما ذكر طرفاً من أطراف الإسلام»<sup>(2)</sup>، وأن هذه العملية تمت في السنة ثمانية والعشرين للهجرة. تجدر الإشارة إلى أن علقة بين رحز المدلجي كان من شأنه أن قام بعمل مشابه في حياة الرسول، ويتوجه منه تحديداً، فقد ذكر

اليعقوبي: التاريخ، ج 2، ص 155-156.

عمر بن الخطاب: تاريخ الأمم والملوك، ج 3، ص 112.

الواقدي<sup>(1)</sup> وابن سعد<sup>(2)</sup> أنه وصلت معلومات إلى الرسول عن مجموعة من الجبهة ظهروا لأهل «الشَّعْبَةِ» أو «جُدَّة» فأرسل إليهم صاحب علقمة بن مجزّر المدلجي على رأس ثلاثمائة من المسلمين، فخاض البحر ووصل إلى إحدى الجُزُر، حيث كانوا قد هربوا<sup>(3)</sup>.

والشئير أن الطبري ينقل، في مكان آخر، أن الخليفة عمر نهى العلاء بن الحضرمي، عامله على البحرين، عن خوض البحر، وأن الأخير، متجاوزاً التعليمات، حمل أصحابه في البحر إلى فارس بغير إذن عمر الذي كان «لا يأذن لأحد في ركوبه غازياً، يكره التفرير بجنده، إستاناً بالنبي ﷺ وبأبي بكر، لم يفر فيه النبي ﷺ ولا أبو بكر»<sup>(4)</sup>، واللافت هنا أن نتائج سرية العلاء بن الحضرمي في البحر تقاربت، بسليبتها، مع نتائج سرية علقمة بن مجزّر المدلجي، مدعي الخليفة للإصرار على موقفه أكثر.

الاشتبك الأول في هذه المعطيات يرتبط بما نقله الطبري عن بدء الخليفة عمر بن الخطاب بسيرة الرسول في عدم غزو البحر، وهذا ما يُستبعد لكون السرية التي تمت في عهده ﷺ في السنة التاسعة للهجرة، ويتوجه مدّ قد حققت أهدافها العامة دون خسائر. هل يمكن التشكيك بهذه السرية لكونها مشابهة عموماً للثانية، فتستقيم رواية الطبري بخصوص إغراض الرسول عن البحر، حيث لم ترد أعمال أخرى له ﷺ من هذا القبيل؟ لا يمكن ترجيح ذلك، أولاً بسبب ورود سرية الرسول في أبرز مصدرين للمغازي، الواقدي وابن سعد، ثانياً إن التباين في توقيت ونتائج الأولى والثانية، وحجم المشاركين في كل واحدة، فضلاً عن عدم حدوث معركة في الأولى وحدثها في الثانية.

(1) الواقدي، السعدي، ج 1، ص 98.

(2) ابن سعد، غزوات الرسول ﷺ، ص 163.

(3) حسن سلهم: غزوات الرسول ﷺ وسراياه، ص 263-265.

(4) الطبري: تاريخ الأمم، ج 4، ص 80.

ذلك، وغيره، يجعل التشكيك في غير محله. أما فيما يتعلق بالخليفة الأول أبي بكر الصديق فالمعطيات المتوافرة لا تشير إلى هذا الموقف، وهذا بنفسه ينقل من رواية الأخيرة للطبري فيما يتعلق بإستان الخليفة الثاني بالخليفة الأول. بل تتروى رواية بخصوص فتح العلاء<sup>(1)</sup> بن الحضرمي للبحرين، حيث حاصر خليجها، واستحوذ وأنه «لم يزل يركض على الفرس راسياً في البحر حتى مات»، وأن أبا بكر هو الذي بعث العلاء إلى هذا المكان، من دون أي حذر أو تنبيه. وثمة عمل حربي لخالد بن الوليد قام به في زمن الخليفة الأول في السنة الثانية عشرة في برقع المذار، مكان قرب الكوفة، حيث نشبت معركة بين الفرس والمسلمين قُتل بها جمع كبير من الفرس، وانتهت على الشكل التالي: «فضموا السفن»، وبمست المياه المسلمين من طلبهم، وأقام خالد بالمذار<sup>(2)</sup>، وقد تم هذا العمل تحت نظر الخليفة أبي بكر، من دون أية إشارة تحذيرية خاصة بخوض الأنهار أو البحار.

ويبدو لنا أن موقف الخليفة الثاني، في أصله على الأقل، ليس تقليداً دقيقاً لسيرة الرسول وأبي بكر الصديق في هذا المجال.

## 2- مقارنة موقف الخليفة.

مورد لرواية الأساسية التي بدأنا بها هذا الموضوع، حيث يمكن أن تكون مصداقاً لموقف الخليفة، لكونها المناسبة المباشرة لهذا الموقف. في المبدأ يمكن إغراض الخليفة عن البحر ثم تحت تأثير هذه الخسارة الجسيمة لأرواح عدد من المسلمين الذي ربما تجاوز المئة، «عشرين مركباً»، لكن أي مركبات الحسان الحبيبة حائلاً دون متعة لأعداء الحرب، ثمة واقع كثير حسمه، وأحضر احتمالاً، لم تنه المسلمين عن متعة مشروعه في فتح. وهذه معركة الحسر في بلاد الرافدين خسر فيها المسلمون قرابة أربعة آلاف

سيرة النبي والتاريخ، ج 2، ص 198.

حربي: تاريخ الأمم والملوك، ج 3، ص 152.

ما بين قتل وغريق، قد تكون أنموذجاً عن الخسائر التي يقدمها المسلمون في فتوحاتهم. الموضوع إذن، لا يرتبط بتأنيده، على قساوتها، بل بدوافعه وبالرواية العامة لمكانه بين الأهداف والمشاريع العامة.

إن إعراض الخليفة عمر بن الخطاب ينطلق، أساساً، من تقدير غير متحيز للمنطقة التي جرت فيها المعركة، حيث أنها لا تمتلك أية مقومات أو عناصر من شأنها أن تضعها بين الفتوحات ذات الأهمية، هذه المنطقة التي تسمى «الحيشة» تقع إلى الجنوب الغربي من الحجاز، حيث يفصلها البحر الأحمر عن الحجاز، عرضاً ثم طولاً بمسافة كبيرة، لم تكن موضوعة على لائحة المناطق المرشحة جدباً للفتح، ولا تملك ما يجعلها جديرة بذلك. إن هذا الإمتناع من امتناع بالدرجة الأولى عن اتخاذ قرار بفتح منطقة لم تمثل، بشكل من الأشكال، امتداداً طبيعياً أو تاريخياً لشبه جزيرة العرب، وأن ما بين الحيشة والحجاز في المكان والجغرافيا لا يغري أو يحقق أهدافاً نوعية، على الأقل بالنسبة للحدود الإسلامي.

قد يكون التقدير ملبساً أو ضعيفاً، أو حتى غير واقعي، لكنه هو المحرر، وهو الدافع، وهذا ما يمكن التعبير عنه بأن المكان إنما يزاول تأثيره، في أحد كثيرة، بعد دخوله في وعي الإنسان.

تناول بعض الباحثين<sup>(1)</sup> موقف الخليفة هذا، معللاً إياه بأنه لم يكن عن غور أو خشية، وإنما كان عن بعد نظر، إذا تبين له عدم خبرة العرب، في مبدأ الأمر، في المعارك البحرية، مقارنةً بالبيزنطيين والفرس.

إن هذا التعليل يمكن فهمه من خلال الإطلاع على تعليل الخليفة نفسه، ولا مانع من إضافة الخوف والخشية كتشجعتين طبيعيتين لما تبين للمخليفة من عدم خبرة العرب، لكن ما لم يقله الخليفة أو يذكره - وربما لم يرد ذلك، أو لم يكن

(1) أنور عبد العظيم: الملاحعة وعلوم البحار عند العرب، عالم المعرفة، المجلد 13، ص 21. والفنون والآداب، الكويت يناير 1979، رقم 13، ص 21.

وصحاً تماماً بالنسبة إليه - هو غموض الهدف، أو عدم لياقته بالتصحية المترتبة على الأقل.

أما موضوع المقارنة مع الروم والفرس فلطالما كان الرز ضمن نفودهما، كما كان البحر ميدانتهما، وذلك تحت مرأى العرب في الماضي. لكن هل كانت ليرموك والقادسية، وغيرهما من المعارك البرية في بلاد الشام والعراق، تملك حصر النصر أكثر من أية معركة بحرية محدودة.

لو كان الهدف الذي وضعه معاوية بن أبي سفيان واضحاً لدى الخليفة كما كان واضحاً عند والي الشام، لكان الموقف مختلفاً، أو على الأقل ليس مغفلاً بالشكل الذي رأيناه، لقد عرفنا الخليفة حذراً في مواقع كثيرة و إلى أبعد الحدود في بلاد الشام والعراق، حيث كان يتنى لو أن بينه وبين الروم والفرس جبال من رمل تحول بينهم وبين المسلمين، فلا هم يقربون من المسلمين، ولا يقرب المسلمون منهم، ثم بعد أن انتجلت الصورة تغير الموقف. لقد كانت وحشة المكان، وغموض حيلياته، هي التعليل الممكن لموقف الخليفة، أما إذا كان الخليفة على دراية كافية بهذه الحيليات فالتعليل يتجه رأساً نحو عدم وجود مبررات جديرة لخوض البحر، وهذا ما نفترضه هذه الدراسة.

ربما يتعلق بمنهج الدراسة يمكن القول أن العلم بحيليات المكان شرط ضروري في بعض الأحيان لحدوث التفاعل معه، فالمكان من دول عنه الإنسان لا يحل في خيارات الأخير، وبالتالي لا يلعب دوره المعترض في هذا المحل، صحيح أن ثمة مزايا عديدة للمكان لا تشترط علم أو وعي الإنسان بها كي تزاول تأثيره في تاريخه، لكن ما يتعلق بإختيار المكان أو رفضه، بإختيار المجال أو الإعراض عنه، لا يستقيم أو يسلط طريقته الطبيعي إلا بعلوم أو وعي صاحب الإختيار وهو الإنسان.

تتمة مقاربة أخرى لموقف الخليفة ربما تتكامل مع هذه المقاربة، وهي أنية مكتوبة التي يشتغل ويتأثر بها ذهن الخليفة وسائر أصحاب انفراد إلى هذه البنية



هي بيئة البرّ، بيئة القفر، بيئة «ما يصلح للبعير يصلح لنا»، هذه البيئة التي نسميها في تشكيل نمط العيش، فإنها تحمي وتحوّل دون الخروج عن إطاره المعكّر والجغرافي، من هنا فإن الحديث عن الضحايا الذين سقطوا في سرية علف الثانية، وسرية العلاء بن الحضرمي، لا يعدو كونه تكريراً لمنطق البيئة التي أكثر من كونه سبباً فعلياً لإعراض الخليفة عن البحر. لقد قدّم البحر، إذن، دليلاً إضافياً على السلم البرّي والأمن القفري إذا جاز التعبير، ما يعني تعزيز المنظورة البيئية الحاكمة، بصرف النظر عن وجود عوامل أخرى أيضاً.

### 3 - الخليفة وخوض البحر المتوسط.

بهذه الطريقة، أيضاً، يمكن أن نفهم موقف الخليفة في قضية أخرى في هذا المجال، لكن هذه المرة مع واليه على الشام معاوية بن أبي سفيان، عندما طرأ منه خوض البحر المتوسط مقابل السواحل الشامية، حيث «إن قرية من قرى حمص لسمع أهلها نباح كلابهم، وصياح دجاجهم»<sup>(1)</sup>، في إشارة إلى الروم القاطنين بجزيرة قبرص.

لقد كان رد الخليفة متصلاً بموقفه السابق، مع بعض الإشارات التي لا تفرغ غموض هذه الظاهرة الطبيعية، أي البحر، لدى الخليفة، فقد أرسل إلى والي المذكور أنه سمع بأن بحر الشام «يشرف على أطول شيء على الأرض»<sup>(2)</sup>، وأنه أي البحر، يستأذن الله، في كل يوم وليلة، في أن يفيض على الأرض فيغزها فكيف للخليفة أن يحمل الجنود في هذا البحر الكافر المستعصب، وأن السبب الواحد أحب إليه مما حوت الروم، وختم بتحذيره من هذا الأمر، مشيراً إلى ما لقي العلاء مني، ولم أتقدم إليه في مثل ذلك»، وفق الرواية التاريخية<sup>(3)</sup>.

بات واضحاً بالنسبة لنا، بعد هذا التعليل وما سبقه، أن موقف الخليفة لا...

(1) الطبري، تاريخ الأمم، ج 4، ص 258.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه، ص 259.

لأمور نتائجها المباشرة، وإن بدا في إصراره مطلقاً من ذلك. إن جوهر القضية يكمن في الرؤية العامة والنظرة الإجمالية للمنطقة، التي تدرك واقعاً ووثيقة، وقد تكون أقل من ذلك.

إذا سلّمنا بهذه الرواية، وهي على ما يبدو بعيدة بعض الشيء، فنحن أمام معلومات غير دقيقة تناهت إلى مسامع الخليفة لا تساعد على تكوين رؤية واضحة، لا سيما فيما يتعلق بخاطر تغريق الأرض بالفيضان، ووصف البحر بكونه المستعصب. ثمة مبادرة من قبل الخليفة نفسه للتعرف على هذه الظاهرة صعبة، وعلى هذا المدى المفتوح بصورة أفضل، فقد كتب إلى عمرو بن العاص، واليه على فلسطين ومصر، ما يلي: «صف لي بحر وركبه، وبني شامي إليه...»<sup>(1)</sup>، فردّ عليه ابن العاص بطريقة لا تخلو من مبالغة حالت دون عبور المرجوة للخليفة: «إني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير، إن ركن جرف القلوب، وإن تحرك أواغ العقول، يزداد فيه اليقين قلّة، والشك كثرة، هم ب كمود على عوده، إن مال غرق، وإن نجابرق»<sup>(2)</sup> وتختتم الرواية «فلما قرأه عمر كتب إلى معاوية: لا والذي بعث محمداً ناطق لا أحصل فيه مسلماً»<sup>(3)</sup>.

قد أسغ عمرو بن العاص على هواجس الخليفة صديقه دفعت بالأخير إلى السلبية القصورى. لا ندرى كيف تشكلت هذه الصورة القائمة للبحر في عمر بعيد من الآيات القرآنية التي تشير إلى أنه آية من آيات الله، حيث تجري سبل على منه تيسيراً للناس<sup>(4)</sup>، وتُسبح بحجج نظرية من أعده... ونسب مدنيك بالشكر المتواصل، وإذا ما بدت بعض المشاهد الصعبة بفعل الريح

مصدر سابق، ج 4، ص 258.

مصدر نفسه.

مصدر نفسه، ص 259.

(1) «وَالْقُلُوبُ إِلَى غَيْرِي وَكَثَرَتْ بِالنَّاسِ كَلَامُهُمْ فِي ذَلِكَ...»

(2) «وَقَالَ لِي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: مَنْ شَرِبَ مِنْ مَاءٍ مِنْ بَحْرِي...»

(3) «وَقَالَ لِي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: مَنْ شَرِبَ مِنْ مَاءٍ مِنْ بَحْرِي...»

(4) «وَقَالَ لِي سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: مَنْ شَرِبَ مِنْ مَاءٍ مِنْ بَحْرِي...»

العاصف، فتحة مشاهد جديّة ترسمها الريح الطيبة<sup>(1)</sup>، إلى غير ذلك من الآيات والإشارات التي لا تتناسب مع هذه الصورة المعروضة. لقد حال المكان نقلاً بين الناظر والرؤية الصافية الواقعية، إننا ننظر إلى البحر من قلب الصحراء نأمل في حركة الماء فنخال الأرض في إهتزاز مستمر، وإذا ما لاحت لنا أمواج فهو الزلزال يضرب في عرض البحر كل شيء، لا يثبت على حال، لا فرصة أصلاً للثبات، لا فرصة للإقامة أو الاستقرار في المكان نفسه، وكيف تستقر النفوس على سطح المياه، وبينها الأعماق المرعبة، حيث يخفي كل شيء، مسافة دقيقة واحدة أو أقل. إنه المكان الذي لا حول ولا قوة للإنسان به إلا ما شاء الله.

هذه هي النظرة للبحر عندما تكون جالساً في مكان برّي، الأرض تحتك صلبة، لا خوف من أي إنزلاق إلى الأعماق، ما لديك يبقى معك، لا يشاركك أو يسلبه منك مكانك في لحظة خاطفة، أنت محفوظٌ وموجودٌ ومرئيٌّ، حتى ولو خرجت من الحياة، بإمكان الأحياء أن يعثروا على أثر لك، بإمكانهم أن يتفكروا من مكان إلى آخر، بإمكانهم أن يتذكروك، ثمّة فرص عديدة لتبقى الأمور كما هي عليه، لأيام أو أسابيع أو أشهر وسنوات وربما عقود وقرون، ثمّة إمكانية لذلك في البرّ، من دون عناء أو جهود جديّة، أما في البحر فالصورة العامة لاتومي بذلك أبداً.

تلك هي الذميمة التي تتحكّم في النظرة للبحر من قبل القاطنين في البرّ، حيث يصبح المكان الثابت والراكد آمناً ومطمئناً، وما عداه مخيفاً وباعثاً على الفناء. لقد تعاضدت حالتان في تفكير الخليفة الأولى، خبرة محدودة بالخوار وظروب البحر، والثانية ذهنية برّية بفعل العيش في البرّ، والتأثر ببعض رؤية

(1) «فرائد نسيده» في البحر والبرّ، عن إدراكه في الفناء، وعينهم ربيع عليه، وهو...  
عاصف وثمة من التوح من كل مكان...، قرآن كريم، يونس/ 22  
«ولقد كنت من يادم وطيف في البرّ والبحر...»، الإسراء/ 70 «البرّ...»  
الأرض والتفكّر في البرّ والبحر...»، الحج/ 65.

من هذا التعاضد والتكامل، خرجت صورة منسّة للبحر، وفنت حيث برزت الخليفة بشكل من الأشكال.

ثلاثة تطوّرات الموقف بعد الخليفة الثاني.

1- تطوّر المعطيات الميدانية.

بعد وفاة الخليفة الثاني تطوّر الموقف من خوض البحر، ولم تعد المحاذير تمنع من ظل الفتوحات المتعدّدة الجبهات والوجهات، وإذا كان الواقع السابق يحمل الإختبار والتأني بالنفس، فإن الوضع الجديد أصبح أقرب إلى الضرورة، ويعدّ في المقدور الإبتعاد عن منطق الأمور

في البلاذري في فتوحه «أن معاوية لم يزل يعتمد حتى أدب به في بحره...» وذلك بعد ظهور الخطر الرومي على السواحل الشامية، فقد تحوّل من كونه خياراً خطيراً إلى أمر ملزم، فقد أصبح مكناً يستعنه العدو بحره والعدوان المتواصل. وبذلك عدل بناء حرجاً مدعياً لمصلحة العدو، وردّ من ينحّنه الخليفة الثاني من أخطار البحر غدت موجودة في هذا التوجّه، فقد كُتِل المسلمين وقُدّ حركتهم، فيما العدو يتحرّك بكل حرية وأمان، لم يمسّ تجبّ البحر أخطر بكثير من خوضه، وتحاشيه أسوء بكثير من

محاطي معاوية بالإدلاء مع بعض الشروط التي لا يصعب عليه تنفيذها، مع أنه المرة الأولى التي يركب فيها المسلمون بحر الروم، إلا أنهم استطاعوا الوصول إلى قبرص وفتحها في سنة 28 أو 29 للهجرة، وعندما بدأ مع أهمها من حراج، واللافت هنا أنه لم يمنع هذا الإنفاق أهل قبرص من عقد صلح مع الروم أيضاً، ما يوحي بأن قبرص لم تكن حوزة روم، حقيقة، وهذا ما سهل

من فتح

## 2- مقارنة منهجية للمرحلة الجديدة

هل يمكن فهم هذا النشاط البحري للمسلمين بمعزل عن موقع جزيرة قبرص، وأثر ذلك على سواحل بلاد الشام، هل كان من الممكن أن يطرح هذا الموضوع بين الوالي والخليفة الثاني، ثم الثالث، وبهذا الإلحاح وبالمخاطر المحتملة، لولا هذه المسافة القصيرة والخطيرة بين جزيرة عاثمة على الماء، مشرفة على معظم الشريط الساحلي لبلاد الشام، تشكل مع الجبهة الشمالية ثنائية تهديد رومياً للمسلمين، شمالاً وغرباً؟ إن هذا هو التفسير الأول والدافع الأول المفترض على الأقل عند الخليفة، من دون أن يعني ذلك عدم وجود دوافع توسعية أخرى تأتي في سياق فتوحات المنطقة خطرت في ذهن الوالي السفياني على الأرجح، لكنها غير كافية بنفسها للقيام بهذه المخاطرة، على الأقل في تلك الفترة.

والمقاربة نفسها يمكن أن تتوسع، من زاويتي متابعة الفتح أو معالجة التهديد، على الشكل التالي: هل كان التفكير في خوض البحر ممكناً، وبهذا الإصرار والإلحاح، قبل فتح بلاد الشام والحضور بقوة في معظم مدنها الساحلية، أم؟ توجد علاقة واضحة بين أماكن الحضور ونوع التطلعات، حيث تتداعى الزواحي في ذهن صاحب القرار، تبعاً للعلاقة الجغرافية والمشاركات المكانية؟ إن التفكير في خوض البحر حالة تلقائية للقائمين على تخومه وسواحله، مع وجود تهديد أو من دونه، مع توافر مغريات واضحة أم من دونها. إن منطق المكالم يفرض نفسه في النهاية، والإنسان لا يمكن أن يتجاهله إلى ما لا نهاية، أو بشكل مطلق. من هنا لا يمكن حصر أهداف والي الشام برفع الخطر الرومي على ضرورته، ولا حتى بتحقيق إنجازات عسكرية ترتد إيجاباً على بيت الشام وخزينة السلطة فحسب، بل بالإضافة إلى ذلك ثقة غاية عامة ترتبط باستكمال السيطرة على المكان وملحقاته كجزء من الإمساك بالقرار ومكوناته

لقد جرى النظر، على ما يبدو طبعاً، إلى البحر وجزره على أنها جزء من البلاد التي تم فتحها، ومن غير المرجح اعتبارهما حدوداً ثابتة وبهنية للمسلمين.

مفتوحة. لا شيء يمكن أن يبرر الإحجام عن إلحاحهما كإجراء بالكل، كما لا شيء يمكن أن يثبت أنهما فاصل طبيعي ينبغي الوقوف عنده، أو الركون إلى شروطه. بوحدة هذا الإقليم الطبيعية، مناخاً وموقعاً ونضاريس ونباتات، تفرض نوعاً من الوحدة الواحدة لكل مكوناته ونواحيه. إن الفتوحات، في بعض حقيقتها، هي في الدين الجديد على أوسع مساحة ممكنة، بما يتجاوز طبيعة الأقاليم، يكيف مع البلاد المتكاملة والمتداخلة.

فد لاحظنا كيف تم الخروج عن الإطار المكاني الذي رسمه الخليفة الثاني، لاحظنا كيف بدت هواجسه ومخاوفه مرتبطة بالبيئة والإطار الجغرافي الذي يجري في تلكه. هل كان المطلوب هو الانتقال إلى المكان الجديد لتفاعل مع بيئة معينة؟ قد لا يكون ذلك ضرورياً، فالخليفة الثالث لم يرحب المدينة مع إعطاء الإذن، ولكنه، على ما يبدو، كان يملك معطيات أكثر تأثيراً من ذلك. كما كان يتفاعل مع واليه على الشام بشكل سمح له بفهم أفضل للحيثيات المحلية... يُعَلِّمُه قُرْبُهَا وسهولة الأمر فيها... يهْوَنُ عليه ركوب البحر...<sup>(1)</sup>

## 1- غزوة قبرص

تحدثت غزوة قبرص، من دون خسائر بشرية، لا في عمبة لإبحاره، ولا في جهة، فقد جاءت بنتائج مالية تجاوزت توقعات والي الشام، سبعة آلاف دينار يؤدونها (أهل قبرص) في كل عام.<sup>(2)</sup> فضلاً عن توقعات الخليفة، حقق هذه الجزيرة، بشكل من الأشكال، بالسلطة القائمة في دمشق. تجدر الإشارة إلى أن ما قام به الوالي السفياني هذا، وما سبقه، لاحقاً في الحقبة، معزولاً عن التطورات الكبرى التي ستحل ببلاد الشام، ذلك أن التوحيد من لهذا الإقليم الطبيعي سوف يدفع به إلى الصدارة بين الأقاليم الإسلامية

الأخرى، وذلك عندما يصبح مقراً للسلطة المركزية في العهد الأموي الأبي

بعد أقل من خمس سنوات على فتحها، وإثر مخالفة أهل قبرص لمصالح الصلح، غزا معاوية هذه الجزيرة للمرة الثانية عام 33هـ، وكان عدد المراكب التي شاركت في هذه الغزوة خمسمائة مركباً، وفتحت قبرص بالقوة، وقتل العديد من أهلها، وسبي آخرون، قبل أن يُعاد العمل بالصلح مرة جديدة. واللافت أنه، وفي أعقاب هذا الصلح، عزم معاوية على إلحاق هذه الجزيرة بالمسلمين الإسلامية بشكل كامل، فأرسل لهذه الغاية اثني عشر ألفاً من المسجلين في ديوان العطاء ليستوطنوا فيها، فبنوا المساجد، كما نقل إليها جماعة من بعض لقد كان في صدر بناء مدينة عربية إسلامية بشكل فعلي، وقُدِّم ما يلزم من سائر وأموال، وبنى مساجد، لكن بعد موت معاوية وضع ابنه يزيد حداً لهذا المشروع «وأمر بهدم المدينة...»<sup>(1)</sup>

لقد تم تجاوز البحر مرتين: الأولى عبر خوضه بما يشبه المغامرة المحبوبة بالمخاطر، والثانية عند صرف النظر عن أحواله مطلقاً، حيث جرى تأسيس مدينة كان من المفترض أن يصبح البحر طرفيها المعتاد والمألوف، من وإلى بلاد الله وسائر نواحي الدولة الإسلامية.

لقد تحول البحر إلى ميدان متواصل للأنشطة العربية الإسلامية على مختلف أنواعها، وقد نقل الطبري عن أحدهم، وهو عبدالله بن قيس الحارثي، أن استعمله معاوية على البحر، أنه غزا «خمسين غزاة، من بين شانه وسانة في البحر، ولم يعرف فيه أحد ولم ينكب»<sup>(2)</sup>، وما فعله معاوية لن يتوقف عند الحد، فتنة عدو له باع طويل، وحضور عريض، وتاريخ عريق في البحر. أسطول الدولة البيزنطية، الذي شكل تحدياً دائماً وخطيراً في أعقاب التحدي الطبيعي لعالم البحر.

(1) البلاذري، صرح السنداء، ص 154

(2) الطبري، تاريخ الأمم، ج 4، ص 218

ابن: سعد بن أبي وقاص وعبيد الماء.

### 1 - وقائع تاريخية.

تنة تحرية مع نهر دجلة للنصاحي سعد بن أبي وقاص في من ع. ي. ب. يزيد عبوره لمتابعة معركته مع الفرس، حيث يذكر قسري 100 سنة بعد كان في صدر الانتقال من التفسير لمدينة حلب إلى مدينة قسري. بن عصب السفن ليغير بالناس، فلم يبق على شيء، ووجد الأعداء قد جمع جيش معه منها، وقد أقام المسلمون بأما لم يسير ذلك بعد، وقد حارب بعض هذه العملية التي قد تقضي على المسلمين، وبارك من هذا بعض من إلى المخاضة المناسبة، إلا أنه لم يبق في حالة ذلك، وقد حدث في ذلك فترة أن دجلة في حالة مد.

كتب ذلك رؤيا رآها سعد في منامه أن حول المسلمين فتح تحت: بصرى، وقد أقيمت من المد بأمر عظيم ففرع على غيب هذه السنة بعد. من كان الوقت صيفاً «وفي سنة حوزا صيته متبع» حسب شهر الحارثي. ومع الرواية التاريخية أن سعداً جمع جيش وقاد به عبور دجلة ففتحها. وانه أقدر عليكم منك لا تنجوا في على الفرس، ولا في سنة من حربه من الخلف، وأعلن لهم غرمة على بعض «الآباء قد عرفت حتى مع هذا البحر إليهم، قبل أن تحصركم في ذلك حصن له من الفرس. سلسل العبور للوصول إلى الفرس، وهي بقية الفرس من سنة على «أو موضع السفن». وتم تعيين سلسل رجلا لهذه المهمة فتمت.

عن تاريخ الأمم، ج 4، ص 218. في تاريخ الأمم، ج 4، ص 218. عن تاريخ الأمم، ج 4، ص 218. عن تاريخ الأمم، ج 4، ص 218.



على خيول إناث وذكورة ليكون أساساً لعموم الخيل<sup>(١)</sup>. ثم إقتحموا دجلة، ولحق بهم عدد كبير من المسلمين، فلما رأهم الأعاجم وما صنعوا «أعدّوا للخيال التي تقدمت سعداً مثلها فاتحموا عليهم دجلة فأعاموها إليهم»، والتقى الفريقان في الشَّرْعَان<sup>(٢)</sup>، واستطاع الستون الوصول إلى الفراض وحمايته، ومن ثم لحق بهم رفاقهم، وركب ما تبقى من العسكر «اللجّة» «وإن دجلة ترمي بالزبد، وإنهم ليتحدثون في عومهم» كما يتحدثون في مسيرهم على الأرض<sup>(٣)</sup>، ما شكل مفاجأة لأهل فارس الذين هُزموا وتركوا المكان، وما فيه وما عليه.

لقد بدا موقف سعد في هذه التجربة معبراً عن خبرته ونمط ثقافته، وبلغ به التوجس مبلغاً ظن معه أن عبور هذا النهر من شأنه القضاء على أصحابه كانه، وقد بقي الوضع على هذه الحال أياماً دون جديد، ولم تكن نصيحة أحد الأعلام مطمئنة لمن خشي عاقبة العبور في أصله، وليس في النقطة المقترحة للعبور فحسب. لقد كان جواب ابن أبي وقاص لصاحب النصيحة، حسب ما أورده الواقدي، «بحر عميق وما كنت أغرر بالمسلمين»<sup>(٤)</sup>.

وظهر المد فجأة، ثم عرض سعد رؤيته التي أبصرها في منامه، حيث إقتحمت خيول المسلمين دجلة، وأقبلت من المد بأمر كبير، أو أن ملك الفرس رأى في منامه المسلمين قد عبروا إليه، وقد إستشعر زوال ملكه وهو معول على الهرب<sup>(٥)</sup>، حسب رواية الواقدي.

من الوارد أن يكون سعد قد تذكر، في تلك اللحظات، سلمه أن سعد في معركة الجسر، وذلك العبور الذي أودى بحياة القسم الأكبر من أصحابه، بين قتيل وغريق. هذا العبور الذي لم يبقَ عليه أعداؤه، المحجّرين والمختبرين، فقد

(١) الشَّرْعَان: الثور الغربي وسرعان الخيل أولتهم ابن منظور: لسان العرب ج (١)، ص ٢٩١.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم ج ٥، ص ١٥. الواقدي: المصدر السابق، ج ٢، ص ١٨٥.

(٣) الواقدي: المصدر نفسه، ص ١٨٥.

(٤) الواقدي: المصدر نفسه.

ميراً كما أصيب المسلمون، وهزموا كما هزم المسلمون. إن هذه المشاهد بمثابة مائلة في مخيلة سعد على الأرجح وهو يستعد لاتخاذ القرار النهائي، كما إقتحمت بين البر والبحر، بين الصحراء واليهاء، لا تزال ترمي بقلها على يوم لم يسعفهم الماضي بتجربة، كما لم يشجّعهم الحاضر على الجراءة، لقد كان الموقف محرجاً بقدر ما كان غامضاً ومربكاً. كُتِل المعطيات المتوافرة لا تسمح، فالسفن وهي الوسائل المفترضة لإنجاز عملية العبور كانت قد سحبت من الميدان، والمساحة التي ينبغي قطعها تحت نظر الأعداء الذين يترصدون يتحركون كل سائحة للإلتقاط على المهاجمين، ولا يظهر أن المسلمين قد تبرروا في فنون الفطس وقطع المسافات، بالسرعة والطريقة المناسبين.

لقد من الضروري أن يدخل عنصر جديد غير إعتيادي لكي تتحرك الأمور في اتجاه النجاح، كان خبر النمام، سواء نمام ابن سعد أو ملك الفرس، من شأنه، لقد استطاع سعد أن يتجاوز حالة التردد بطريقة نفسية، لأن التردد في شأنه شككته وتأثيره واقع نفسي.

— صبر المكان بأصعب ما يكون، وبدت المهمة نوعاً من التعرض للخطر — وكان الواقع ضاغطاً باتجاه الخروج من الحرج. لن ندخل في دقة النمام حتى نأوبله، لكن بإمكاننا الافتراض بأن الخلفية الدينية الحاضرة دائماً في لحظة من خطوات الفتح، شكلت مصدراً دائماً في الطاقة النفسية الضرورية لسرك والمواجهة، هذه الخلفية هي التي أعطت لهذا النمام، أو تلك الرؤية، مدعماً ومبرها، ومن ثم تأثيرها المباشر. وكان الموقف محرجاً في عصر من هذا القبيل.

تذكر الخروج من ذهنية البيئة المكانية مستحيلاً، لأن كل الوقائع المتوافرة سمح باتخاذ القرار المناسب. هنا يتوقف التاريخ أمام معضلة المكان، عنصر الخيار في الإنسان الذي يتردد على سعد في تلك اللحظة، سعد التاريخ مساوٍ من جديد. لقد خرج سعد من هذه اللحظات عاد كما كان قبلها، ليقلب دوره، ولكن في ظل الخيار الجديد.

ومما قاله سعد أثناء تشجيع أصحابه على العبور: «وليس وراءكم شيء تخافون»<sup>(1)</sup>، كناية عن الاعتماد على المكان الخاص، والبيئة الحليفة، والأرض الصديقة والأمنة.

بوشر في التخطيط الميداني للمكان، فكانت الضرورة تقتضي أولاً وصول مجموعة من المسلمين مؤلفة من ستين رجلاً إلى ما سُمي «الفراض»، وهو المكان الذي ينتقل إليه هؤلاء لحظة خروجهم من الماء، وله الدور الأهم في إتمام عملية العبور، كذلك ثمة دور آخر في حماية العابرين من أية إغارة أو اعتداء ينطلق منه مباشرة، فالفراض يجب أن يكون خالياً لاستقبال العابرين وحمايتهم لحظة العبور.

وبقيت وسيلة العبور، في ظل إستحالة العثور على السفن في تلك اللحظة، حيث لا مجال للاستفادة من أية وسيلة متاحة، حتى ما كان منها خاصاً بالبر، من المكان الأصلي للعابرين. لقد جرى تحويل المكان إلى مخاضة للخيل، وبجلة عربية تمكنت الخيول من أداء مهمتها، وغدت عائمة بما يكفي للانتقال في الماء، حاول الأعاجم تقليد خصوصهم، فأعدوا للخيل العربية خيلاً مقابلة، والثقت الخيول في الماء بعد أن تسببت إارتفاعات ملحوظة في منسوبها الخاص ببيدات المواجهة، ولكن وصول المجموعة الأولى من المسلمين إلى الفراض فوّت على الأعداء فرصة متابعة المواجهة داخل الماء، وبدأت مرحلة جديدة من المواجهة إنطلقت من الفراض الذي شهد عمليات وصول متتابعة للأعداد اللاحقة من المسلمين. والجيل الذي أرادها الفرس في مقابل الخيل الإسلامية، غدت عبر إضعاف لهم، «والمسلمون يشتمون» نخس الخيل لتحريكه «بهم خيلهم»، ما بملك رجالها مع ذلك... وترلزلت بهم خيولهم حتى انتفضت عن الفراض<sup>(2)</sup> ولما خلا الفراض تماماً من الأعداء، انطلقت عملية عبور ثانية وشاملة لكل

(1) الطبري، تاريخ الأمصار، ص 9

(2) المصدر نفسه، ص 10

الجند الإسلامي، وبالرغم من إزباد دجلة، واللون الأسود لمائها، فقد بدت عملية العبور هذه هادئة وأمنة، حيث تبادل المسلمون الأحاديث وهم عائمون... كما يتحدثون في مسيرهم على الأرض... وانتهت المعركة بهزيمة الفرس.

## 2 - آراء وإستنتاجات.

لم تشهد الحروب والفتوحات الإسلامية هذا المستوى من العبور حتى تاريخ هذه التجربة، وبهذه الأحوال والنتائج تحديداً. لقد بدأ المسلمون، وبحكم الضرورات، الخروج من الشرنقة البرية التي عاشوا فيها لقرون في الماضي، وهم، كما خرجوا من شبه جزيرة العرب، يدخلون أماكن ومجالات جغرافية لها طروفها وأحوالها وشروطها، ولقد كانت هذه التجربة أول مؤشر من نوعه على هذا الدخول الفعلي.

ويمكن القول، أيضاً، أن معاناة ما قبل العبور، ولحظته، وما بعد تحققه، جسدت، بكل حيثياتها والتفاصيل، صورة غنية، وأ نموذجاً مصغراً عن المسار الذي سوف تسلكه الجماعة الإسلامية للانتقال من أرض الفقر إلى ماء البحر. وهو مسار طويل، لكنه لن يكون بطيئاً أبداً.

لقد وعى دلالة هذه العملية، عملية الانتقال من مرحلة إلى أخرى، أحد أصحاب النبي سلمان، الفارسي الأصل، المعروف بأحوال المكان، وقد حسب سعداً، مشياً على إنجازاته التاريخي: «ذُلَّتْ لهم والله البحور، كما ذُلَّتْ لهم البر»<sup>(1)</sup>، وأنهم سيخرجون من البحر أولاً، كما دحيمه أولاً، فقد استصغر أن يحسب سطح الماء بأعدادهم، فما عاد يُعرف البحر من الشاطئ، وأنهم أنجزوا عملية تكبف ظاهرة مع الماء بلغت بهم أن يشادوا الأحاديث فيها أكثر مما يشادونه في البر، وتم العبور التاريخي ولم يفقدوا شيئاً، ولم يفرق منهم أحده»<sup>(2)</sup>

(1) الطبري، المصدر السابق، ج 4، ص 12

(2) المصدر نفسه

توقف المشرق الإيطالي فرانيسكو كبريلي عند محاولة العرب، بزبد ركوب أمواج البحر لأول مرة، ورأى في ذلك «تحولاً كاملاً حدث في عقليات أبناء الصحراء وعاداتهم الذين طالما كانوا، فيما مضى، غرياء وغير ميالين للبحر»<sup>(1)</sup>. وهذا التحول، في التقدير العام، لن يتأتى من النتائج الإيجابية التي نجت عن هذه المباشرة، من إنتصارات وغنائم وفتوحات فحسب، بل من العنين نفسها التي سمحت للمبشرين أن يكتشفوا عالماً مختلفاً، ومن ثم نمط حياة مختلف. لقد تركت هذه العملية المجال واسعاً أمام الفاتحين ليتعرفوا على طريق مختلفة في تأمين حاجات الحياة ووسائل تلبينها، وليدركوا أن الحدود التي كانوا يرسموها للأرض وللعالم هي ليست حدوداً بالفعل، إلا بين آدم الحياة وأشكال وقابليات الأماكن. لقد جرى بالفعل توسع المفهوم العام للحياة الإنسانية يتجاوز بأهميته ومساحته ما حدث من توسع مادي ومبدئي، بل - التوسع الأول ليس سوى حصيلة مفتوحة للتوسع الثاني.

لقد بدأ عصر الغربة عن القسم الأكبر من الكرة الأرضية بالأقول، وسينهد البحر أنواعاً جديدة من الأنشطة المدنية والحربية العربية لم تعهدها قبائل الجزيرة العربية من قبل، وإذا بهؤلاء الخائضين الجدد للمياه على أشكابه أو بحراً مزودين بثقافة وعادات وتقاليد خاصة، فإنهم في مرجعهم جدد سوف يسهمون في تعميم ما أمكن من هذه العادات والتقاليد، بل تلك العادات وتقاليد جديدة ستسبب بفعل هذا التوغل البعيد والاستثمار المحفوظ في الهمة والبحرية. وهذا ما أراد أن يوحى به كبريلي على ما يبدو.

ثم من الباحثين من قلل من أهمية هذا العبور، أو على الأقل من صعوبته معتزلاً أن الإتصال بين السواحل الخاصة بشبه الجزيرة العربية ببحراً ليس وأشد هولاً من عبور الصحاري والجبال التي تفصل بينها برأى<sup>(2)</sup>. وهذه نظرة تعان

(1) فرانيسكو كبريلي، محمد والفرحات الإسلامية، ص 175.

(2) على استعجال إبراهيم أسواق العرب التجارية في شبه الجزيرة العربية، ص 24.

مع الأماكن والمساحات الجغرافية من زاوية شكلها الخارجي، ومدى ملائمتها بحركة البشرية من حيث كمية أو حجم الجهد المبذول. وإذا كان ما تشير إليه مجرداً ومؤثراً، فإن ذلك لا يعدو كونه جزءاً من القضية، ولا يمكن إختزالها به. والموقف عموماً لا يصدر فقط عن الخوف، فتمه أمور أعظم وأدوم تأثيراً من أرقام نفسية يمكن تبديدها ببعض المعلومات، أو الحرات المعبدة.

ثم إن الموقف ليس إختبارياً إلى هذه الدرجة، إن غلبة العور لم تتم في أجواء عادية فحسب، ولم تكن متكبفة مع منظر لمكان، موقعه ومساحته وبضاريسه، وكل ما يتمتع به من مكونات وإمكانات، وهذا عالم قائم بذاته لوحده. فالعرب عندما شرعوا بالعبور كانوا في صدد حروب ومعارك، ولم تكن الظروف المكانية، البحرية أو النهرية، عنصر إيجابية مصححتها، بل العكس هو الصحيح، وما هذه الدراسة إلا لتكشف عن هذه العنصر، قسمها السلمي والإيجابي، للوقوف على دورها وتأثيرها في مجرى الأحداث.

خامساً: واقعة «ذات الصواري» سنة 31 هـ، أو 34 هـ.

#### 1 - وقائع التاريخ.

يروى الطبري<sup>(1)</sup> وقائع هذه الواقعة، أو المعركة البحرية، بأنها سنة 31 هـ أو 34 هـ في تلك المرحلة، ويقول أن أهل الشام خرجوا لصدده مدعوبين من أبي سفيان، خرج عبدالله بن سعد بن أبي سرح، مدعوبين على سحر، وابتدأ على خروج قسطنطين بن هرقل مدعوبين الروم في إفريقية، بعد أن أصاب حصارهم منهم بأفريقية، وكانت أعداد الروم غير معروفة، فخرجوا في جمع من جمع الروم مثله قطع، منذ كان الإسلام<sup>(2)</sup>. ضمت حملتهم حملة مراك، وكان بعد الأول مع عبدالله بن سعد، حيث خرج مدعوبين على أبي سفيان.

(1) نظري تاريخ الأهم، ص 290-291.

(2) المصدر نفسه، ص 290.

المرابك ميداناً للقتال بعد أن رفض الروم النزول إلى البر، وجرت المعركة كما لو أن المتحاربين يقفون على أرضي ثابتة، واستُخدِمت السيوف والخناجر، ولم يخرج من السفن، أو مكان المعركة، سوى القتلى الذين تقاذفتهم الأمواج إلى الساحل الذي تلّون ماؤه بلون الدماء. لقد قُتل من المسلمين «بشرٌ كثير وقُتل من الكفار ما لا يحصى»، على حد تعبير الرواية التاريخية<sup>(1)</sup>، قبل أن تنتهي المعركة لصالح المسلمين وهزيمة الروم.

بالرغم من حجم هذه المعركة وتأثيرها الكبيرين، فقد ظل مكانها، كما زمانها، غامضاً بعض الشيء. فبينما ذكر الطبري وقوعها سنة 31 هـ، ثمة مصادر أخرى تضعها في السنة الرابعة والثلاثين للهجرة، وهو الأقرب، لكون فتح قبرص الثاني جرى سنة 33 هـ قبل الصواري على الأرجح. أما مكانها، فهو بلا شك في البحر، لكن لم يظهر في النصوص التاريخية التقليدية ما يحسم بشكل قاطع ودقيق الموقع المكاني لهذه المعركة، وقد جرت مناقشة هذا الأمر مطوّلاً لدى البعض، فيما ارتأى البعض الآخر، وهم مجموعة من المؤرخين والمستشرقين، صرف النظر عن هذا النقاش وأخذ الأمور بطياتها الخاصة على ما يبدو.

فإذا كان أهل الشام هم الذين خرجوا، وخرج عبدالله بن سعد وأصحابه، كان نوعاً من الانضمام أو الالتحاق بالذين خرجوا أولاً، وأن القيادة المباشرة حسب النص التاريخي، لمعاوية بن أبي سفيان، فإن ذلك يعني أن المعركة ستكون أقرب إلى منطقة الخروج، على الأقل كون المبادر إلى الحرب... اعتبار بعد الهزيمة، هم الروم. فالمسلمون هم في موقف الدفاع، أكثر من غيرهم، في المبدأ، والروم في موقف الهجوم في الواقع. ما تقدم يعزّز احتمال وقوع المعركة في منطقة الشمال، ذلك أن أي حديث عن خروج أهل مصر... المسلمين في مصر، لم يظهر في الرواية التاريخية، فقد اقتصر الأمر على عبدالله بن سعد وأهل البحر. وأهل البحر هؤلاء يضمّون الكثير من المصريين، لا سيما

وألفاظ، لكن في وقائع «ذات الصواري» لم نعر على أي مؤشر حاسم يفيد بأن هذه المعركة جرت بالقرب من السواحل الشمالية لأفريقيا، أو من المدن المصرية تحديدًا، كما يرى بعض الباحثين<sup>(2)</sup>، فقد خرج أهل البحر من مصر وغيره، وهم مجموعة تختص بالأنشطة الحربية البحرية جرى تشكيبهم وتجهيزهم مدّة فترة قصيرة، كما خرج أهل الشام. وأهل الشام هنا يسوان من قبل أهل البحر، بل هي من لديه القدرة على المشاركة، ويبدو من التعميم أن عمية الخروج كانت واسعة جدًا بالقدر الذي ينطبق، بشكل من الأشكال، على مجموع أهل البلاد الشامية.

وهنا من هذه المقاربة، أيًا كان مكان المعركة بالتحديد، هذا الانخراط السريع في عالم البحر، وتحقيق النتائج المذهلة. لقد كان فتح العرب المسلمين بلاد الشام إيداناً بمرحلة بحرية من تاريخ المنطقة دفعت باتجاهها كل العناصر التي يتكوّن منها المكان الجديد، والجغرافيا الجديدة، والأرض الجديدة.

لقد انتهت المعركة بشكل مفاجئ، واكتفت المصادر بإعلان النتيجة، دون أي تحليل واقعي، باستثناء ما ذكر عن إصابة القائد الرومي «مكث... حيناً جريحاً»<sup>(3)</sup>، وإن حجم القتلى والجرحاء في صفوف مقاتليه هو الذي قلب موازين المعركة غير مصلحته، لكن لا يبدو أن أعداد القتلى من الفريقين كانت متدالة كثيراً. يهي عند العرب المسلمين «بشر كثير»، وعند البيهقي «لا يحصى»<sup>(4)</sup>. وإن ذلك مصدر المعلومات إسلامي فإن الفرق لا يعود كبير. تحليل قصير إلى تحليل من الحقائق الذاتية، والعكس مع الأعداء، وحصوله عند الحشد يرمي فهمًا، «لم يجتمع للروم مثله قط منذ كان الإسلام»، كما كانت أعداد حراكب هائلة «فخرجوا في خمسمائة مركب»، ما يوحي بأن الهزيمة لهذه الحشد، وتلك الأعداد من المراكب، يمكن أن تكون ناجمة إمّا عن عناصر طارئة

(1) أبو خليل: أطلس التاريخ العربي الإسلامي، ج 4، ص 291. (2) المصدر نفسه، ص 280. (3) المصدر نفسه، ص 280. (4) المصدر نفسه، ص 280.



في المعركة، أو تفاوت ما في الجانب المعنوي، وإذا كانت المصادر لم تنس إلى أي عناصر طارئة في المعركة، فإن الاحتمال الثاني يبقى راجحاً، لكونه مأثوراً في معارك العرب المسلمين حتى ذلك الحين.

## 2- أبعاد ومعاني مكانية.

سنوات قليلة، قد لا تتجاوز العقد، بين موقف الإمتناع عن غرض البحر وبيان تحقيق الإنتصارات والفتوحات الكبرى فيه. سنوات قليلة، لم تكتمل فيها جُل واحد، بين الإعراض الكلي عن الماء، والتشكك الشديد بالبرّ وعالم الصحراء، وكل ما فيه وما عليه، وبين هذا التوغل العميق، والتكيف السريع مع البحر وعالم المياه وكل ما فيه وما عليه. كيف يمكن لنا أن نفهم هذا الإنخراط الواسع والتفاني للأعداد الغفيرة من العرب المسلمين الذين لم تكتمل عملية تكيفهم بالبلاد الجديدة، بلاد الشام، حتى باشروا نوعاً من التكيف، مقروناً بالمواجهة الحربية، في مكان لم يخطر يوماً على بالهم، ولا جرى في آمالهم وأحلامهم؟

إن الإقليم الطبيعي بنية واحدة، والدخول في ناحية منه يمهّد لبقية النواحي كذلك إن هذه السرعة في الدخول إلى عالم البحر شبيهة جداً بسرعة قطع المسافة بين البرّ الشامي وبحره، وإن هذه التفاتية التي اتسمت بها حركة الأعداد الغفيرة بركوب البحر قريبة جداً من إنسياب السواحل بمياه الشواطئ، أما هذا الإنخراط الواسع فقد أخذ شكله وحجمه من شكل هذا البحر ورحابة عرضه وبُعد أعناق.

لقد كان فتح بلاد الشام مقدمة ضرورية لغرض المسلمين البحر، ربما تجاوزت بأهميتها خصوصية مصر البحرية، فبلاد الشام بحرية أكثر من مصر وسائر المدن على السواحل الشمالية للقارة الأفريقية، والعمق الشامي لا يخرج بالشام من البحر، بينما يفعل ذلك في مصر وباقي المدن المجاورة إلى العرب إن تاربع مصر، وحصار مصر، يمكن فهمهما، وإن بصورة نسبة، خارج البحر المنوط، لكن تاريخ بلاد الشام وحضارتها لا يمكن فهمهما، أو كتابتهما، إلا بماء البحر، وخطوط أمواجه، وتضاريس شواطئه.

والفارق كبير بين موقفين متعارضين: أحدهما لمعاوية بن أبي سفيان يطلب به من الخليفة الثاني، بطريقة تصل إلى حد الإلحاح، غزو البحر، والأخر يعبرو عن العاص يصوّر له البحر بأصعب ما يكون التهويل والتحذير، بشكل يشاھي به الخيال، هل يمكن فصل هذين الموقفين عن طبيعة المكان، وتاريخ المكان، والتفكير المكاني؟

إن هذه الإمكانيات - إذا جاز التعبير - لمكان بلاد الشام لم تُكشف بقوتها جيداً، إلا بعد زوال الدولة الأموية، والإنفصال بحركي لسطفة شرقاً إلى عراق، حيث للمكان الجديد إعتباره وآفاقه الخاصة، في تلك الفترة سيترجع الاهتمام بالبحر، كجزء من تراجع الاهتمام بتقييمه المكاني. وكما كان البحر مربطاً إلى أقصى غربه، وصلة طبيعية بين سواحله ومذنه، فإن تراجع الاهتمام به ينعكس إنصافاً عن كل مدحقاته ونسبته. وسرى في الحفلة العاصية كيت سيتم إستبدال الشرق بالغرب، ويصل نصف العالمين غرباً إلى درجة تضع فيها أحد بني أمية الفارزين من العباسيين، عبد الرحمن بن حنبل، إلى بقية دولة أموية في الغرب، من دور أن يكون لبي العباس، ودونهم الحفلة في شرق، أي تأثير ملحوظ في هذا التحول.

أظهرت معركة «ذات الصواري» أن العرب المسلمين، وإن قطعوا أشواً مهمة في عالم البحر، إلا أنهم لم يرحلوا فعلياً أو كُتب من البرّ. فقد اندفعوا مصرهم قبل بدء المعركة للنزول إلى البرّ، لكن هؤلاء لم يتجاوزوا ما اضطرهم منه داخل المياه، ثم بدأ الجميع يربط سائر معتقدات عصر، جهداً كده، حركة على أرضية وميدان شيه بالبرّ في الصلاة والنبات، وسقطت المهمة حصة بالمرآكب كما تنسقط أية مهمة لأية ناحية من أحر أرض المعركة في البرّ، فالسفن، بمياهي سفن، هائله تعد حرة مؤثر في المشهد، بل لم يعد لها علاقة خاصة بأي محارب من الطرفين، وإذا ما قورنت بالحمل في البرّ فهي - بدوره، ودون تأثير، بل المقارنة في أصلها غير واردة، أما السلاح فلا علاقة

للمكان فيه، إنه سلاح برّي فوق سطح المياه، بل إنه السلاح الفردي الشخصي حيث تواجها «بالخاجر»<sup>(١)</sup>. اللافت هنا أنه إذا كان العرب، وبحكم حداثة تجربتهم في البحر، قاموا بما قاموا به، واستخدموا ما استخدموا من طرق ووسائل برّية، فما بال الروم المعروفين بعراقة تجربتهم في البحار، وهذه المراكب الهائلة التي تحملهم، فلماذا لم نلاحظ لديهم أي نوع من السلاح ذي طابع بحري، كما لم نلاحظ أية طرق حرية لها علاقة بالبحر<sup>(٢)</sup>. هذا ما يدفعنا إلى إعتبار الوصف الإجمالي لأعمال المعركة وأدواتها متماهياً مع الطرف العربي المسلم أكثر من تماهيه مع الطرف الرومي، وعليه فمن المحتمل جداً أن يكون هذا المشهد المذكور في المصادر العربية هو أحد هذه المشاهد وليس كلها، ذلك أننا لم نعرش على أية سمة من سمات الفن والتجهيز العسكري الرومي، خصوصاً وأن هؤلاء كانوا في صدد عملية إنقاذية ثائرة توجب المزيد من الاستعداد، كما أوجبت المزيد من الحشود والمراكب.

والسؤال الذي يمكن طرحه في هذه الدراسة عن علاقة المكان بهذه النتيجة المثيرة وغير المتوقعة، خصوصاً إذا ما جازينا الآراء بأن مكان المعركة هو في «سواحل الأناضول الجنوبية»<sup>(٣)</sup> أي في المنطقة الفاصلة بين المياه الأنثية الشامية - إذا جاز التعبير -، وتلك المتعلقة بالدولة البيزنطية، مع توغل واضح إلى الشمال. من وجهة نظر جغرافية مكانية يمكن قول ما يلي:

لقد جرت المعركة في العام 34 هـ / 655 م، أي بعد فتح سائر المدن والمناطق الشمالية التي تشكل الخلفية الجنوبية الشرقية لمكان المعركة، كما جرت فتح سائر المدن الرئيسة الواقعة في أقصى الجنوب على السواحل المصرية، وإن تعاوناً وتكاملاً جرى بين السواحل الجنوبية والشرقية في إنشاء البحر

(١) الطبري، تاريخ الأمم، ج 4، ص 290.

(٢) صلاح أحمد العمر، الفتوحات الإسلامية، ص 1290، وراشيسكو فيرييلي: محمد والفتوحات ص 291، جورج وميلر خوراني، العرب والصلاح في المحيط الهندي، ترجمة محمود بكر، مطابع دار الكتاب العربي، القاهرة، ص 181.

بحري للأناضول، فالخلفية المكانية للعرب المسلمين صلبة وواسعة وعية، بحيث يمكن أن تعني نسبة كبيرة من القسم الشرقي للبحر المتوسط، بكل ما فيه ولا سيما ما يقال عن أهل البحر في مصر، وهم شريحة واسعة من الأقباط المتمرسين في الأنشطة البحرية، وصناعة أدواتها، ومعرفة حرفة.

إن، إن تاريخ هذا القسم ومكوناته (القسم الشرقي للمتوسط) قد اجتمعت على مهمة واحدة، وفي ظل خلفيات داغمة التأثير في ساحل مصري وسادي. استطاعت أن تقدم طرفاً متماسكاً ومتكاملاً في المعركة.

ثم إن فتح قبرص كان قد تم قبل خمسة أعوام، ما يعني أن هذا المكان أضحي جزءاً من جغرافية العرب المسلمين، ليشكل ما يشبه خط الدفاع الأول، أو القاعدة الأمامية، لإنطلاق معركة «ذات الصواري». وإذا تذكرنا أن عملية الفتح الثانية لقبرص قد تمت قبل عام تقريباً من معركة «ذات الصواري»، وأنها جاءت في أعقاب غزوة قام بها معاوية سنة ثلاث وثلاثين، وبعده من المراكب يعادل عدد مراكب الروم في «ذات الصواري»، أي خمسة مراكب، فإن ذلك يظهر أن أعداد العرب المسلمين في هذه المعركة لم تكن محدودة أبداً، وكذلك وسائل والأدوات.

في أي حال، إن ما وصل إليه العرب المسلمون في «ذات الصواري» في البحر - بنجاح كبيراً ما وصلوا إليه في البرّ - وإذا كانت جبال طوروس قد حالت دون تقدمهم في البرّ، فإن المسار البحري لا يحتوي أية حواجز طبيعية من هذا النوع، من المفيد هنا الإشارة إلى أننا في «ذات الصواري» لم تكن في صدد سيطرة على المكان، فقد اقتصر الأمر على إلحاق الهزيمة بالعدو، عاد إثرها الطرفان، ما بقي منهما، إلى أماكنهم.

فل أن تنهي الحديث عن ذات الصواري، لا بد من التأكيد على أن رغم نشاط البحري للمسلمين كان قوياً إلى حدٍّ لا يمكن معه إستعداداتية واقعة من

هذا النوع وفي تلك البقعة. وبالرغم من الحديث عن الحضور الروماني في السواحل الشرقية للمتوسط، فقد أثبتت الوقائع الخاصة بفتح قبرص الأول والثاني، وما تلا ذلك من سعي واضح لبناء مدينة عربية إسلامية في هذه الجزيرة، دون أية مقاومة فعلية من قبل الروم، أن هذا المدى لم يكن مدىً بحرياً ورومانياً في تلك الفترة، وأن فشل المشروع لا يرتبط بالظروف البحرية بقدر ارتباطه بالواقع الداخلي للدولة الأموية في عهد يزيد بن معاوية. أما الإغراض الكلي بعد ذلك عن المشروع، فيعود إلى جملة أمور منها ما يتصل بتراجع دور الحر عما كان عليه في عهد معاوية بسبب تطوّر الفتوحات الغربية، إلى غير ذلك من الأمور التي إنتهت إلى تطوّر الجغرافيا السياسية والتوجّه شرقاً، كما لاحظنا في زمن الدولة العباسية.

وكدليل على هذا الزخم العربي الإسلامي، يمكن التوقّف عند ما نقله اليعقوبي في أحداث سنة 32 هـ أي قبل عامين من «ذات الصواري»، إذا ما ثبّنا تاريخها في العام 34 هـ، حيث أشار إلى غزوة بقيادة معاوية بلغت «مضيق القسطنطينية، وفتحوا فتوحاً كثيرة»<sup>(1)</sup>، وهي بلا شك تنطوي على دلالة ذات مغزى كبير في هذا البحث. وبالرغم من الاستبعاد المبدي لبلوغ هذه المنطقة في تلك السنة، إلا أنه بإمكاننا اعتبارها واحدة من المؤشرات على الزخم العام في العمليات الحربية البحرية للعرب المسلمين، بحيث أن واحداً من كبار المؤرخين المسلمين اليعقوبي، ينقل هذه المعلومة، وينقلها في كتابه، بهذا المسود من الوضوح والاعتبار.

٥٥٥٥

## الفصل الخامس

### ٥٥٥٥ مركز الخلافة: الشروط والتطورات ٥٥٥٥

٥٥٥٥ مركز السلطة والمكان.

٥٥٥٥ شروط مركز السلطة.

من الأمور الثابتة في تاريخ الدول أن يكون للسلطة وأصحاب القرار مكان يبرهن فيه، حيث تنجز الأنشطة والأعمال العامة، ويجري لهذه الغاية بناء منشآت، ويتم تأمين التجهيزات اللازمة، ومع مرور الوقت يكتسب هذا المكان أهمية، كما يصبح محوراً تنضج إليه كل الشواحي وأصناف تحديد هذه مكان فيعود إلى أمور عديدة أبرزها توافر الموارد والشروط الحياتية الأساسية، خاصة الظروف الأمنية، والموقع المتوسط للمدينة، وقد تسبب غير من آخرى. يمكن اعتبارها أساسية، تتعلق بالثراث التاريخي، أو المضمون الديني، أو قوة العاقبة، والبيئة البشرية. وهذه عوامل يمكن أن يكون لها شأن الترجيح المتعادلت الأمور الأساسية، لكنها لا تكفي بنفسها في تحديد موقع أو مكان سلطة المركزية، أو مركز السلطة الرئيس.

من تحديث عن الموارد الحياتية الأساسية تنجبه الأنظار رأساً نحو ثلاثة عناصر: المياه، الغذاء، المناخ.

من محال الظروف الأمنية، لا سيما في التاريخ الوسيط وما فيه، فينبغي بحث عن الجبال أو الأنهار والبحار، كما يمكن الحديث عن الصحراء، من بحر أو فواصل طبيعية تجعله عتبة عادية على حد ما، أو يمكنه

في الحد الأدنى. ثم يأتي الموقع وهو أصعب الأمور في تحديد عاصمة الدولة، وأكثرها تعقيداً، وأجدرها تعبيراً عن عزم الدولة الناشئة وزخمها وأفقها. وإذا كان تشخيص توافر الموارد الحياتية بيسراً، فإن تشخيص ملائمة الموقع دون شروط وتطورات قد لا تسمح بأن تكون عملية التشخيص عملية ناجحة على المدنيين المتوسط والبعيد.

ما يتعين التأمل فيه بهذه الدراسة هو مدى ارتباط عملية تحديد مكان عاصمة القرار، أو مركز السلطة، بحيثيات المكان وقابلياته في صدر الإسلام.

توقفنا في فصل سابق عند حيثيات مكان مدينة الرسول، وشدّدنا على الموقع كأحد العناصر الأساسية، إن لم يكن العنصر الأول، الذي كان خلف اختيارها كحاضرة للإسلام الأول، إلا أنه يجب التفريق بين إختيار ثرب مكاناً للهجرة، ثم بعد ذلك مقراً للسلطة، من دون أن يعني ذلك إنعدام المشتركات بين الإختيارين.

فيرث الملاذ، ويرث الملجأ، ويرث المكان البعيد عن مكة، ويرث الوفود التي آمنت في العقبة الأولى والثانية، هي غير يرث، أو المدينة، التي شكلت قاعدة انطلاق الجيوش، وإستقبال الوفود، وإبرام العقود، وتوجيه الرسائل والبعوث.

## 2- نشوء مركز السلطة في المدينة.

لقد تحوّلت يرث، إذن، إلى مركز للسلطة مع مرور الوقت، حيث لم يكن ثمة سلطة فعلية لحظة الهجرة، وهكذا تزامن تنامي السلطة السياسية والإدارية فضلاً عن الدينية والشرعية مع هذا التحوّل البطيء والتدريجي، ويمكن القول أن ذروة التحوّل إلى مركز للسلطة تمت بعد فتح مكة وإعلان الرسول العودة إلى المدينة، كمرکز دائم له ولكبار الصحابة. ذلك أن المسلمين عموماً، والأصهار على وجه الخصوص لم يكتشفوا هذا التحوّل، إلا بعد إعلان الرسول عن عزمه للعودة معهم إلى المدينة إثر فتح مكة، فقد ظلّت الأنظار متجهة نحو مكة كمكان أول ومركز أول في أعين الجميع. ولم يتسنّ لغير الرسول - على ما يبدو

تفريق بين مكة القبلة، والموطن الأول، والبعثة، ومكة المركز الأول لندوة النبي. لقد أعلن الرسول قراره، من دون أية ملاحظات وإستسهامات، لقد مضى من طويل على العيش في المدينة، وثمة تاريخ في هذه الحاضرة بدأت تنسج من يد الجميع.

إن ظهور المدينة، كمركز، تجلّى، كما ذكرنا، بشكل واضح إثر فتح مكة، لكن التّأمل بسبب عودة الرسول إلى المدينة فحسب، على أهمية ذلك، بالإضافة ما تقدّم بدا لأول مرة أن بإمكان الرسول الإختيار بين مكانين أو حاضرتين، - إنشتر الطابع العام للمدينة كملاذ وملجأ ودار للهجرة، مع كل التحوّل التدريجي الذي أشرنا إليه، إلى حين توافر مكان آخر، ولم يتم ذلك إلا بعد فتح مكة، ولم يكن ثمة خيار آخر سوى مكة.

لقد أظهر إختيار الرسول للمدينة أهمية الموقع الجغرافي على ما عداها بديلة، حتى ولو كانت أهمية مكة، وما تعب من قدسة وحرمة ذبّية لا تملك، فالمدينة تقع في القسم الشمالي من الحجاز، المكان الأقرب إلى ذاك الموعودة للدولة الناشئة في بلاد الشام وغيرها. فمركز السلطة يرتبط، بدرجة الأولى، بحيثيات الموقع الذي تتقارب فيه الآراء، آراء مؤسسي العراكر حراسه، وإن اختلفت مشاربهم وانتماءاتهم. من هنا سوف يسعى الخلفاء إلى الحفاظ على إختيار الرسول، بالرغم من نشأة مدحة مدونة ونوع مدينتها، وتنوّع مواردها والمداخيل، وقد بدا أن هذا التمسك لا ينسب كثيراً إلى مخبرات الجديدة، لا سيما في أواخر عهد حبيشة شي وعهد حبيشة شي، حتى إذا جاء عهد الحبيشة الرابع شاملاً إحتشاقاً، - بعد عصر حبيشة شي، موقع الفعلي أشار إليه بوصوح. لقد تمّ إعتناق مركز السلطة، على وجه التحديد، وأصبحت المدينة، ومن دون إعلان رسمي أيضاً، شبيهة بشكل بالأنكال سكة بعد الفتح، وابتداءً من هذا العهد سوف يجري التطوير على مستوى الأبنية معاً، حيث لم يعد الموقع الجغرافي، ونالاً الدور السياسي.



كما كان عليه سابقاً، إثر المتغيرات الأخيرة في الشام والعراق ومصر وفارس.

ليس لدينا ما يشير إلى ما كان يدور في ذهن الخليفة الرابع عندما ترك المدينة إلى الكوفة، أو هل ترك المدينة من دون نية العودة إليها كمركز لسلطته، علماً أنه جرى إغتياله بعد وقت غير قصير في الكوفة، حيث لم يكن قد أنهى مهمته الطويلة والمعقدة بعد. لقد كان مركز السلطة، في تلك السنوات الخمس تقريباً، متأثراً إلى حد بعيد بما يعزّز هذه السلطة ويمكّنها من الخروج من التحديثات ظافرة وقوية، لقد اضطربت السلطة فعلياً، ولم يعد ثمة مكان ثابت قبل تثبيتها أولاً.

في تلك الفترة جرى البحث عن المكان الذي يثبت السلطة، وهو مكان قد لا يتوافق مع شروط تأسيس الأماكن الثابتة للسلطة، ما يعني أننا في صدد البحث عن مكان، أو أماكن، قد تكون إستثنائية ومؤقتة، لكنها لا تتنافى، من حيث المبدأ، مع الشروط الأساسية التي ذكرناها سابقاً. فالموقع المناسب يبقى مناسباً، والموارد الكافية تبقى كافية، لكن ثمة عنصر لا يظهر كثيراً في استقرار الدول الناشئة، على الأقل بهذه الجذوية وهذا الإلحاح، إنه البيئة المؤيدة والحاضنة، ففي مرحلة تثبيت السلطة يتقدم مكان توافر الأنصار والبيئة المؤيدة على كل ما عداها، إنه الملاذ كما هو المنطق، والملجأ كما هو المقر، لتثبيت السلطة المضطربة وتعافيها.

لقد خلت المدينة من صاحب السلطة، وإذا كانت السلطة لصيقة بصاحبها، تقيم حيث يقيم، وترحل حيثما يرحل، فالسلطة انتقلت إلى العراق، ومكثت وقتاً طويلاً في الكوفة، ولم تغادرها مع الخليفة الرابع إلا لأوقات محدودة، ولدوغي الحرب، إلى البصرة وإلى صفين ثم النهروان، وإذا كانت الأمور تجري على هذا الأساس، فالسلطة انتقلت فعلياً إلى الكوفة، من دون استقرار أو أنه قد ظهر مكانية مستحدثة، على ما يبدو فعلياً.

### - ثانياً: زمن المدينة - المركز.

إن تسمية يثرب بالمدينة لا يعني أنها كانت عامرة ومنظمة ومحاطة، بل هي

محصنة من القسم الشمالي للحجاز، وبالرغم من المميزات المكانية التي يربطها إليها سابقاً، لم تكن يوم نزول الرسول فيها معصرة وأبنة كست قديماً السلطة<sup>(1)</sup>، ومعنى ذلك أنها صارت مدينة بالمعنى العمراني التنظيمي لاحقاً. مع مرور الزمن، حيث جرى في الفترة الأولى ترتيب مجموعة من الإجراءات التي أنطع الدور، وخط الخطط، فلبثوا فيها، وكتب كتاباً وادع فيه اليهود ونهم على دينهم<sup>(2)</sup>.

لقد جاء تحسين أوضاع المكان في سياق تطوّر النظام الاجتماعي في هذه الفترة التي دخلت التاريخ من أوسع أبوابه. ثمة ضرورة للبت في ملكية أراضي الدولة أو القدرة على التصرف في مجموعة من الدور القائمة هناك، كد تنصيب ضرورة تعيين ما يمكن وصفه بالفواصل المكانية بين أفراد المجتمع، مع جمع حياتهم الشخصية وشؤونهم الخاصة، وقد كان لهذين الإجراءين من الدقة علامة ما ثبتت مفاعيلهما على المدى البعيد، «فلبثوا فيها».

دخلت المدينة في أطوار مختلفة من التوسع والتحصين وتغيير، وفي عهد عمر بن الخطاب، وبالتالي تنامي قدراتهم الاقتصادية والمالية، لا سيما في السنوات الأخيرة من عهد الرسول. واستمر وضع المدينة في النمو بالتوازي بآليات النظر العامة لها كمركز رئيس للسلطة ولإقامة الرسول وكيار صحابته، على ما يبدو - أية مؤشرات توحي بأي تبدل في هذه النظرة أو التوقع، حتى وفاة الرسول، ما يعني أن حجم الدولة وخريطتها العامة كانت تتسع مع ظروف ومزايا المركز القائم، على الأقل حتى ذلك الحين.

### 1 مؤشرات التحول في زمن المدينة - المركز.

مع مؤشرات أولية عن الشعور بتغيير المكان، وانعكاس في ملامحه، و...

سرى الله والشيخ، ج 2، ص 809

سرى نصر الله، ج 2، ص 11

ضمن كلام قبل في فترة تجيش القبائل للمشاركة في إنطلاقة الفتوحات خلال خلافة أبي بكر الصديق، حيث نقل الواقدي<sup>(1)</sup> في فتوحه نزول قبائل اليمن حوز المدينة لوقت ملحوظ، فأضر بهم المقام، من قلة الزاد، وعلف الخيل، وحدوية الأرض، لقد ضاقت المدينة بأعداد المستغفرين للفتوح، هذا ما يفسر نزولهم حوز المدينة، دون الدخول أو المكوث فيها، ثم إن الزاد القليل، والعلف المحدود، ونُدرة النبات في الأرض، شكل ما يمكن وصفه بالنقص البيئي في الحاجات الأساسية للحياة. لقد تمثل ذلك بالضرر الذي ألحقه هذا النقص بالقبائل القادمة من الجنوب، والتي كانت تنتظر توفير حاجاتها الأساسية لاستئناف سيرها نحو الشمال، الأمر الذي سيدفع بقادة القبائل للإجتماع بالخليفة، بغية الإعراب عن سوء أوضاعهم، متمنين عليه الإسراع في إعطاء الأوامر للإنطلاق الحملات الحرة، «وقد تكامل جيشنا وفرغنا من أهبتنا والمقام قد أضر بنا»<sup>(2)</sup>، ونق ما جاء على لسان بعض القادة المجتمعين بالخليفة.

ثم قدّم الوفد ما يشبه التوصيف العام لواقع المدينة في مثل هذه الأوضاع، هذا التوصيف الذي ينطوي على دلالات وأبعاد سيكون لها أثرها البالغ في مستقبل هذه الحاضرة الأثرية: «لأن بلدك ليست بلد جيش، ولا حافر، ولا عيش، والعسكر نازل، فإن كنت قد بذلت فيما عزمت عليه، فأمرنا بالرجوع إلى بلدنا»<sup>(3)</sup>.

إنه التعبير الأكثر إسترافاً لما سيكون عليه حال هذه الحاضرة العاصمة، ومركز إمداد وتجيش القبائل، للمرحلة الطويلة من الفتوح. لقد كشف هذا الوفد، وتسا لأول مرة بهذا الحجم وهذا الوضوح، إستحالة قيام المدينة بكل الدور المطلوب منها في المستقبل، ما يعني بدء العد العكسي لنهاية الزمن الذهبي لدار الهجرة بعد أن أسهمت بأهم وأول نفلة نوعية في تاريخ الإسلام.

(1) الواقدي: حرج الشام، ج 1، ص 7

(2) المصدر نفسه

(3) المصدر نفسه

لقد ثبت لدى هذا الوفد أن بلاد الجيوش لا تضيق بإقامتها و طعامها، أو علف شبيها، وأن بلادهم أولى بهم، وأجدر بعينهم، إذا ما حُرّ أي تسهيل على تجميع الجهاد. لقد كان الكلام قاسياً، كما كان واقعياً، وفيه ما فيه من تقييد حقيقة شديدة على الإستضافة أصاب مكائنها، وخدش في وظيفتها، وتجاوز بعضاً من تاريخها، لا سيما في السنين الأخيرة، عندما غدت هذه المدينة مقصداً للقبائل العربية من كل الأنظار والنواحي. «وَرَأَيْتُ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي بَيْتِ اللَّهِ أَوْفًا»<sup>(1)</sup>. ويعلمون ولا يهم للرسول، المقيم الدائم في ربوعها.

وعلى غرار الواقدي، فقد نقل الأزدي<sup>(2)</sup> في فتوحه نصاً قريباً من نص سلفه، حيث أشار إلى قيس بن هبيرة بن مكشوح المرادي. أحد مرسلات العرب من الجاهلية، وصعه جمع كثير من قومه، وقد أتوا أبا بكر يسألونه عن سبب إنتظاره بقعة الجنود، ولما أجابهم إنه لم يتظر سوى قدومهم، قال قيس «فقد قدمنا، فأبعت الناس الأول فالأول، فإن هذه البلدة ليست ببلدة عُفٍّ ولا كُرَاع»<sup>(3)</sup>. لقد كان نص الواقدي أكثر تمدناً في إشارته أن المدينة ليست بلد جيش ولا عيش بسبب قلة الزاد والعلف وجذوبة الأرض، فقد توسع قليلاً في الحاجات، وأعطاهما طابعاً أكثر تحضراً من ما أشار إليه الأزدي، «ليس ببلدة عُفٍّ ولا كُرَاع»، بالرغم من أن الجميع قادمون من اليمن - على ما يبدو -.

لن يجادل الخليفة - بالطبع - صيروه ما قالوا أوفروا، وسبب حد ذلك بإشارة الإنطلاق في طريق الفتح، لكن من المؤكد أنه تدعى كثيراً مع ما يعبه هذا الكلام على مستقبل عاصمته، ومن المرجح أنه لن يتردد بالتقدم بآية حظوة من شأنها تعزيز إمكانيات مدينة الرسول، ولكن لوقت قصير، حيث دفعته المسبة بعد أكل من عاصم على تسلمه الخلافة.

(1) قرآن الكريم: سورة النصر الآية الثانية.

(2) الأزدي: تاريخ فتح الشام، ص 11

(3) المصدر نفسه

إذن يمكن اعتبار ما تقدّم بمثابة أول انكشاف للمدينة، كعاصمة ومركز قرار، أمام متطلبات المرحلة الجديدة من تاريخ الإسلام، وإن التأمل البسيط يوحي بأن الأمور ستج في غير الاتجاه السائد حتى ذلك الحين.

## 2 - إرباط المدينة - المركز بطاقات المكان.

يمكن التعليق - من ناحية منهج الدراسة - على الأثر الذي بدأت ترى مكوّنات التربة والمساحة العامة في المدينة، بالإضافة إلى قلة الماء، عبر دورها المركزي. لقد استطاعت هذه المكوّنات تأمين الحد الأدنى من الحاجات لأعداد محددة، وفي فترة تاريخية ضاقت فيها الخيارات، أما وإن الأعداد أصبحت مفتوحة، والخيارات متعددة، والمشاريع طويلة وبعيدة، فإن هذا القص سيلعب دوره السلمي، كعنصر مكاني حاسم، في مثل هذه الظروف. ومن المفيد هنا أن نشير إلى أن هذا القص الحاد تجلّى بمناسية عابرة، إنتظار أمر الخليفة بالإنطلاق، ومع قبائل جاءت من اليمن حيث الظروف الطبيعية كانت إحدى عناصر تحريكها، فكيف إذا خرجنا من شبه جزيرة العرب، ودخلنا بلاد الشام والعراق وفارس ومصر، وأجرينا المقارنات التي لن تكفي هذه المرة بلوازم إستضافة شحود عسكرية كبيرة لفترة زمنية قصيرة، بل لإمداد عمليات فتوح واسعة، ومتعددة الاتجاهات، وعلى مسافات طويلة تُقدّر بمئات الأميال، هنا سيبدو الحديث عن النطاق الجغرافي العام للمدينة، ومكوّنات ترتيبها، وكمية المياه المتوافرة، بسيطاً، مقارنة بالحديث الجديد عن الموقع، والمسافة، والموارد الاقتصادية المتاحة.

الكلام عن الظروف المكانية الصعبة في شبه الجزيرة عموماً، وفي حواضر الحجاز خصوصاً، ليس جديداً، ولن يكون إكتشافاً، فالخليفة الراشدي الثاني حاطب العرب المسلمين الحجازيين في بداية عهده، وصارحهم بصورة بالغة الشفافية: "... وبلادكم بلاد لا زرع فيها، ولا ضرع، ولا ما أوفر بها الإبل، إلا

من مسيرة شهر...<sup>(1)</sup>، لكن الجديد في الروايتين السابقتين يمس أهلية المدينة، كمكان للسلطة المركزية، وما تستلزمه من إمكانيات وحيثيات لم تعد كافية. قد لا يكون دار في ذهن كبار القبائل البينة ما يتصل بهذه النقطة تحديداً، لكن بالتأكيد سوف يكون لذلك تأثيره الخاص عندما تُسّع الدولة وتشمل العديد من المدن والأمصار، عند ذلك سوف يكون لهذا الكلام تأثير آخر، كما سيكون للمعنيين به رأي أكثر نضوجاً، وهذا ما جرى في تطوّر الأحداث.

## 3 - المدينة تتحمّس زمانها.

ومن الوقائع التي تدعم ما ذهبنا إليه ما جرى عندما ذهب الخليفة عمر بن الخطاب إلى الشام لفتح بيت المقدس، فقد طن أهل المدينة - حسب رواية الواقدي<sup>(2)</sup> - أن الخليفة «يقم بالشام، لما يرون من كثرة خيرها، وطيب فواكهها، ورخص أسعارها ولما يُخبرون عن أنها بلاد الأنبياء، وهي الأرض المقدسة، وفيها المحشرة»<sup>(3)</sup>.

لقد بدأت المقارنة المضرة تسرّب إلى العقول، في صفوف العامة و الخاصة، كما شرعت التوقعات الأولية بأنقال مكان الخلافة إلى الشام تشتت في مختلف الأوساط، ويبدو أن الإمكانيات والحيثيات المأخوذة بعين الاعتبار لم تصل، في البداية، إلى المستوى المؤثر، فقد كان الحديث منصباً على كثرة العيرات وطيبها ورخصها، وهذا أمر تنعز إليه المدينة، وشكّل، بالفعل، أول نقاط ضعفها في المرحلة الجديدة، لكن بموازاة ذلك جرى الكشف عن حيثيات بالغة التأثير، تتعلق بكونها بلاد الأنبياء، وأن أرضها مقدسة ومخصّصة ليوم الحشر، وهذا، في التقدير العام، بشكل نوعاً من التوازن المكاني الذي بدأت ملامحه بالظهور في مجال المقارنة بين حواضر الحجاز وحواضر الشام. وهذا

(1) الواقدي: فتح الشام، ج 1، ص 87

(2) المصدر نفسه، ص 236

(3) المصدر نفسه

أمر له دلالة الخاصة إذا ما تذكرنا أنه صادرٌ عن الفئات الشعبية التي تملك شيئاً من الإحساس بالناصر الأثيرة للمكان. وتتابع الرواية بأن الناس كانوا يكثرُونَ النظر نحو الطرق الخاصة ببلاد الشام، أملاً بعودة الخليفة، «ويخرجون في كل يوم ينظرون»<sup>(١)</sup>، حتى قدم «فارتجت المدينة يوم قدومه، واستبشر أصحاب رسول الله ﷺ برويته»<sup>(٢)</sup>.

إن هذا الإحتفال والتأثر البالغ بقدوم الخليفة ليس إحتفالاً وتأثراً بشخصه فقط، بل هو إحتفال وتأثر بتجديد الاعتبار للمدينة، كمقر للسلطة العليا، سلطة الخليفة. لقد كان الإرتجاج المدوّي في الرواية في حجم أهمية إستمرار المكتسبات التاريخية للمدينة، بمفاعيلها وصلاحياتها المتنوعة، وما إستبشار الصحابة، وهذه إشارة بليغة، بروية الخليفة، إلا شكلاً من أشكال الإطمئنان إلى بقاء الأمور على ما هي عليه، حيث ستابع المدينة ما شرعت به وصارت إليه في حياة الرسول.

لم نشر الرواية إلى أي موقف للخليفة، سلباً أم إيجاباً، وإذا كان كل ذلك يقع على مسعاه وتحت نظره، فإنه، بصمته وبإصراره على البقاء في المدينة، يوحي بأنه في صدد تثبيت هذه الحاضرة، كمركز للسلطة، بالرغم من الكلفة والسلبات الساحمة. من غريب الأمور أن تنتشر هذه التوقعات في ظل هذا الصمت، لكأن الموقف كان يحتاج إلى إجراءات فعلية لتثبيت المكان، أما الكلام في هذا المجال فإنه لن يكون في مصلحة المكان العالي، على الأرجح.

#### 4- إنتقال كبار الصحابة إلى بلاد الفتح.

لا شك بأن هجرة كبار الصحابة إلى البلاد المفتوحة كانت قد أسهمت في تفريغ المدينة من العنصر البشري، المؤثر في مكانتها ودورها، كما لا شك

(١) المصدر السابق

(٢) المصدر نفسه.

بأن مقتل الخليفة الثالث، وما سبقه ورافقه ولحق به في المدينة، كان قد قضى على ما تبقى من مكانة أو دور لها كمقر للسلطة العليا والهيبة المعطى، لكن هل يمكننا النظر إلى التطور العميق من زاوية الوقائع العامة والظاهرة، على أهميتها وخطورتها؟<sup>(١)</sup>

إن التأمل في خلفية التحولات الكبرى وأسبابها في التاريخ يجب أن يذهب رماً إلى العناصر العميقة، والبالغة التأثير، ولا يستغرق بالوقائع المثيرة التي لم تكن، في حقيقتها، سوى مظاهر تلك العناصر التي وصفتها بالعيبية والفراق شديد بين الواقع المثير وبين العامل المؤثر، بين النتائج المتداعية وبين الخلفية المحركة.

لقد كان المكان هو أهم هذه العوامل وأبرز هذه الخلفيات، لقد شكّل المعطى الدائم في تحريك الأوضاع، وتوليد الطرف المؤاني دائماً لهذا النوع من الوقائع والأحداث.

لقد بان ضعف «المكان» عن متابعة الدور في هذا التفاوت الشديد بين إمكانات المعارضين على الخليفة الثالث وإمكانات المدينة، بين طاقاتهم وطاقه هذه الحاضرة. وبان هذا الضعف عندما ضاقت الخيارات أمام العديد من كبار الصحابة، فلم يعد بقاؤهم في المدينة سوى نوع من الإحتراق والتوقع، فيما تسير الأمور في اتجاه الفتح والتوسع. إن ما وصفه فلهوزن «إنتحاراً سياسياً»<sup>(٢)</sup> ارتكبه بعض هؤلاء بخروجهم من المدينة وهديمهم السيادة الأدبية التي كانوا يستندون إليها، لم يكن سوى تحرواً واقعي من قيود المكان وطاقته المتداعية تحت وطأة الحاجات والمستلزمات المتفاقمة.

هل كان المطلوب هو بقاء المدينة كعاصمة للدولة الناشئة بأي ثمن ومهما كانت النتائج، وهل كان المطلوب تجاهل كل هذا الضعف، والتفاوت بين

(١) ليوليس فلهوزن: تاريخ الدولة العربية منذ ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، ترجمة محمد عبد الهادي أبو زيد، دار بيلود، باريس 2004، ص 33.



المدينة والأمصار الجديدة، فقط من أجل تعطيل مفاعيل الإمكانات والقابليات الهائلة التي داهمت الجميع، وفرضت نفسها على الجميع<sup>٩٩</sup>. لم يكن تجاهل المعطيات الجديدة، في أي مرحلة من مراحل التاريخ، قادراً على تعطيلها أو إعادتها إلى العدم. بإمكاننا اختيار ما نراه مناسباً، لكن بإمكان المكان أن يحدّد نهائياً نوع هذه الخيارات، وحجمها، ومدى تجاوبها مع حاجات الإنسان. وفي القضية التاريخية التي نبحت، نحن أمام عمليات تبديل أو تفضيل أماكن بنجم عنها تطوّرات مكابية، كذلك نحن أمام خيارات في الانتقال والهجرة، في الخروج والإعراض، وإذا كنا كذلك، فهل لنا سوى المكان محوراً للتفكير والتغيب والتحليل والتعليل؟ كيف يمكن فهم تبديل أو تفضيل المكان خارج المكان؟ وكيف يمكن استيعاب ترك المكان، أو الإعراض عنه، بعيداً عن المكان نفسه؟

يمكن لنا الآن أن نخرج بتبجئة عامة، أن دواعي الخروج، أو الإخراج، من المكان الأول، مرتبطة، حصّاً بمقاصد وأهداف خاصة بالمكان الثاني، أو البديل، وإذا كنا قد بحثنا الدواعي والأسباب، فمن المفترض الدخول في المقاصد والأهداف، وهذا ما سنشرع به.

إن مقاصد وأهداف كبار الصحابة من الخروج أو الانتقال، إلى الأمصار أو الأطراف، لم تكن سوى مقاصد وأهداف تعتبر جزءاً من مقاصد الفتوحات وأهدافها، فكما كانت ثمة خطوط عامة تجمع الفاتحين والمجاهدين، فإن بعضاً من هذه الخطوط، أو أكثر، كانت تصل بمقاصد وأهداف فردية، ولا يمكن تغلّب وقائع كبرى، بحجم الفتوحات، خالية من هذا النوع من المقاصد والأهداف، من هنا يصبح الحديث عن إعمال المدينة، أو التخلّي عنها، شكلاً من أشكال الإعتراض على خلفية الفتح وفلسفتها في عقول الفاتحين. فالخروج من المدينة ما كان ليتم، دون الدخول في بلاد الفتوحات، والعوامل التي ضغطت في سبيل الخروج ما كان لها أن تترك أثراً واقعياً، إلا بقدر تزامنها وتكاملها مع البدائل والفرص المتاحة، وكلما تجلّت هذه البدائل والفرص أكثر، كما هو

حال الفتوحات، فإن العوامل الضاغطة باتجاه الخروج تغدو أكثر تأثيراً، وأقوى نجمةً، في السلوك العام للأفراد والجماعات، من الواضح، إذن، أن فعالية ضغط في مكان المدينة متوقفة على فعالية الجذب والإستغناء في أماكن الفتوحات في بلاد الشام والعراق وفارس ومصر، وهذا ما تم فعله.

رأى المستشرق فلهوزن<sup>(١)</sup> أن نهاية الخلافة القديمة في مدينة الرسول إقترنت مقتل عثمان فيها، وإذا خرجت الخلافة الجديدة بعيداً عن مكانها الأول، فقد أصيبت الخلافة بقداستها، كما أصيبت المدينة بمكانتها، ذلك أن السيف غدا الوسيلة المعتمدة للحكم في النزاع الداخلي بين المسلمين. ثم، ومضمون الكلام لا يزال للمستشرق فلهوزن، إن قوة الدولة غدت في الأمصار، حيث هاجرت غالبية القبائل إلى أماكن المعسكرات، وانتقل، بالتوازي مع ذلك، مركز الثقل في جزيرة العرب، من الوسط إلى الأطراف.

إن أهل المدينة هم أول من خرجوا منها، وأول من تسبّبوا في إنهاء مجدها «لأنهم دعوا أهل الأمصار إلى مدينتهم، وخلّوا بينهم وبينها، يفعلون ما يشاؤون، وبذلك تنازل أهل المدينة عن سيادتهم التي كانت شاملة»<sup>(٢)</sup>، لقد كان السبب المركزي في هذا التطور كامناً في «هجرة العرب منها (أي المدينة) على نطاق واسع»<sup>(٣)</sup>، على حدّ تعبير المستشرق نفسه.

##### 5- المدينة والدور الروحي المتنامي.

أشار الجاحظ في كتابه «البلدان»<sup>(٤)</sup> إلى إمكانيات وخصائص المدينة، حيث «في نهرها، وثرها، وهوانها، دليل، وشاهد، وبرهان، على قول النبي صلى الله

(١) بوليس فلهوزن: تاريخ الدولة العربية منذ ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريّدة، دار بيبليون، باريس 2008، ص 53 و 54 و ٥٨

(٢) المرجع نفسه، ص 53.

(٣) المرجع نفسه، ص 54.

(٤) الجاحظ - البلدان، ص 486.

عليه وسلم «إنها طيبة، تقي خبيثها، وتتصع طيبها... هذا الطيب خلقه فيها، وجوهريه منها، وموجود في جميع أحوالها»<sup>(1)</sup>، وفي مكان آخر، «ولم يكن بها طاعون قط ولا جذام»<sup>(2)</sup>.

لا شك أن ما تقدمه الجاحظ يشكل أحد العناصر الضرورية في بناء الأماكن والسكن فيه، لكن كما نرى، فالحديث يجري في المجال الصحي والروحي، ولا يرتبط بالموارد الاقتصادية المتوافرة. فالتزب المذكورة لا تعني هنا خصوبة التربة، والكلام نفسه للثري، بل المادة نفسها، بتكوينها الجاف والخالي من أي جراثيم أو مفسد المناطق الرطبة، فقد عمّقتها الحرارة، وبالف في تفتيتها الجفاف، بحيث لم يعد ثمة عناصر دخيلة على التكوين الأساسي للتراب والثري، وكذلك الهواء الذي حافظ على صفاته ونقاته، كما حافظت البوادي والصحاري على طيبعتها وقفها وبيائها. ومن الطبيعي أن تتحول هذه المزاي إلى رصيد معنوي روحي، كونها مدينة الرسول، ومحل إقامته، ومثواه الأخير. فالأماكن المقدسة، كما ترمز إلى الطهارة والتورانية، فهي تنطوي على نقاوة وصفاء يعاضد رمزيتها تلك ليتحول المكان إلى ما يشبه البقعة المثالية، والحيث الأبهى للحياة الإنسانية المرحوة. ثم يأتي خلو هذه المدينة من الطاعون أو الجذام بشكل بالغ التعبير عن الرعاية والحماية الربانية. إنه المكان الذي إختارته المشيئة الإلهية ليكون المطلق لشقبة وتصفية الأقاليم والمناطق الأخرى، فكما كان الرسول نقباً وصافياً، وكما كان الدين نوراً ورحمة، ما هو المكان على المنهج نفسه طيباً وطارهاً، لتكتمل المعادلة وتستقر البيئة على مكوناتها المتجانسة.

ما تقدم سبب مع المكانة الروحية للمدينة، وهذا دور سببكم وصيده وتأثيره في التاريخ، ولن يستطيع أحد، كانتاً من كان، ولا ظرف في أي حال، أن ينال من هذه القابليات المعنوية المتواصلة والمتنامية، لكن هذا جزء من

(1) الجاحظ: البلدان، ص 486.

(2) المصدر نفسه ص 486.

لشور العام التي كانت تقوم به، أما الدور السياسي والمركزي للسلطة فقد تراجع وبحر بشكل طبيعي وتلقائي، ولا توجد رابطة عضوية أو وجودية بين الدورين.

ثلاثة محاولات في دعم المدينة.

### 1- وصل بحر الشام ببحر القلزم.

ثمة مشروع تكرر الحديث عنه في المصادر يتعلق بتحسين الظروف المكانية للبحار عموماً، وللمدينة على وجه الخصوص، يمكن إختصار هذا المشروع عملية وصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط، وهذا من شأنه الإسهام في تعزيز للاقلة والتكامل بين مصر وشبه جزيرة العرب.

قد نقل المسعودي أن بعض ملوك الروم حفر بين القلزم والروم طريقاً، فلم ينجح مشروعه «لارتفاع القلزم وإنخفاض بحر الروم»<sup>(1)</sup>. كذلك ثمة رواية وردت في تاريخ الطبري<sup>(2)</sup> عن محاولة أخرى في عهد عمرو بن العاص عندما وصلته استغاثة الخليفة في خصوص تأمير الحبوب لأهل المدينة. حيث أخبر ابن العاص الخليفة عمر بن الخطاب بأن البحر الشامي حُفر في زمن البعثة واتصل بحر العرب، لكن الروم والقيط تعاونوا على سدّه، وعرض على الخليفة أن يكون سحر الطعام بالمدينة كسره في مصر، إذا ما حفر للبحر الشامي حفرًا وسهلاً فاطر. فكتب إليه عمر أن افعل «وعجل ذلك»<sup>(3)</sup>، وأنه قد اعترض أهل مصر على عملية الوصل هذه، متخوفين من إنكسار الفراج، حيث بلغ اعتراضهم الخليفة الذي كتب إلى وإليه على مصر: «إعمل فيه وعجل»، أخبر الله مصر في عمران المدينة وصلاحيها، ونسبها الرواية بأن عمرو ابن العاص قام بالشرع وهو بالقلزم، وتساوت الأسعار بين المدينة ومصر وفق ما تنبأ، يسالم بؤثر ذلك على

(1) المسعودي: مروج الذهب، ج 2، ص 297.

(2) الطبري: تاريخ الأمم، ج 4، ص 100.

(3) المصدر نفسه.

خراج مصر، وإنتعش أهل المدينة بعد سنين صعبة، وبقي الوضع على حاله، «حتى حُجس عنهم البحر مع مقتل عثمان (رض)، فذُلُّوا وتقصَّروا وخشعوا»<sup>(1)</sup>.

نقل صاحب المذهب رواية مختلفة عن ما أورده الطبري، حيث أشار إلى أن عمرو بن العاص رآه ذلك فمنعه الخليفة عمر بن الخطاب تحوطاً بسبب إمكانية أن يتحول هذا المنفذ إلى خطر على المسلمين في مكة عندما تصل مراكب الروم إلى شواطئ الحجاز. وختم المسعودي، وهو العارف بجغرافية المكان، أن آثار الحفر بين هذين البحرين، البحر الشامي وبحر العرب، بيَّنة.

لن نخوض كثيراً في مدى دقة ما أورده الطبري والمسعودي، فالمهم بالنسبة لنا هي الفكرة التي تقف خلف هذا المشروع، والتي تتمثل بالسعي لتحسين ظروف المدينة الصعبة، والثالث هنا أن هذا المشروع تكرر لاحقاً في عهد هارون الرشيد، دون أن يسلك طريق التنفيذ للدواعي والمخاطر نفسها التي أوردها المسعودي في عهد عمر بن الخطاب، وإذا كانت المحاذير واحدة، والشواهد على عملية الحفر الفعلي على يد عمرو بن العاص غير كافية، فبالإمكان الركون إلى رواية المسعودي كونها تنصُّن الحد الأدنى من المعطيات المطلوبة حول هذا الموضوع، من دون أن يعني ذلك استبعاداً علمياً لرواية الطبري التي مال إليها أحد الباحثين<sup>(2)</sup>.

## 2- حبوب مصر تنقذ المدينة.

نحن إذن، أمام عملية تصرُّف بالشكل الجغرافي لبعض المكان المحيط بالمدينة، بغية تعزيز إمكاناتها دون جدوى. لقد شكل المصمون الديني والتاريخي دافعاً قريباً للتسلك بهذه الحاضرة كمقر للسلطة العليا، ولكن البُنية الأساسية كانت أقل بكثير مما نحتاجه المرحلة الجديدة.

(1) المصدر السابق.

(2) جورج فاضل حوراني، العرب والملاحة، ص 188.

لقد أشار اليعقوبي<sup>(1)</sup> والبلاذري كيف تحولت إستعانة الحبيبة عمر لإصعاد من المدينة من مصر، في سنة إحدى وعشرين هجرية، إلى عملية إمداد ضخمة، وأُتِمَّت من عشرين مركباً محملاً بالحبوب، وقد وصلت إلى ميناء الجار بعد عبورها نهر، حيث إستقبلها الخليفة نفسه يرافقه جمع من كبار الصحابة، ونُتِهي الرواية إلى الأمر ببناء ما يمكن تسميته بمستودعين للطعام، يجري تخزين الطعام فيهما، نقل نقله إلى المدينة، حيث تم تخصيص دار خاصة لذلك، وفق رواية البلاذري بها المناسبة الأكثر بروزاً لميناء الجار الذي جرى تنشيطه في تلك الفترة المبكرة من صدر الإسلام، بعد فترة إنقطاع طويلة.

هذا الإمداد المصري للمدينة بدأ عامل إستقرار وثبت لها، وتحولت مصر، فترة طويلة، «إلى إهراء الحجاز بكامله» على حد تعبير أحد الباحثين<sup>(2)</sup>. لقد كان حضور المسلمين في السواحل الغربية للبحر الأحمر إيذاناً ببدء مرحلة جديدة، ليس لهذا الميناء فحسب، بل للبحر الأحمر عموماً، وهذا ما يمكن ملاحظته في أكثر من مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي لهذه المنطقة.

لقد كان الموقف ضعيفاً بعض الشيء، حيث كان الخليفة واضحاً بتقويمه عدم لإمكانات الحجاز «إن الحجاز ليس لكم دار إلا على النجعة»<sup>(3)</sup>، ولا يخفى عليه أهله إلا بذلك<sup>(4)</sup>، وقد دعاهم بصراحة إلى السير في الأرض التي وعدهم بها في الكتاب أنه سيورثها لهم، لكن الحبيبة ذات البحثي عسى ما يبدو من غريب المكان المركز، وتفرَّق الجماعة الأولى، فقد جاء بعض منهم بمسؤولية محروج إلى الجهاد، فرد عليه «قد تقدمتكم مع رسول الله، فإني أحد بملائكم قريش على أفواه هذه النجعة»<sup>(5)</sup>، لا نحرص

(1) الطبري، التاريخ ج 2، ص 194، البلاذري، فوج البلدان، ص 213 - 214.

(2) محمد مهدي شعيان: صدر الإسلام والفتوة الأموية، ص 49.

(3) نظري تاريخ الأمم، ج 1، ص 445.

(4) الطبري، التاريخ، ج 2، ص 157 - 158.

عوامل الخروج من المدينة، وعوامل الجذب في بلاد الفتح. لقد بدا العراق هو الخيار الأمثل، بالرغم من الميل التاريخي والروحي لبلاد الشام، وبالرغم من السلبية الأولى التي طبعت مواقف القبائل عشية الفتح، لقد كان المجال متاح، والمكان الأنسب والأغنى، يمسك بتلابيب الأمور، فكانت الوجهة إليه، وكان البديل التدريجي والأول بعد الحجاز.

كانت أماكن الثورة على عثمان، في الكوفة والبصرة والفسطاط، توحى بأنها في مستهل مرحلة من الصراع مع السلطة المركزية، سيكتشف المشاركون، من دون قصد أو وعي، في هذا الصراع أنهم كانوا في صدد المزيد من الكشف عن ضعف إمكانيات المدينة، وبالتالي تقديم البدائل المناسبة، أكثر من كونهم في صدد الضغط على السلطة لتعديل موقفها، أو تصويب سياستها سيكتشف الجميع أنهم سيكونون، من دون تصميم مسبق، أمام تناقض حقيقي بين موازين القوى الجديدة القائمة على إمكانيات المكان ومزاياه المتنوعة.

إن الجراءة<sup>(1)</sup> التي تميز بها أهل الكوفة في موقفهم من واليها العتيد عندما رأى أن «السواد يستأن لقرش»<sup>(2)</sup>، لا تعبر فقط عن وضوح الرؤية والالتزام بالحق والعدل، بل كانت تعبر بالدرجة الأولى عن تفاعلهم المنفوخ مع هذه الثروة المكانية التي تجعل منهم أمياداً قادرين، كما هو حال غيرهم، وربما أكثر. لقد كان أهل الكوفة ينطقون بإمكاناتهم التي وقّرها المكان بأفضل ما يكون، وجاء من يريد إلغاء ذلك، وبالتالي جعلهم خارج مكانهم. إن تمسك وجهاء الكوفة بالسواد هو تمسك بالمكان، وبكل ما يرمز إليه، وما يشكله من مصادر استقرار وإزدهار. هل يعني ما تقدم أننا في صدد تحديد المكان البديل للسلطة المركزية؟؟ قد لا يكون هذا الأمر قد جال في أذهان القسّين على هذا الصراع، لكن مقتضى الأمور إذا ما تكاملت عناصرها، أن يأخذ هذا التسحي أيضاً بوعي، أو من دون وعي.

(1) إبراهيم بيضون: الحجاز والدولة الإسلامية، ص 174.

(2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج 4، ص 333.

لقد كان الخليفة يرمق، ببصره البعيد، تداعيات هذا التشجيع المتواصل للفتح على دور المدينة ومستقبلها، وما رأيناه في منع البعض من الخروج، ليس سوى واحدة من الشواهد العديدة على القلق الفعلي الذي كان يعيشه الخليفة وينمو في صدره مع مرور الوقت.

لقد كان يرى أن ميزة المدينة تستمر بميزة القاطنين فيها، من كبار الصحابة والرجالات الأوائل في الإسلام، وأن الفتح هي بالدرجة الأولى مهمة المجموعات والقبائل الجديدة التي لا يؤثر غيابها عن حاضرة الخلافة في مكانها ودورها. لقد كان عليه الفصل بين الأمرين، ولم يكن ذلك سهلاً، أو حتى واقعياً. في أحيان كثيرة.

رابعاً: الخليفة علي والقراء التقاتلي.

### 1- الشام والعراق والبديل الممكن للمدينة.

لقد برز الشام والعراق، كأماكن بديلة أنسب وأفضل، ولكن العراق كان أكثر جذباً لوجوه الصحابة وقبائل الحجاز، الباحثة عن الثراء والنفوذ<sup>(1)</sup>، حيث المكورات التي اصطَلَحنا على تسميتها بالمكانية أوفر وأغنى، أما الشام، فهي بالإضافة إلى كونها أقل ثراءً من العراق، فقد قدر لها أن تكون «شبه مخلقة على نظام صارم وسلطة مباشرة»<sup>(2)</sup>، في عهد واليها القوي معاوية بن أبي سفيان<sup>(3)</sup>.

فالخيارات غدت ماثلة للعيان، ما يعني إنطلاقة قوية لمفاعيل ما أصبحنا

(1) إبراهيم بيضون: الحجاز والدولة الإسلامية، ص 46.

(2) المرجع نفسه.

(3) في موقف معاوية أمام عثمان بن ياسر يوحى بهذا الواقع المعزول للشام: «... إن الشام مثل الف فارس، كل يأخذ الصطاء مع متلهم من أبائهم وعبدالهم، لا يعرفون علماً ولا قرابته، ولا صداراً ولا سابقته، ولا زبير ولا صاحبته، ولا طلحة ولا عكرمة، ولا يهاون ابن عوف ولا ماله، ولا يتقرب سداً ولا دونه»، منسوب لابي قتية الذهري، فيداله بن مسلم: الأمانة والسياسة، المعروف بتاريخ الضلّات، تحقيق علي شيري، دار الأعراف، الطبعة الأولى، بيروت 1990، ص 46.



## 2- الكوفة بديلاً أولياً للمدينة.

لقد جاء اختيار الخليفة الرابع للكوفة، كمكان شبه دائم لإقامته في العراق، توجهاً لمرحلة من الحراك والإعتراض على سياسة الخلافة نهضت به نخبة من الكوفيين لديها ميول واضحة نحو الخليفة الرابع، وقد شكلوا مع أنصارهم وقبائلهم قاعدة شيعية أثّرت مناخاً ملائماً للخليفة الجديد الذي يستعد للمعركة مع خصومه في البصرة.

لم تعد المدينة مسرحاً ملائماً للثورة أو الإعتراض، فقد غادرها طلحة والزبير إلى البصرة لتوافر الأنصار والأتباع<sup>(1)</sup>، وللا إمكانات المكانية التي تتحتم بها هذه الحاضرة الصاعدة منذ أكثر من عقدين من الزمان.

كذلك لم تكن المواجهة مع الثائرين والمعترضين لستم من المدينة، فقد غادرها هؤلاء من دون ضغوط، فالخليفة الرابع ما كان يكفيه أن يخرج هؤلاء من عاصمة الخلافة ليشعر بالإستقرار والقوة، فالمدينة لم تعد مبعث إطمئنان أو إستقرار. لقد تخلى الخليفة أيضاً عن المدينة، بالرغم من التأثير المعنوي السلبي الذي يمكن أن يحدث، ولحق بإقليم أعدائه، ثم وصل إلى المكان الذي تحشّن فيه الخصوم، وكانت معركة الجمل في مستهل عهده، وفي البصرة بالتحديد، إيذاناً ببدء مرحلة تاريخية جديدة للعراق، بحاضريته البصرة والكوفة. بدءاً من تاريخ معركة الجمل يمكن إعتبار العراق مسرحاً حامياً لتطوّر الأحداث في الداخل الإسلامي، فقد جرى إستثمار إمكانياته وقابلياته بالشكل الذي حوّل من إقليم الفتوحات الكبرى، والموارد العظمى، إلى إقليم الإعتراضات المؤثرة والتوترات المتوالية.

والسؤال يتكرّر هنا، هل يمكن عزل الظروف المكانية للعراق، لا سيما فيما يتعلق بموارده المادية وقابلياته الإقتصادية، عن عملية إختياره مسرحاً لأخطر الأحداث، وأعنفها تأثيراً، في نهاية العهد الراشدي والعهد الأموي؟؟ هل

(1) إبراهيم بيضون: الحجاز والدولة الإسلامية، ص 181

يمكن النظر إلى هذا الإقليم، بمعزل عن هذا التوافق الضمني، بين أهل السلطة والمعارضة، على المجال الأنسب لتصفية الحسابات وإعادة تشكيل السلطة، بل وحتى توفير إستقرارها وثباتها؟؟ بالتأكيد لا يمكن ذلك، فقد كان إختيار العراق متناسباً جداً مع الشروط المكانية المطلوبة للخارجين عن السلطة، كما للسلطة على السواء.

والسؤال المركزي هنا، هل كان الخليفة الرابع في صدد التخلي كلياً عن المدينة، كمركز لسلطة الخلافة، وبالتالي إعتداد الكوفة بديلاً نهائياً، وما يعني ذلك من ترتيبات إدارية وسياسية؟؟.

## 3- آراء ومقاربات.

لقد أشار المؤرخ إبراهيم بيضون<sup>(1)</sup> إلى هذه المسألة في كتابه «الحجر والدولة الإسلامية»، بقوله «ولذلك فإن هذه الفكرة [نقل العاصمة إلى العراق] ولدت في (المدينة) وانطلقت منها، وتمت تحت تأثير العزلة السياسية المحيطة بها، ولم تأت عرساً كما هو شائع في أعقاب معركة الجمل<sup>(2)</sup>»، وهذا رأي واضح في أن الخليفة الرابع إختار، فعلاً، الكوفة على المدينة.

أما محمد عبد المحي شعبان، فقد إعتبر أنه «من الخطأ على كل حال إعتبار ذلك نقلاً أكيداً للعاصمة من المدينة إلى الكوفة.. إن علياً لم يكن ينوي في هذا الوقت أن يستقر في الكوفة بصورة دائمة. لقد ذهب إليها بغية توطيد سلطته وحسب، ويدل على ذلك أنه أقام معسكره خارج البلدة<sup>(3)</sup>»، وهذا مخالف لما رأيناه مع المؤرخ بيضون.

أمام هذا الإختلاف لا بد لنا من التوقف أمام الأمور التالية:

(1) المرجع السابق، ص 183.

(2) المرجع نفسه

(3) محمد عبد المحي شعبان: صدر الإسلام والدولة الأموية، ص 84.

أولاً: لا يظهر أن المصادر المتوافرة قد ألمحت إلى هذا الأمر، بما يرجح أحد الرأيين، وإذا كان الأمر كذلك فإن الإستنتاج الأولي هو غياب التفكير بهذه القضية أساساً، أي أن قضية الانتقال لم تكن مطروحة، سلباً أم إيجاباً. وإن مثل هذه الأمور لا تخفى، كلياً أو جزئياً، إذا ما تم اتخاذ قرار بشأنها، لا سيما وأن إحراقات مديانة ينفي أن تحدث، وبالتالي تعكس حقيقة التوجه الفعلي في هذا الشأن، وهذا ما لم تشر إليه المصادر.

ثانياً: إن خروج الخليفة الرابع من المدينة إلى البصرة مرتبط بخروج طلحة والزبير، ومعهما عائشة، وما سعى إليه من توير الناس على الخليفة، فالقضية محدّدة في البداية على هذه الطريقة، لكن ما حدث بعد معركة الجمل، لا سيما أن مصير المعركة جاء لمصلحة الخليفة، وما أعقب ذلك من بقاء الخليفة في العراق، تحضيراً ثم تنفيذاً لمعركة صفين مع والي الشام، هو الذي جعل قضية نقل العاصمة مطروحة للبحث، وإلا فقد كان من المفترض أن يعود الخليفة إلى المدينة، لفترة قصيرة على الأقل، تفصل ما بين المعركتين يجدد في ذلك مركزية المدينة، كما يعرض ورويته الجديدة للخلاف مع معاوية أمام من تبقى في دار الهجرة، وهذا ما لم يحدث على الإطلاق.

ثالثاً: ثمة نصوص عديدة للخليفة في أكثر القضايا المطروحة في زمانه، وما وصلنا لا بشير، مباشرة أو غير مباشرة، إلى موقفه أو رأيه بعاصمة الخلافة، أو حتى نظرتي للمدينة في هذا المجال، فإن ذلك يدعو إلى الميل بأن علياً لم يشغل بهذا الأمر، بل لم يكن مطروحاً لديه، سلباً أم إيجاباً، لقد كان مشغولاً بتحديثات السلطة أكثر من مركزها الدائم، أو كما ذكرنا سابقاً لقد كان تثبيت السلطة مقدماً على تثبيت مركزها.

رابعاً: إن ما تقدم يفسح في المجال للقول بأن الأمور كانت تسير بسفقتناها الطبيعية، أكثر من قرارات محدّدة في هذا الشأن، وعلى منهج هذه الدراسة فإن إمكانات المكان وقابليته، كانت خلف عمليات الخروج والإقامة والاستمرار،

أكثر من الإجراءات أو القرارات ذات الطابع التنظيمي والإداري.

إنها الظروف الإستثنائية التي يعدها فيها صاحب القرار، من دون مكان واحد أو محدّد، إنها الظروف التي تقتضيها المواجهة بأوسع هامش من المرونة والقدرة على التحرك، من دون أية موانع أو حدود اعتبارية لقد كان الخليفة الرابع حاضراً لمنطق الاستعداد للمواجهة، أو المواجهة الفعلية، وهذا الأمران يفترضان شروطاً وإمكانات يأتي المكان، بكل حيثياته، على رأسها وفي صدارتها، وهذا الوضع بنفسه لا يحتمل تسيباً أو تقيساً لمكانه الدائم، ثم في ذلك من محاذية لأبسط شروط الاستعداد والمواجهة في مثل هذه الظروف المضطربة.

نعم بالإمكان اعتبار حضور الخليفة الدائم في العراق، لا سيما الكوفة، هو إتجاه ضمني بالتخلي عن المدينة، والإقامة في الكوفة، لكن بصورة غير رسمية أو نهائية، والأمور مرتبطة بظروف الخلافة أولاً وآخرها.

لقد خاض الخليفة الرابع ثلاث معارك في ثلاثة مواقع: الأولى معركة الجمل في البصرة جنوب العراق، والثانية في صفين<sup>(1)</sup> إلى الشمال من العراق، وعلى الحدود الشمالية الشرقية لسوريا اليوم، والثالثة في النهروان<sup>(2)</sup> إلى الجنوب من بغداد اليوم، لقد كان المكان، وهو العراق، مركزياً بطبيعته، وبكل التطورات التي شهدتها الخلافة الإسلامية، منذ بدء الفتوحات، وصولاً حتى مقتل الخليفة الثالث، وبالتالي حرج الجميع من المدينة.

بعد صفين يشهد الصراع بين علي ومعاوية تطوّرات مكانية لافتة وصفت بأنها «حرب الأمصار»<sup>(3)</sup>، تمثلت بسعي معاوية لضم مصر إلى حوزته، ثم بعد

(1) «موضع يقرب الرقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربي بين الرقة وبالس» «بالحق المصري: معجم البلدان، ج 3، ص 414

(2) «قورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي حتماً الأعلى متصل ببغداد» «بالحق المصري: معجم البلدان، ج 3، ص 324 و 325.

(3) يهون: الحجاز والدملة الإسلامية، ص 210

ذلك حاول والي الشام إلحاق الحجاز «وإدراجه في دائرة الولاة الأموي»<sup>(١)</sup>، فيما عرف يومها بحملة بسر بن أبي أرطاة إلى الحجاز، في أواخر خلافة الإمام علي<sup>(٢)</sup>. وإذا كان السعي الأول قد حقق أهدافه فقد عجز والي الأموي عن تدجين المدينة في معركته مع الخليفة، لكن لم يكن معاوية، ولا علي من خلال ردة فعله اللاحقة، في صدد إسترداد عاصمة الرسول، وبالتالي

إستعادة دورها كمركز للسلطة، فقد كانت الحملة تستهدف إلحاق المدينة بالمركز الأموي الجديد، بما يعني تكريس واقعه الهامشي. كذلك فإن ما قام به الإمام علي لم يتجاوز الملاحقة لمعاوية في واحدة من ميادين التلاحم معه، ولم تظهر أية مؤشرات على حدوث أي جديد في ما يتعلق بوضع المدينة.

### ٤٥٣

### ٤٥٣ الخاتمة

حاولت هذه الدراسة تشخيص بعض أدوار المكان في مجموعة من التطورات التاريخية التي شهدتها المناطق والنواحي في شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق إبان البعثة النبوية والعهد الراشدي، ولا بد من الإشارة إلى أن ما جرى الإهتمام به لا يستوعب إلا القليل من هذه التطورات الهائلة التي عصمت بهذه المناطق والنواحي في تلك الفترة، وهذا لا يعني أن ما اختارته الدراسة قد استُنفد بحثاً وتأثلاً، فالمحاولة، كما بدت لي في نهاية البحث، أقرب إلى الإطلالة المحدودة منها إلى أي شيء آخر، فثمة أسئلة لاتنك تنوالي عند كل تأمل أو استنتاج، وهناك مقاربات لا تتوقف عند ما جرى التوصل إليه، لقد بدا المكان منتجاً عميق الغور، وبعيد المدى، وكثيف المحتوى، وإذا ما فاتة شيء من التحكم في مسار التطور فقد يعوّض ذلك بنفوذ الملحوظ إلى جانب العوامل والمؤثرات الكبرى كالدين والإقتصاد، بل هو، في بعض الحالات، على درحة عالية من التأثير والتحكم بهذه العوامل أيضاً.

إن دراسة الفتحاحات من رابطة حمرافية لا تقتصر على خليفاتها وأهدافها، أو عناصر الدفع والجذب فيها، فثمة مسارات سلكتها، ومخاضات عانتها، ومراحل تنقّلت بينها، ثم هناك عادات وتقاليدها الجديدة أو هجينة اكتسبتها، كل ذلك كان تأثير المكان الجديد والبيئة الجديدة، فالساح المختلف، على سبيل المثال، يعني أطعمة وأزياء وبيوت مختلفة، كما يعني آداب وفنون مختلفة. نعم المناخ يسهم في تحديد شكل اللباس ونوع قماشته، فضلاً عن لونه وطريقة تفصيله وخياطته وتنوع دلالاته ورمزياته. كذلك أنواع الأطعمة السائدة والمفضلة، وطريقة طهيها وإمكانية الحصول عليها، فضلاً عن تداولها والإقبال عليها، والبروت، كما الاسبية

(١) المرجع السابق

(٢) الطبري: تاريخ الأمم، ج ٥، ص ١٣٩، ١٤٠.

عموماً هي، في بعض وجوها، حصيلة الأفكار والجهود في مقاومة تقلبات المناخ بين التطرف والاعتدال. ومن غير الممكن ظهور آداب أو فنون من خارج حبيبات المكان وموجوداته ومفقوداته، فضلاً عن ألوانه وأشكاله. وليس جديداً القول بأن المناخ وملحقاته كان خلف تعيين نواحي الاستقرار ومناطق التملك والاستثمار، فالفتوحات تعني كل هذه التطورات التي تنتج عنها والتي لا تقل أهمية، من زاوية تاريخية، عن مجمل التطورات العامة كالتحولات العسكرية والمدنية والسياسية. هذه بعض الإضاءات لأبحاث مكثلة في هذا المجال.

والعلاقة مع البحر لن تسكن إثر القرار في خوضه بعد تردد، فهناك جرى الدخول في عالم جديد، أو العثور على جزء جديد من هذا العالم، بكل ما يعنى ذلك من نمط آخر للحياة ينطوي على إهتمامات جديدة، وحاجيات ناشئة، و ما ينتج عنه من عادات وتقاليد ولهجات وأديبات ومصطلحات غريبة ومثيرة. فالشروع في خوض البحر هو أول التاريخ في هذا النمط العتيق، وبالرغم من الأهمية الاستراتيجية لهذه العلاقة في الميادين العسكرية والأمنية والسياسية. إلا أن ذلك لا يحجب التطورات النوعية في معظم مجالات الحياة للمجتمع العربي الإسلامي في تلك الفترة المبكرة من تاريخه الجديد.

كذلك فإن نفوذ المكان لن يهدأ عند اختيار المركز الجديد للسلطة، بل سيستمر في تحديد أو تشكيل زخمها وعزمها، كما سيتواصل في رسم صورتها وسماتها الخاصة، سيكون للمكان، بطريقة مباشرة وغير مباشرة، منفذة ومشاركة مع عوامل أخرى، إسهام في نموها وإستقرارها، أو جمودها واضطرابها، ومن غير المستبعد أن يكون للمكان سهم في صياغة نظامها وآلياتها، وبالتالي تحديد مستوى رسوخها، ودرجة حصانتها ومناعتها.

هذه بعض المسارات التي يمكن متابعتها في هذا البحث، وهي، كما نلاحظ، واسعة وغير محددة، إنها زاوية نظر بالغة الأهمية، مُطلعة على مجرى التاريخ، ومن شأنها التأمل في كل معطياتها وحبياتها، وهي إذ لا تدعي إحتكار التفسير والتعليل. فإنها تؤكد حضورها في البنية الأولى للتاريخ، على اختلاف إسهاماتها

في حركته وتطوره.

قد لا نجد في المعطيات التاريخية المتوافرة ما يسهل هذا النوع من المقاربات أو يكفيها، لكن من المفترض أن هذا المنهج في الكتابة التاريخية قادر على تظهير معطيات مستورة، وإستنبات أخرى كامنة ومغمورة، بالإضافة إلى إفادته الواسعة من الحقائق الطبيعية الثابتة التي لا تزل، وسنقى، قائمة ومؤثرة.

أمل أن يتسنى لي، أو لبعض زملائي و من أراد من الطلاب والمهتمين، إستكمال ما يمكن من هذا البحث لما فيه من فوائد علمية تتجاوز المجال الخاص بالتاريخ إلى مجالات أخرى في الفلسفة والإجتماع والسياسة ومعظم العلوم الإنسانية.

٤٠٠٣



## المصادر والمراجع

## أولاً: المصادر

- القرآن الكريم
- ابن خرداذبة، عبدالله بن عبدالله: المسالك والممالك، تحقيق خير الدين قباوي، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، دمشق 1999.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: المقدمة، مؤسسة الأعلامي للطبعات، بيروت، د.ت
- ابن تينة الدينوري، عبدالله بن مسلم: يُنسب له كتاب الإمامة والسياسة، أو تاريخ الخلفاء، تحقيق علي شيري، دار الأضواء، الطبعة الأولى، بيروت 1990.
- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم: لسان اللسان تهذيب لسان العرب، جزآن، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، 1993.
- أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم: كتاب الخراج، قسم من مجموعة كتب في التراث الاقتصادي الإسلامي، تقديم الفضل شلق، دار الحداثة، الطبعة الأولى، بيروت 1990.
- الأزدي، محمد بن عبدالله: تاريخ فتوح الشام، تحقيق عبد المنعم عبدالله عامر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة 1970.
- البكري، عبدالله بن عبد العزيز: مُعجم ما استُخرج، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت 1998.
- البلاذري، أحمد بن يحيى:
- فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال، بيروت 8891، ص 111-113.
- أنساب الأشراف، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي، 13 جزءاً، دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت د.ت.

- البلخي، أحمد بن سهل: البدء والتاريخ، وضع حواشيه عمران المصور، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت 1997.
- الجاحظ، عمرو بن بحر: كتاب البلدان، نشره مع مقدمة وتعليقات صالح أحمد العلي، مسئلة من مجلة كلية الآداب، بغداد، مطبعة الحكومة 1970.
- الحوي، ياقوت بن عبدالله: معجم البلدان، 7 مجلدات، دار صادر، الطبعة الثانية، بيروت 1995.
- الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، 11 جزءاً الطبعة الثانية، بيروت د.ت.
- المسعودي، علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تقديم محمد السويدي، المؤسسة الوطنية للعلوم المضطربة، أربعة أجزاء، موم للنشر، الجزائر 1989.
- المقدسي، محمد بن أحمد بن البناء البشاري: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1987.
- الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد عبيد الأكرع الحوالي، منشورات دار البعثة للبحث والنشر، الرياض 1974.
- الواقدي، محمد بن عمر: فتوح الشام، تحقيق عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، بيروت 2005.
- يعقوبي، أحمد بن علي: كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربي، جزآن، الطبعة الأولى، بيروت 1988.

## ثانياً: المراجع

- إبراهيم، حقي إسماعيل: أسواق العرب التجارية في شبه الجزيرة العربية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، عثان 2002.
- أبو غليل، شوقي: أطلس التاريخ العربي الإسلامي، دار الفكر المعاصر ودار الفكر، الطبعة السادسة عشرة، بيروت ودمشق 2011.
- الخالدي، طريف: فكرة التاريخ عند العرب من الكتاب إلى المقدمة، ترجمة حسني زينة، دار النهار، الطبعة الأولى، بيروت 1997.
- العلي، صالح أحمد: الفتوحات الإسلامية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة الثانية، بيروت 2013.
- إيت، جوردون: الجغرافيا توجه التاريخ، ترجمة جمال الدين الدناصوري، دار الهلال، القاهرة د.ت.
- بروديل، فرنان: قواعد لغة الحضارات، ترجمة الهادي التيمومي، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت 2009.
- يصفون، إبراهيم: الحجاز والدولة الإسلامية دراسة في إشكالية العلاقة مع السلطة المركزية في القرن الأول الهجري، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت 1983.
- جعيط، هشام:
- تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، دار الطليعة، الطبعة الأولى، بيروت 2007.
- الكوفة نشأة المدينة العربية الإسلامية، دار الطليعة، الطبعة الثانية، بيروت 1993، ص 46.
- حوراني، جورج فاضل: العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة يعقوب بكر، مطابع دار الكتاب العربي، القاهرة د.ت.
- دورتيه، جان فرنسوا: معجم العلوم الإنسانية، مادة علم الجغرافيا، ترجمة

- جورج كتورة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية 2011.
- دروي، رينهرت: نظرات في تاريخ الإسلام عصري صدر الإسلام وملوك الطوائف في الأندلس، ترجمة كامل كلابي، دار ومكتبة بيبليون، جبل لبنان، د.ت.
- سلهب، حسن: غزوات الرسول وسراياه، جدلية الدعوة والقوة، دار الهادي، الطبعة الأولى، بيروت 2005.
- شعبان، محمد عبد الحي: صدر الإسلام والدولة الأموية 600-750 م (231هـ)، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت 1987.
- شلق، الفضل: المخراع والإقطاع والدولة، دراسة في الانقضاء السياسي للدولة الإسلامية، مجلة الاجتهاد، المجلد الأول، العدد الأول، نموذج - تشرين الأول 1988.
- عبد العليم، أنور: الملاحة وعلوم البحار عند العرب، عالم المعرفة، رقم 31، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت يناير 1997.
- قلهوزن، بوليس: تاريخ الدولة العربية منذ ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريقة، دار بيبليون، باريس 2008.
- كاهن، كلود: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى بداية الامبراطورية العثمانية، ترجمة بدر الدين القاسم، دار الحقيقة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، بيروت 1982.
- كنزيلي، فرانسيسكو: محمد والفتوحات، ترجمة عبد الجبار ناجي، دار المحجة البيضاء، منشورات الجمل، الطبعة الأولى، بيروت وبغداد 2011.
- لوبارد، موريس: الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى، ترجمة عبد الرحمن حميدة، دار الفكر المعاصر، الطبعة الأولى، بيروت 1998.
- بحى، لطفي عبد الوهاب: العرب في العصور القديمة، دار النهضة العربية، الطبعة الثانية، بيروت 1979.

## فهرس المحتويات

5	تقديم .....
9	مقدمة .....
13	الفصل الأول: مقاربات نظرية .....
13	أولاً: مدخل عام .....
15	1 - المناخ .....
16	2 - الموقع .....
17	3 - التربة .....
18	4 - التضاريس .....
20	ثانياً: آراء في علاقة الإنسان بالمكان .....
20	1 - الجاحظ والمعمودي .....
23	2 - آراء ابن خلدون .....
25	- أهل القفار .....
26	- نمط حياة الإبل .....
27	- العرب والحياة الطبيعية .....
28	- العرب والتوحيش .....
29	- الإنتقال والإستقلال .....
32	ثالثاً: بين شبه الجزيرة العربية والأقاليم المجاورة .....
33	1 - العرب والإتصال بالمحيط .....
36	2 - مكة بقعة الإتصال والإنتفاع .....

- 3 - شروط العرب في إنتشار الدين ..... 38
- 4 - بادية الشام والفصل بين الأقاليم ..... 40
- الفصل الثاني: الفتوحات / مقاربات وإشكاليات ..... 45
- تمهيد ..... 45
- أولاً: مقاربات تطبيقية ..... 48
- 1 - مكة المكرمة ..... 48
- 2 - الخروج إلى الطائف ..... 52
- 3 - المدينة المنورة ..... 56
- 4 - الأعمال الحربية ..... 60
- 5 - «لا يجتمع بجزيرة العرب دينان» ..... 62
- 6- حركة الردة ..... 64
- ثانياً: إشكاليات وجهة الفتوحات ..... 67
- 1 - مقارنة المشرق كلود كاهن ..... 67
- 3- مقارنة المشرق رينهرت دوزي ..... 71
- بعض الإستنتاجات ..... 73
- ثالثاً: فتوح الشام والعراق ومصر ..... 75
- 1 - فتح الشام ..... 76
- عرب الحجاز والشام ..... 76
- مقارنة كلود كاهن ..... 80
- مقارنة صالح العلي ..... 81
- البحر وبلاد الشام ..... 84
- المواقع المعادية نحو بلاد الشام ..... 85

- المسيحية وبلاد الشام ..... 87
- معركة اليرموك: وقائع ودلالات مكانية ..... 89
- توقيت المعارك ..... 94
- 2- فتوح العراق ..... 96
- معركة الجسر ..... 97
- واقعة مهران ..... 102
- ما بين العراق والشام ..... 103
- معركة القادسية: وقائع ودلالات مكانية ..... 107
- بعض النساؤلات والإستنتاجات ..... 111
- 3- فتح مصر ..... 113
- الفصل الثالث: مزايا الأقاليم ..... 119
- أولاً: السواد والتحولات النبوية في الدولة الناشئة ..... 119
- 1 - تعريف السواد ..... 119
- 2 - السواد والمفهوم الجديد للفتيحة ..... 122
- 3 - السواد والسلطة ..... 124
- 4 - آراء في تداعيات فتح السواد ..... 126
- 5 - بين القفار والسواد ..... 128
- ثانياً: التعامل مع حشية المكان ..... 131
- 1 - الفتح وإحترام التجربة الحياتية السابقة ..... 131
- 2 - الفتح ومفهوم الإستمرارية ..... 133
- 3 - تجربة التعامل مع الأساورة ..... 136
- ثالثاً: العنيفة عمر وهواجس المكان ..... 138



138	1 - الخليفة ووعي المكان.....
139	2 - الخليفة وهاجس التمدن.....
141	3 - المكان في الشام ومصر والعراق.....
145	الفصل الرابع: المسلمون العرب والبحر.....
145	أولاً: إشكالية العرب والبحر.....
145	1 - دور الموقع والحدود.....
147	2 - مقارنة بين خلدون.....
148	3 - مقارنة معاصرة.....
150	4 - العرب والمتاذف البحرية الثلاثة.....
155	ثانياً: الخليفة عمر وركوب البحر.....
155	1 - وقائع تاريخية.....
157	2 - مقارنة موقف الخليفة.....
160	3 - الخليفة وخوض البحر المتوسط.....
163	ثالثاً: تطورات الموقف بعد الخليفة الثاني.....
163	1 - تطوّر المعطيات الميدانية.....
164	2 - مقارنة منهجية للمرحلة الجديدة.....
165	3 - غزوة قبرص.....
167	رابعاً: سعد بن أبي وقاص وعبر الماء.....
167	1 - وقائع تاريخية.....
171	2 - آراء وإنتاجات.....
173	خامساً: واقعة «ذات الصواري» سنة 13 هـ أو 43 هـ.....
173	1 - وقائع التاريخ.....

176	2 - أبعاد ومعاني مكانية.....
181	الفصل الخامس: مركز الخلافة/ الشروط والتطورات.....
181	أولاً: مركز السلطة والمكان.....
181	1 - شروط مركز السلطة.....
182	2 - نشوء مركز السلطة في المدينة.....
184	- ثانياً: زمن المدينة - المركز.....
185	1 - مؤشرات التحول في زمن المدينة - المركز.....
188	2 - إرتباط المدينة - المركز بطاقات المكان.....
189	3 - المدينة تتحسّس زماؤها.....
190	4 - إنتقال كبار الصحابة إلى بلاد الفتح.....
193	5 - المدينة والدور الروحي المتنامي.....
195	ثالثاً: محاولات في دعم المدينة.....
195	1 - وصل بحر الشام ببحر القلزم.....
198	رابعاً: الخليفة علي والقرار التلقائي.....
198	1 - الشام والعراق والبديل الممكن للمدينة.....
200	2 - الكوفة بديلاً أولياً للمدينة.....
201	3 - آراء ومقاربات.....
205	الخاتمة.....
208	المصادر والمراجع.....
208	أولاً: المصادر.....
210	ثانياً: المراجع.....
213	فهرس المحتويات.....

للمكان أهمية خاصة في تحديد مسار البحث العلمي وتوجيهه، في علمي التاريخ والأثار إذ تبنى عليه الفرضيات المؤسسة للعديد من الأبحاث الخاصة بتاريخ الشعوب لتصبح الأماكن شاهد عيان لا يمكن تكذيبه بحال من الأحوال، لكونه ركنا أساسيا في الخبر أو النبأ. فسؤال أين؟ هو أحد أهم الأسئلة التي على المخبر أن يجيب عليها في خبره. فالجواب على سؤال أين؟ غالبا ما يجيب عن كثير من الأسئلة الكامنة وراء أي خبر، فإذا عرفت أين حدث شيء ما قد تعرف، مبدئياً، لماذا حدث ومع من حدث.. ولعل الزميل الدكتور حسن سلهب قد تأثر في كتابه المكان والتاريخ في صدر الإسلام بمقاربات في الجغرافية بكتاب العالم الجيوسياسي فيرناند بروديل (Fernandbraudel) وقسم الدكتور سلهب كتابه الى خمسة فصول إضافة الى مقدمة وخاتمة خصص الفصل الأول من الكتاب لمقاربات نظرية عرض فيها لعناصر المكان الجغرافية والإنسانية وافرد الباحث الفصل الثاني لمقاربات تطبيقية واشكاليات تتعلق بوجهة الفتوحات العربية في الشام والعراق ومصر .

ودرس المؤلف في الفصل الثالث مزايا الأقاليم المفتوحة ولا سيما منطقة السواد العراقية ذات الأراضي الزراعية الخصبة وتناول الدكتور سلهب في الفصل الرابع مسألة جيوسياسية مهمة تتصل بعلاقة العرب بالبحر وتوجسهم ركوبه  
اما الفصل الخامس والأخير فمعهده الباحث لمركز الخلافة الراشدة وشروط اختيار مكانه

isbn: 978-614-426-752-3



9 786144 267523

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

ت: ٧١/٨٦٨٩٨٠

darrawafed@yahoo.com



دار روافد

PDF ProScanner